

كيفية السلوك إلى رب العالمين

ويليه

بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب

ويليه

منازل القربة

ويليه

إثبات العلل الشرعية

كلها تأليف

الحكيم الترمذي

أبي عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن بشر

المتوفى سنة ٣٢٠ هـ

ضبطها وصححها وعلق عليها

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي



كيفية السلوك إلى رب العالمين

ويليه

بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب

ويليه

منازل القربة

ويليه

إثبات العلل الشرعية

كلها تأليف

الحكيم الترمذي

أبي عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن بشر

المتوفى ٣٢٠ هـ

ضبطها وصححها وعلق عليها

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

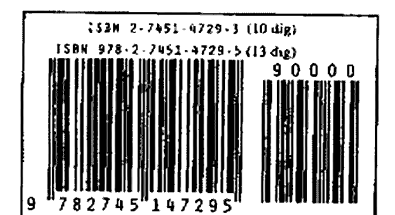
الحسيني الشاذلي الدرقاوي



بيروت - لبنان

Title: Kayfiyyat al-sulūk ilā Rabb al-'Ālamīn
ويليه Bayān al-farq bayna al-ṣadr wal-qalb wal-fu'ād wal-lubb
ويليه Manāzil al-qurbah
ويليه Iṯbāt al-'ilal al-šar'iyyah
(4 books in Sufism)
classification: Sufism
Author: Al-Ḥakīm al-Tirmidi
Editor: Dr. 'Āṣim Ibrāhīm al-Kayyāli
Publisher: Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Pages: 232
Year: 2007
Printed in: Lebanon
Edition: 1st

الكتاب: كيفية السلوك إلى رب العالمين
ويليه بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب
ويليه منازل القربة
ويليه إثبات العلل الشرعية
التصنيف: تصوف
المؤلف: الحكيم الترمذي
المحقق: د. عاصم إبراهيم الكيالي
الناشر: دار الكتب العلميـــة - بيروت
عدد الصفحات: 232
سنة الطباعة: 2007
بلد الطباعة: لبنان
الطبعة: الأولى





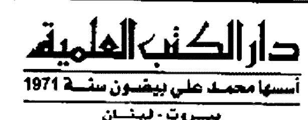


أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان





الطبعة الأولى
٢٠٠٧ م - ١٤٢٨ هـ



أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

Aramoun, al-Quebbeh,
Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax:+961 5 804813
P.o.Box:11-9424 Beirut-lebanon
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون، القبة،
مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ٨١٠/١١/١٢ ٨٠٤ ٥ ٩٦١+
فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١+
ص.ب: ٩٤٢٤-١١ بيروت - لبنان
رياض الصلح - بيروت ٢٢٩٠ ١١٠٧

http://www.al-ilmiyah.com
sales @al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بسم الله الظاهر بالمحبة الأصلية من عماء كنزية الهوية الأزلية الأحدية بشؤونه اليومية الشهادية الأبدية الواحدية في الحضرات التعريفية. تصديقاً لقوله تعالى: «**كنت كنزاً مخفياً لم أعرف فخلقت الخلق وتعرفت إليهم فبي عرفوني**»[1]. ولقوله تعالى: ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن: 29]. وقوله تعالى:﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾ [الحديد: 57].

والحمد لله الذي بين لنا كيفية السلوك إليه تعالى من منازل القرب منه عز وجل، وفقهنا علل الأحكام الشرعية بما تجلى به على صدورنا وقلوبنا وأفئدتنا وأسرارنا من حكم ملكية وأنوار ملكوتية وأسرار جبروتية والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على المبعوث رحمة للعالمين عبد الله ورسوله وحبيبه الأول بروحه الخاتم برسالة الدين الكامل الجامع للإسلام والإيمان والإحسان تصديقاً لقوله ﷺ: «**كنت نبياً وآدم منجدل في طينته**»[2] وقوله ﷺ: «**لا نبي بعدي**»[3].

وبعد ففي مجال الأخلاق والتربية والسلوك والترقي من الصفات البهيمية للتخلق بالصفات الكمالية الإنسانية المحمدية إذ هو الإنسان الكامل بمقتضى قوله ﷺ: «**أدبني ربي فأحسن تأديبي**»[4]. وبمقتضى قول السيدة عائشة عندما سئلت عن خلقه ﷺ فقالت: «**كان خلقه القرآن**»[5]. والقرآن كلام الله تعالى وكلامه صفته والصفة قائمة

---

(1) أورده العجلوني في كشف الخفاء، برقم (2016) [173/2].

(2) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، (34 تفسير سورة الأحزاب..، حديث رقم (3566) [453/2] ورواه غيره.

(3) رواه البخاري في صحيحه، (51 باب ما ذكر عن بني إسرائيل..) حديث رقم (3268) [3/1273] ورواه مسلم في صحيحه في أبواب عدة أحدها: باب (10 وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء..) حديث رقم (1842) [1471/3] ورواه غيرهما.

(4) أورده ابن حجر العسقلاني في الإقناع بالأربعين المتباينة [97/1] وعزاه إلى العسكري.

(5) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، باب من اسمه إبراهيم، حديث رقم (72) [30/1] ورواه

بالموصوف لا تنفك عنه فأخلاقه أخلاق الله تعالى بدليل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ [الفتح: 10] وقوله تعالى: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال: 17].

وفي إطار الكتب المتعلقة بهذا المجال والتي نقوم بتحقيقها وتنقيحها وضبطها وترقيمها والتعليق عليها ونشرها بأبهى حلة تسهيلاً على القارىء الكريم نقدم للقراء الكرام أربعة كتب مهمة لأحد كبار أئمة التصوف المتقدمين الذين كتبوا في هذه المواضيع هو الإمام الحافظ والعارف بالله تعالى المحقق أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن بشر المشهور بالحكيم الترمذي المتوفى بعد سنة 318 هجرية أول من ألف في الولاية والولي. وهذه الكتب هي التالية:

الأول: كيفية السلوك إلى رب العالمين، بين فيه المؤلف المَوَاطن التي يمر بها السالك إلى الله تعالى والرجوع من عنده إلى خلقه من غير مفارقة معتمداً في ذلك على الكتاب والسنة. أجملها في ست مواطن هي:

1 ـــ موطن «ألست بربكم».

2 ـــ موطن الدنيا.

3 ـــ موطن البرزخ.

4 ـــ موطن الحشر.

5 ـــ موطن الجنة والنار.

6 ـــ موطن الأعراف.

الثاني: الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب تحدث فيه المؤلف عن حقيقة كل مصطلح منها ومتعلقاته الجسدية والنفسية والروحية بأبسط عبارة وأدق إشارة.

الثالث: منازل القربة. تحدث فيه عن كيفية تقرب السالك إلى الله تعالى بالفرائض والنوافل مبيناً وسائل تحقق ذلك ومنها الشكر والتقوى والاستقامة ومبيناً حقائق النية والتمسك بسنة النبي وأهل بيته والفرق بين المعرفة والإيمان والتوحيد

أحمـــد في المـــسند برقم (24645) [91/6] وبرقم (25341) [163/6] وبرقم (25855) [216/6] ورواه غيرهما.

ومعنى بعض الصفات الإلهية الجلالية وغير ذلك من المسائل الروحية.

الرابع: إثبات العلل الشرعية. أجاب فيه عما اختلف الناس فيه من إثبات علل الأحكام الشرعية في الأمر والنهي من قائل: هذا تعبد من ربنا بأن خلق الخلق فتعبدهم للأمر والنهي وليس لأمره علة، وإنما هو امتحان وابتلاء. ومن قائل: هو ابتلاء وامتحان تعبدهم به... ولكن علل الأحكام قائمة علمها من علمها وجهلهان جهلها.

هذا ولا بد من الإشارة إلى أن كتب التصوّف الإسلامي تساعد المريد عى الاطلاع على الأحوال والمقامات، التي يمر بها السالك إلى الله تعالى، كما يطلع على الحكم والقواعد الصوفية، التي يستلهم منها كيفية التحقق بأحكام مقام الإسلام وأنوار مقام الإيمان، وأسرار مقام الإحسان، وصولاً إلى قوله تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ [الحجر: 99]. كل ذلك بإشراف ورعاية وتربية شيخه العالم بأمراض النفوس والقلوب؛ وبالأدوية الشافية له من هذه الأمراض، لأنه ورث عن النبي ﷺ علوم وأسرار مقامات الدين الثلاث: الإسلام والإيمان والإحسان، والشريعة والطريقة والحقيقة، المُلْك والملكوت والجبروت؛ مصداقاً لقوله ﷺ: «**العلماء ورثة الأنبياء**»، وقوله ﷺ: «**إن هذا العلم دين فانظروا عمّن تأخذون دينكم**».

ونرجو الله تعالى أن ينفعنا والمسلمين بما في هذه الكتب من الحب والإخلاص والصدق واليقين، ومن أنوار أسرار ما تعبَّدنا لله به على لسان نبيّه ﷺ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴾ [الأحزاب: 21]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ [النساء: 69] لننال السعادة الحقيقية المتمثّلة بمعرفة الله تعالى في الدنيا، والنظر إلى وجهه الكريم في الآخرة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ﴾ [القيامة: 22، 23].

كتبه الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي



ترجمة الحكيم الترمذي [1]

هو الإمام الحافظ، العارف، الزَّاهد، الصوفي، أبو عبد الله، محمد بن علي بن الحسن بن بشر، الحكيم التِّرمذي نسبة إلى ترمذ، مسقط رأسه ولد سنة 205 هـ وتوفي بها سنة 320 هـ[*]. سمع الكثير بخراسان والعراق.

حدَّث عن: أبيه، وقُتَيْبَة بن سعيد، وعلي بن حجر، وصالح بن عبد الله التِّرمذي، وعتبة بن عبد الله المروزي، وسفيان بن وكيع، وعباد بن يعقوب الرَّواجني، وطبقتهم.

وكان ذا رحلةٍ ومعرفةٍ، وله مصنفاتٌ وفضائل.

حدَّث عنه: يحيى بن منصور القاضي، والحسن بن علي، وغيرهما من مشايخ نيسابور، فإنَّه قدمها وحدَّث بها في سنة خمسٍ وثمانين ومئتين هجري.

وقد لقي أبا تراب النَّخشبي، وصَحِب أحمد بن خضرويه، ويحيى بن الجلاء.

وله حكم ومواعظ وجلالة، لولا هفوةٌ بدت منه.

ومن كلامه: ليس في الدُّنيا حملٌ أثقلُ من البر، فمن برَّك فقد أوثقك، ومن جفاك فقد أطلقك.

وقال: كفى بالمرء عيباً أن يسُرَّه ما يضره.

وقال: من جهِل أوصاف العبوديَّة، فهو بنعوت أوصاف الرَّبَّانية أجهل.

وقال: صلاح خمسةٍ في خمسةٍ: صلاح الصَّبي في المكتب، وصلاح الفتي في العلم، وصلاح الكهل في المسجد، وصلاح المرأة في البيت، وصلاح المؤذي في السُّجن.

وسُئل عن الخلق: فقال ضعفٌ ظاهر، ودعوى عريضة.

قال أبو عبد الرَّحمن السُّلمي: أخرجوا الحكيم من تِرْمِذ، وشهدوا عليه بالكفر، وذلك بسبب تصنيفه كتاب: «ختم الولاية»، وكتاب «علل الشَّريعة»، وقالوا: إنَّه

---

(1) انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء (13/439 - 442).

(*) وثَّقَ هذه المعلومة (تاريخ الميلاد والوفاة) الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح أثناء تحقيقه لرسالة كيفية السلوك إلى رب العالمين للحكيم الترمذي، منشورات الدار المصرية.

يقول: إن للأولياء خاتماً كالأنبياء لهم خاتم، وإنَّه يُفضِّل الولاية على النُّبُوَّة وهو كلام غير صحيح وإنما قالوا ذلك لأنهم لم يفهموا كلامه في الولاية، واحتج بحديث: «يَغْبِطُهُمُ النَّبِيُّون والشُّهداءُ» فقدِمَ بلخ، فقبلوه لموافقه لهم في المذهب.

وذكره ابن النَّجَّار، فوهِم في قوله: روى عنه علي بن محمد بن ينال العُكبري؛ فإنَّ ابن ينال إنَّما سمع من محمد التِّرمذي، شيخ حدَّثهم في سنة ثمان عشرة وثلاث مئة.

وذكره السُّلمي: حدثنا علي بن بُنْدار الصَّيرفي، سمعتُ أحمد بن عيسى الجُوْزجاني، سمعتُ محمد بن علي التِّرمذي يقول: ما صَنَّفْتُ شيئاً عن تدبير، ولا لأن يُنسب إليَّ شيءٌ منه، ولكن كان إذا اشتدَّ عليَّ وقتي كنتُ أتسلى بمصنَّفاتي.

وقال السُّلمي: هُجر لتصنيفه كتاب: «ختم الولاية»، و«علل الشَّريعة»، وليس فيه ما يوجبُ ذلك، ولكن لبعد فهمهم عنه.

من تصانيفه:

ختم الأولياء، الأكياس والمغترين، رياضة النفس، الكسب، نوادر الأصول في معرفة أخبار الرسول إضافة إلى الكتب التي بين أيدينا وهي:

كيفية السلوك إلى رب العالمين، الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب، منازل القربة، إثبات علل الشريعة.



تأليف

الحكيم الترمذي

أبي عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن بشر

المتوفى ٣٢٠ هـ

ضبطه وصححه وعلق عليه

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه، وسلم تسليماً.

قال الشيخ، الإمام، العالم، الرباني، الفاضل، الكامل، الولي، العارف: أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن بشر، الترمذي، الحكيم، ﷺ، ونفعنا به، وحشرنا في زمرته.

الحمد لله، واهب العقل ومبدعه، وناصب النقل ومشرعه، له المنة والطَّوْلُ، والقوة والحول، لا إله إلا هو، رب العرش العظيم.

وصلى الله على من أقام به أعلام الهدى، وأنزله بالنور الذي أظل به مَنْ شاء وهَدَى، وسلم على آله الطيبين، الطاهرين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أجبتُ سؤالك، أيها الوَلِيُّ الكريم، والصَّفِيُّ الحميم: في كيفية السلوك إلى رب العالمين، والوصول إلى حضرته، والرجوع من عنده إلى خلقه، من غير مفارقة، فإنه ليس في الوجود إلاَّ الله تعالى، وصفاته، وأفعاله، فالكل هو به، ومنه، وإليه. فلو احتجب عن العالم طرفة عين، لفني العالم، دفعة واحدة، فبقاؤه: بحفظه، ونظره إليه.

غير أن من اشتد ظهوره في نوره، بحيث أن تَضعُف الدروكات عنه، يسمى ذلك الظهور حجاباً.

كيفية السلوك إليه سبحانه وتعالى:

فأول ما أبينه لك وفقك الله كيفية السلوك إليه، ثم كيفية الوصول والوقوف بين يديه، والجلوس في بساط مشاهدته وما يقوله لك، ثم كيفية الرجوع من عنده، إلى حضرة أفعاله وإليه، ثم الاستهلاك فيه، وهو مقام دون الرجوع..

فاعلم - أيها الأخ - أن الطرق شتى، وطريق الحق مفردة، والسالكون طريق الحق أفراد.

ومع أن طريق الحق مفردة، فإنه تختلف وجوهها، باختلاف أحوال سالكيها، من اعتدال المزاج وانحرافه، وملازمة الباعث، وقوة روحانيته وضعفها، واستقامة همته وميلها، وصحة توجهه وسقمه، فمنهم من تجمع له، ومنهم من يكون له بعض هذه الأوصاف، فقد يكون مطلب الروحانية شريفاً ولا يساعده المزاج، وكذلك ما بقي.

فأول ما يتعين علينا أن نبينه: معرفة المواطن كم هي، وما يقتضي ما أريد منها. والمواطن: عبارة عن محل أوقات الموارد التي تكون فيه. وينبغي لك أن تعرف ما يريد الحق منك في تلك المواطن، فتبادر إليه من غير تثبط ولا كلفة.

والمواطن وإنْ كثرت فإنها ترجع إلى ستة:

الأول: موطن: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 172] وقد فصلنا عنه.

والثاني: موطن الدنيا الدني التي نحن الآن فيها.

والثالث: موطن البرزخ، الذي نصير إليه، بعد الموت الأصغر والأكبر.

والرابع: موطن الحشر، بأرض الساهرة، والرد في الحافرة.

والخامس: موطن الجنة والنار.

والسادس: موطن الكشف خارج الجنة.

وفي كل موطن من هذه المواطن مواضع، هي مواطن، ليس في القوة البشرية الوفاء بها لكثرتها، ولسنا نحتاج من هذه المواطن إلا إلى الموطن الدني العمري، فهو محل التكليف، والابتلاء، والأعمال.

واعلم: أن الناس منذ خلقهم الله مُكَلَّفُون، ومنذ أخرجهم من العدم إلى الوجود، لم يزالوا مسافرين، وليس لهم حط عن رحالهم إلا في الجنة أو النار.

وكل جنة أو نار بحسب أهلها. فالواجب على كل عاقل، أن يعلم أن السفر مبني على المشقة، وشظف العيش والمحن والبلايا، وركوب الأخطار، والأهوال العظام.

فمن المحال أن يتم فيه نعيم، أو أمان، أو لذة، فإن المياه مختلفة الطعم، والأهوية مختلفة التصريف، وأهل كل منهلة مخالفون طبع أهل المنهلة الأخرى.

فيحتاج المسافر لما يصلح، بتلقي كل عالَم ومنزلة، فإنه عندهم صاحب ليلة أو ساعة وينصرف، فأنَّى تعقل الراحة، فيمن هذه حاله؟

وما أردنا بهذا، رداً على أهل النعيم في الدنيا، العاملين لها، والمكبين على جمع حطامها، فإن أهل هذا الفعل عندنا أقل وأحقر من أن يشتغل بهم، أو يلتفت إليهم.

وإنما أردنا تنبيهاً لمن استعجل لذة المشاهدة في غير موطنها الثابت، وحالة الهنا في غير منزلها، والاستهلاك بالحق، بطريق الحق عن العاملين. فإن السادات منا أَنِفُوا من ذلك؛ لما فيه من تضييع الوقت، ونقص الرتبة، ومعاملة الوطن بما لا يليق.

فإن الدنيا وتعلق الهمة بها، والركون إليها، واستحلاء ذلك سوء أدني في حقه

ويفوته أمر كبير؛ فإن زمان الهنا زمان ترك مقام أعلى مما هو فيه لأن التجلي على قدر العلم، وصورته: مما جعل لك، من العلم به، بمجاهدتك، وتهيئتك في الزمان الأول مثال، ثم إن ما شهدت في الزمان الثاني، فإنما تشهد منه صورة عملك المقرر في الزمان الأول. فما زدت سوى ما يزيدك من علم، فالقوة واحدة، فقد حصلت ما ينبغي لك أن تدخره لموطنه، وهو الدار الآخرة التي لا عمل فيها، فإن زمان مشاهدتك، لو كنت فيه صاحب عمل ظاهر، وتلقين علم باطن، كان أعلى بك؛ لأنك تزيد حسناً وجمالاً في روحانيتك الطالبة ربها، وفي نفسانيتك الطالبة خلتها، فإن اللطيفة الإنسانية، تحشر على صورة عملها، والأجسام تنشر على صورة عملها من الحسن والقبح، وهذا إلى آخر نفس. فإذا انفصلت من عالم التكليف، وموطن المعارج والارتقاءات، حينئذٍ تجتني ثمره كذلك.

فإذا فهمت هذا فاعلم وفقنا الله وإياك أنك إذا أردت الدخول إلى حضرة الحق، والأخذ منه، بترك الوسائط، والأنس به، فلا يصلح لك ذلك، وفي قلبك زبانية لغيره.

العزلة وإيثار الخلوة:

فإنك لمن حكم عليك سلطانه هذا لا شك فيه فلا بد لك من العزلة عن الناس، وإيثار الخلوة على الملأ، فإنه على قَدْرِ بُعْدِكَ عن الخلق، يكون قربك من الحق، ظاهراً أو باطناً..

فأول ما يجب عليك، طلب العلم، الذي تقيم به، طهارتك، وصلاتك، وصيامك، وتقواك وما يعرض عليك طلبه خاصة. لا تزيد على ذلك، وهو باب الشكر، ثم العمل به، ثم الورع، ثم الزهد، ثم التوكل.

وفي أول حال من أحوال التوكل تحصل لك أربع كرامات، هي علامات وأدلة، على حصولك، في أول درجة التوكل، وهي طيُّ الأرض، والمشي على الماء، واختراق الهواء، والأكل من الكون. وهو الحقيقة في هذا الباب، ثم بعد ذلك تتوالي المقامات، والأحوال، والكرامات، والتنزلات إلى الموت فالله، الله، لا تدخل خلوتك حتى تعرف أين مقامك، وقوتك من سلطان الوهم.

فإن كان وهمك حاكماً عليك فلا سبيل إلى الخلوة إلا على يد شيخ مميز عارف، وإن كان وهمك تحت سلطانك فخذ الخلوة ولا تبال. وعليك بالرياضة قبل الخلوة. والرياضة عبارة عن تهذيب الأخلاق، وترك الرعونة وتحمل الأذى فإن الإنسان

إذا لم يتقدم فتحه رياضته، لا يجيء منه رجل أبداً، إلا في حكم النادر.

فإذا اعتزلت عن الخلق، فاحذر من قصدهم إليك، وإقبالهم عليك، فإنه من اعتزل عن الناس، لم يفتح باب قصد الناس إليه، فإن المراد من العزلة، ترك الناس ومعاشرتهم، وليس المراد من ترك الناس، وترك صورهم، وإنما المراد ألاّ يكون قلبك، ولا أُذنك، وعاءً لما يأتون به، من فضول الكلام، فلا يصفو القلب من هذيان العالم.

فكل من اعتزل في بيته، وفتح باب قصد الناس إليه، فإنه طلب رياسة وجاه، ومطرود عن باب الله تعالى، والهلاك إلى مثل هذا أقرب من شراك نعله، فالله، الله، تحفظ من تلبيس النفس في هذا المقام، فإن أكثر الناس هلكوا فيه.

من آداب الخلوة:

فأغلق بابك دون الناس، كذلك باب بيتك وبينك وبين أهلك، واشتغل بذكر الله تعالى، بأي ذكر شئت من الأذكار، وأعلاها الاسم: الله. الله. لا تزيد عليه شيئاً، وتحفظ من طوارق الخيالات الفاسدة أن تشغلك عن الذكر، وتَحَفُّظْ في غذائك، واجتهد أن يكون دسماً، ولكن من غير حيوان فإنه أحسن.

واحذر من الشبع، ومن الجوع المفرط، والزم طريق الاعتدال في المزاج، فإن المزاج إذا أفرط فيه اليبس، أدى إلى خيالات وهذيان طويل.. إذا كان الوارد، هو الذي يعطي الانحراف، فذلك هو المطلوب، وتفرق بين الواردات الروحانية الملكية، والواردات الروحانية النارية الشيطانية، بما تجده في نفسك عند الوارد.

وذلك أن الوارد إذا كان ملكياً، فإنه يعقب برداً ولذة، ولا تجد ألماً، ولا تتغير لك صورة، ويترك علماً..

وإذا كان شيطانياً، فإنه يعقب تهريساً في الأعضاء، وألماً، وكرباً، وحيرة، ويترك تخبيطاً. فتَحَفُّظْ.

ولا تزال ذاكراً، حتى يفزع[1] قلبك إلى الله تعالى، وهو المقصود. واحذر أن تقول: ماذا؟

وليكن عقدك عند دخولك إلى خلوتك: أن الله ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾

(1) الإفـزاع والإخافـة والإغاثة. يقال: فزعت إليه فأفزعني، اي لجأت إليه من الفزع فأغاثني. (الصحاح في اللغة للجوهري).

[الشّورى: 11] فكل ما يتجلى لك من الصور في خلوتك ويقول: أنا الله. فقل: سبحان الله، أنت بالله، واحبط صورة ما رأيت، وَالْهُ عنها، واشتغل بالذكر دائماً.

هذا عقد واحد.

والعقد الثاني: ألاّ تطلب منه في خلوتك سواه، ولا تعلق الهمة إلا به، سبحانه تعالى جده، ولو عرض عليك كل ما في الكون فخذه بأدب، ولا تقف عنده، وصحح على طلبك، فإنه يبتليك. ومهما وقفت مع شيء فاتك، وإذا حصلت لم يفتك شيء، فإذا عرفت هذا فاعلم أن الله يبتليك بما يعرضه عليك.

فأول ما يفتحه عليك: أن يعطيك الأمر على ترتيب ما. أقوله لك، وهو كشف عالم الحس الغائب عنك فلا تحجبه الجدران، ولا الظلمة، عما يفعله الخلق في بيوتهم. إلا أنه يجب عليك التحفظ ألاّ تكشف سر أحد لأحد إذا أطلعك الله عليه.

فإن بُحت وقلت: هذا سارق، وهذا زان، وهذا يغتاب، فاتهم نفسك، فإن الشيطان قد دخل عليك، فتحقق بالاسم «الستار».

فإن جاءك ذلك الشخص، فاتهمه فيما بينك وبينه، على الستر، وأوْصِه أن يستحي من الله، ولا يتعدى حدود الله.

وعن هذا الكشف الحسي جاهد طاقتك واشتغل بالذكر.

وأما التفرقة بين الكشف الحسي والخيالي فأبينه لك.

وذلك إذا رأيت صورة شخص، أو فعلاً من أفعال الخلق، أن تغلق عينيك، فإن بقي لك الكشف فهو خيالك. وإن غاب عنك فإن للإدراك تعلُّقًا به في الموضع الذي رأيته فيه.

ثم إذا لهيت عنه، واشتغلت بالذكر، انتقلت من الكشف الحسي، إلى الكشف الخيالي، فتتنزل عليك المعاني العقلية، في الصور الحسية، وهو تنزل صعب. فإن علم ما يُراد بتلك الصور، لا يعرفه إلا نبي، أو من شاء الله من الصِّدِّيقين، فلا تشتغل به، وإنْ سِيقت لك مشروبات، فاشرب الماء منها، فإنْ لم يكن فيها ماء فاشرب اللبن، وإن جمعت بينهما فحسن، كذلك العسل فاشربه... [1].

واشتغل بالذكر حتى يُرفع عنك عالم الخيال، ويتجلى لك عالم المعاني المجردة

(1) عبارة محذوفة بالأصل.

عن المادة، فاشتغل بالذكر حتى يتجلى لك مذكورك، فإن أفناك عن الذكر فتلك المشاهدة أو النومة.

وسبيل التفرقة بينهما: أن المشاهدة تترك في المحل شاهدها، فتقع اللذة عقبها، والنومة لا تترك شيئاً، فيقع التيقظ عقبها، والاستغفار والندم، ثم إنه يعرض عليك مراتب الملائكة ابتلاءً، فإن رتب لك العرض، فإنك ستكشف أولاً، على أسرار الأحجار المعدنية وغيرها، وتعرف سر كل حجر، وخاصيته في المضار والمنافع، فإن تعشقت ذلك أبقيت معه وطردت، ثم يسلب عنك حفظه فخسرت.

وإن استفدت منه، واشتغلت بالذكر، ولجأت إلى جناب المذكور، رفع عنك ذلك النمط، وكشف لك عن النباتات، ونادتك كل عشبة بما تحمله من المضار والمنافع، فليكن حكمك معها كحكمك أولاً.

وليكن غذاؤك عند الكشف الأول ما كثرت حرارته ورطوبته، وفي هذا الكشف ما اعتدلت حرارته ورطوبته. فإذا لم تقف معه، رفع لك عن الحيوانات، فسلمت عليك، وعرفتك بما تحمله من المضار والمنافع.

وكلُّ عالَم يعرفك بتسبيحه وتحميده، وهنا نكتة، وذلك أن تنظر ما تشتغل به من الأذكار، فإن رأيت هؤلاء العوالم مشتغلين بذلك الذكر، الذي أنت عليه، فكشفك خيالي، لا حقيقي، وإنما ذلك حالك أقيم لك في الموجودات، وإذا شهدت في هؤلاء تنويعات أذكار، فهو الكشف الصحيح.

وهذا المعراج هو معراج التحليل على الترتيب، والقبض لك مصاحب في هؤلاء العوالم على الترتيب.

ثم بعد ذلك يكشف لك عن عالم سريان الحياة السارية في الأحياء، وما يعطي من الأثر في كل ذات، بحسب استعداد الذوات، وكيف تندرج في هذا السريان.

فإن لم تقف مع هذا رُفع عنك، ورفعت لك اللوائح اللوحية، وخوطبت بالخوف، وتنوعت عليك الخيالات، وأُقيم لك ذوات، تعاين فيها صور الاستحالات، وكيفَّ يصير اللطيف كثيفاً، والكثيف لطيفاً، وما أشبه ذلك.

آداب الدخول والوقوف بين يدي الحق:

فإن لم تقف مع هذا ورُفع لك نور متطاير الشرر، فستطلب الستر عنه، فلا تَخَفْ، وَدُمْ على الذكر؛ فإنك إذا دمت على الذكر، لن تصيبك آفة.

فإن لم تقف مع ذلك، رُفع لك نور الطوالع، وصورة التركيب الكلي، وعاينت آداب الدخول إلى الحضرة الإلهية، وآداب الوقوف بين يدي الحق، وآداب الخروج من عنده إلى الخلق، والمشاهدة الدائمة بالوجوه المختلفة، من الظاهر والباطن، والخيال الذي لا يشعر به كل أحد، فما نقص من الوجه الظاهر، أخذه من الوجه الباطن. والذات واحدة، فما ثَمَّ نقص، وكيف تلقى العلوم الإلهية من الله تعالى، وما ينبغي أن يكون عليه المتلقي من الاستعدادات، وآداب الأخذ والعطاء، والقبض والبسط. وكيف يحفظ القلب من الهلاك المحرق، فإن الطُرُقَ كلُها مستديرة، ما ثَمَّ طريق خَطِّيٌّ. وغير ذلك مما تضيق الرسالة عنه.

فإن لم تقف مع هذا كله رُفع لك عن مراتب العلوم النظرية، والأفكار السليمة، وصور المغاليط التي تطرأ على الأفهام. والفرق بين الفهم والوهم، وتولد التكوينات بين عالم الأرواح والأجسام، وسبب ذلك التولد، وسريان السر الإلهي في عالم العناية، وسبب من ترك الكون، عن مجاهدة وعن لا مجاهدة، وغير ذلك مما يطول.

فإن لم تقف مع هذا رُفع عن عالم التصوير والتحسين والجمال، وما ينبغي أن تكون عليه العقول من الصور المقدسة، والنفوس الثانية من حسن الشكل، والنظام، وسريان القوة، واللين، والرحمة في الموصوفين بها. ومن هذه الحضرة يكون إمداد الشعراء، ومن الذي قبله يكون إمداد الخطباء.

فإن لم تقف مع هذا رُفع لك عن مراتب القطبية، وكل ما شاهدته قبل فهو من عالم اللسان، وهذا الموضع هو القطب. فإذا تجلى لك هذا العالم، علمت الانعكاسات، ودوام الدائمات، وخلود الخوالك، وترتيب الموجودات، وسريان الوجود فيها، وأُعطيت الحكم الإلهية القدرة على حفظها، والأمانة على تبليغها إلى أهلها، وأُعطيت الرموز والإجمال، والقوة على الوهب، والستر، والكشف.

فإن لم تقف مع هذا رُفع لك عن عالم الحمية، والغضب، والتعصب، ومنشأ الخلاف الظاهر في العالم، واختلاف الصور وغير ذلك. فإن لم تقف مع هذا رُفع لك عن عالم الغيرة، وكشف الحق على أتم وجوهه، والآراء السليمة، والمذاهب المستقيمة، والشرائع المنزلة، وترى عالماً قد زينهم الله من المعارف القدسية بأحسن زينة، وما من مقام يكشف لك عنه إلا وهو يقابلك بالتعويز والتوقير والتعظيم، ويعرب لك عن مقامه ومرتبته من الحضرة الإلهية، ويعشقك بذاته..

فإن لم تقف معه رفع لك عن عالم الوقار، والسكينة، والثبات، وعامضات الأسرار، وما أشكل هذا الفن.

فإن لم تقف معه رفع لك عن الحيرة، والقصور، والعجز، وغرائز الأعمال، وهو عليٌّ.

فإن لم تقف معه رفع لك عن الجنان، ومراتب درجاته، وتداخل بعضه في بعض، وتفاضل نعيمه، وأنت واقف على طريق صدقه، ثم أشرف بك على شفير جهنم ومراتب دركاتها، وتداخل بعضها في بعض، وتفاضل عذابها. ورفع لك عن الأعمال الموصلة إلى كل واحدة من الدارين.

فإن لم تقف معه رُفع لك عن أرواح مستهلكة في مشهد من مشاهدهم فيها حيارى سكارى، قد غلبهم سلطان الوجد، فدعاك حالهم.

فإن لم تقف لدعوتهم رُفع لك نور لا ترى فيه غيرك، فيأخذك فيه وجد عظيم، وهيمان شديد، وتجد فيه من اللذة بالله، ما لم تكن تعرفها قبل ذلك، ويصغر في عينيك كل ما رأيته، وأنت تتمايل تَمَايُلَ السراج.

فإن لم تقف معه رُفع لك عن صور بني آدم، وستُور تُرْفَعُ، وسُدول تُسدل، ولهم تسبيح مخصوص، تعرفه إذا سمعته، فلا تدهش فسترى صورتك بينهم، ومنها تعرف وقتك الذي أنت فيه.

فإن لم تقف معه رُفع لك عن سرائر الروحانية، وكل شيء عانيته، فإذا نظرت الى كل شيء فسترى جميع ما اطلعت عليه، وزائد على ذلك، ولا يبقى علم ولا عين إلا وتشاهده فيه، فاطلب عينَك في كل عالم، فإذا وقفت عليكَ فيه عرفت أين غايتك ومنزلتك ومنتهى رتبتك، وأي اسم صورتك، وأين حظك من المعرفة والولاية، وصورة خصوصيتك، فإن لم تقف معه رُفع لك عن أستاذ كل فعل ومعلمه، فعاينت أثره، وعرفت خبره، وشاهدت انتكاسه، وتلقيه، وتفصيل مجمله، من ملك النور الفوقي.

فإن لم تقف معه رُفع لك عن المحرك، فإن لم تقف معه مُحِيتَ، ثم غُيِّبْتَ ثم أفنيت، ثم شخصت، ثم محيت. حتى إذا نهت فيك آثار المعاصي وأحزانه أثبتت، ثم أحضرت، ثم أبقيت، ثم جمعت، ثم غيبت، فخلعت عليك الخلع التي تقتضيها، فإنه تتنوع، ثم ترد على مدرجتك، فتعاين كل ما عاينته أولاً مختلف الهوى، ثم تُرَدُّ إلى عالم

حسك المقيد الأرضي، أو تُمسك حيث غُيِّبت.. وغاية كل سالك مناسبة لطريقه الذي عليه سلك:

فمنهم من يناجي بلغته.

ومنهم من يناجي بلغة غير لغته. فكل من نُوجي بلغة أي لغة كانت فإنه وارث لنبي ذلك اللسان. وهو الذي تسمعه، على ألسنة هذه الطريقة، أن فلاناً موسَوِيٌّ، وفلاناً عيسوي، وإبراهيمي، وإدريسي.

ومنهم من يناجي بلغتين، وثلاث، وأربع، فصاعداً.

والكامل من يناجي بجميع اللغات، وهو المحمدي خاصة. فما دام في غايته فهو الواقف، ما لم يرجع، فإن منهم المستهلك في ذلك المقام كأبي عقال وغيره، وفيه يُقبض ويُحشر.

ومنهم المردود، وهو أكمل من الواقف المستهلك، بشرط أن يتماثلا في المقام، وإن كان المستهلك في مقام أعلى من مقام المردود فلا تَقُل إن المردود أعلى، ولكن شرطنا التماثل، أن يعين المردود النازل عن مقام المستهلك، ويزيد عليه في التداني، ويفصل عليه في الترقي فيفضل عليه في الترقي.

وأما المردودون: فهم رجلان:

منهم من يرد في حق الطريق الذي سلك عليه.

ومنهم من يرد إلى الخلق بلسان الإرشاد والهداية، وهو العالم الوارث. وليس كل داع ووارث على مقام واحد، ولكن يجمعهم مقام الدعوة، ويفضل بعضهم على بعض في مرتبته، كما قال تعالى: ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [البَقَرَة: 253]. فمنهم الداعي بلغة موسى، وعيسى، وإسحاق، وإسماعيل، وآدم، وإدريس، وإبراهيم، ويوسف، وهارون، وغيرهم. وهؤلاء هم الصوفية، وهم أصحاب الأحوال، بالإضافة إلى السادة منا.

ومنهم الداعي بلغة محمد ﷺ، وهم الملامتية، أهل التمكين والتحقيق، وإذا دعوا الخلق إلى الله تعالى فمنهم من يدعوه من باب الفناء في حقيقة العبودية، وهو قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾ [مَريَم: 9] أو من باب ملاحظة العبودية، وهو الذلة والافتقار، وما يقتضيه مقام العبودية.

ومنهم من يدعوهم من باب ملاحظة الأخلاق الرحمانية.

ومنهم من يدعوهم من باب ملاحظة الأخلاق القهرية.

ومنهم من يدعوهم من باب الأخلاق الإلهية. وهو أرفع باب وأجله.

واعلم أن الحرص، والبخل، والجبن، والحسد، والكبر، ما زال من الإنسان أصلاً، وجرى عليه لسان الحمد والذم لها على حساب تصريفها. فمن قال للإنسان لا تجبن ولا تبخل، فقد قال له: زل عن نشأتك وانعدم وانتشيء نشأة أخرى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ ﴾ [المعارج: 19-21] فلا ينفك عما جُبِل عليه، لكن قد عين الحق تعالى المواطن التي نقوم فيها بهذه الصفات، ولنشأة الدُّنَى اختصاص بخلاف النشأة الأخرى، حتى لا يقع اشتراك بين النشأتين من جميع الوجوه.

وللنشأة الأخرى اختصاص، فكيف لا يكون ذلك، ونشأة الدنى نشأة امتزاج وأمشاج، ونشأة الأخرى، نشأة خلاص من هذا المزاج، فيتخلص الشقي لشقاوته، فلا يكون فيه شيء من الخير، ويتخلص السعيد لسعادته فلا يكون فيه شيء من البشر؛ لأن ذات الآخرة تعطي ذلك، فلا جبن، ولا بخل، ولا حسد في نشأة السعداء أصلاً.

ولو كانت هي هذه النشأة لم تفارقها لوازمها، ولا وجود، ولا أمن، في نشأة الأشقاء أصلاً، ولو كانت عن هذه النشأة لم تفارقها لوازمها بالتعاقب وغير التعاقب، واعتل بتعاقب ظهور هذه الصفات، فالحكم على ظاهر الغالب لا في عينها، فإنها لازمة للنفس من حكم هذا التركيب المخصوص.

والتركيب في الأخرى خاصة، يشبه هذا التركيب في الصورة، لا في جميع الوجوه، فتكون للنفس لوازم أخرى غير هذه اللوازم في هذا العين، فبهذا ينبغي لك أن تدرك النشأة الأخرى، فعبر الشَّارع عن هذه المكافآت بالصورة، فنحن نقول بالصورة والمثل، لا بالنظير أدباً شرعياً، إذ الأدباء جلساء الحق، ومن لا أدب له، لا شهود له، ومن لا شهود له، فهو يسبح في بحر الأفكار العقلية بالوسائط الخيالية، وهي الحائر الذي لا يهتدي أبداً، فهو يطلب مالا يعطى حقيقته أن يطلب.

فإذا قال وجدت، وقد حصلت ما كنت طلبت، فقد سقط وخسر ما في يديه من حيث لا يشعر، فنعوذ بالله من غمرة الجاهلين.

فالسعيد من أهمل الفكر والطلب، الذي لا يثبت له قدم، ولا يستقر به منزل،

ويتنفس الصعداء، ويقول: تقضي العمر وما أنتج لي طلبي إلا الحيرة والقصور، فذلك أسعد أهل الفكر؛ ولذلك ورد الخبر: «**علماء هذه الأمة كأنبياء بني إسرائيل**»[1].. وقال تعالى فينا: ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [البَقَرَة: 143].

وقال في حق الرسل عليهم السلام: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [النّحل: 89] فنحن والأنبياء شهداء على أتباعهم.

فاصرف الهمة في الخلوة للوراثة الكلية المحمدية، واعلم أن الحكيم الكامل المحقق المتمكن هو الذي يعامل كل حال ووقته بما يليق ولا يخلط.

وهذه حالة محمد (ﷺ)، فإنه كان قربه كقاب قوسين أو أدنى. ولما أصبح وذكر للحاضرين، لم يصدقه المشركون؛ لكون الأثر ما ظهر عليه، بخلاف غيره مما ظهر عليه الأثر، فكان يتبرقع، ولكن لا بد لكل سالك من تأثير الأحوال فيه، وخلطة العوالم بعضها ببعض.

ولكن ينبغي له الترقي في هذا المقام، أي مقام الحكمة الإلهية الجارية على القانون المعتاد في الظاهر، ويصرف خرق العوائد إلى سره، حتى ترجع له خرق العوائد عادة لاستصحابه. ولا يزال يقول في كل نفَس: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [طه: 114]. ما دام الملك يجري بنفسه، وليجتهد أن يكون وقته نفسه، وإذا ورد عليه وارد الوقت يغلبه، وليحذر من التعشق به، ويحفظه، فإنه يحتاج إليه إذا رَبَا. فأكثر الشيوخ إنما أتى عليهم في التربية لما فرطوا في حفظ ما ذكرناه، وزهدوا فيه زهداً كلياً. ويطول الوقت ويقصر بحسب حضورها فيه.

فمنهم من وقته ساعة، ويوم، وجمعة، وشهر، وسنة واحدة، ومرة واحدة في عمره.

ومن الناس من لا وقت له، وغلو الشخص يدل على طول وقته، والذي لا وقت له إنما حرم الحكم لتهينه عليه. فإن باب الملكوت والمقار فيه من المحال أن يفتح في القلب شهوده للملك والملكوت.

وأما باب العلم بالله من حيث المشاهدة فلا يُفتح وفي القلب لمحة العالم بأسره،

(1) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (1744) [83/2].

أعني الملك والملكوت، الله أكبر من أن يكون لغيره عنده قيمة أو خطر.

واعلم أن هذه الأمور الوضيعة إذا سلك عليها الإنسان، أعني قام بها ولم تكن له همة بأمور وراءها إلا الجنة، فذلك هو العابد، صاحب المحاء والمحراب، كما أن الهمة، لو تعلقت بما وراء العبادات، من غير الاعتداد بها، لم ينكشف له شيء، ولا تقف بهمته، بل صاحبها أشبه بمريض، سقطت قواه بالكلية، وعنده الإرادة والهمة للحركة، والآلة متعطلة، فهل يصل بهمته إلى مطلوبه، فلا بد من الاستعداد على الكمال بالهمة وغيرها.

فإذا وصل إلى عين الحقيقة، امتحقت همته، وليس بحصول البغية، فيقول الجاهل لا ينبغي، وإنما ذلك الدهش الذي يقع به عند رفع الحجاب. فإن العلم الذي يحصل له عند المشاهدة تلقى عند التوجه إلى ما هو فوق، ما ظهر في حقه، لا فيما ظهر. فإن الظاهر وإن كان واحداً لِعَيْنٍ، فإن الوجوه منه غير متناهية، وهي آثاره فينا.

فلا يزال العالم متعطشاً أبداً. والذاهب يتعلق به دائماً أبداً.. فلمثل هذا فليعمل العاملون، وفي مثل هذا فليتنافس المتنافسون.

والحمد لله رب العالمين.

(تم الكتاب بحمد الله وحسن عونه وتوفيقه).



بيان الفرق

بين الصدر والقلب والفؤاد واللب

تأليف

الحكيم الترمذي

أبي عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن بشر

المتوفى ٣٢٠ هـ

ضبطه وصححه وعلق عليه

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي



بسم الله الرحمن الرحيم

رب يسر وأعن

قال أبو عبد الله محمد بن علي التِّرْمذي: أما بعد، فإن بعض أهل العلم والفقه سألني عن بيان الفَرْق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب، وما وراءها من الشغاف ومواضع العلوم؛ وأُحبّ أن أشرح له بتوفيق الله تعالى إذ هو مُيسِّر كل عسير وبه أستعين.

الفصلُ الأوّل

اعلم، زادك الله فقهاً في الدين، أن اسم القلب اسم جامع يقتضي مقامات الباطن كلها، وفي الباطن مواضع منها ما هي من خارج القلب ومنها ما هي من داخل القلب؛ فأشبه اسم القلب اسم العين، إذ العين اسم يجمع ما بين الشفيرتين من البياض والسواد والحدقة والنور الذي في الحدقة. وكل واحد من هذه الأشياء له حكم على حدة ومعنى غير معنى صاحبه، إلا أن بعضها معاونة لبعض، ومنافع بعضها متصلة ببعض، وكل ما هو خارج فهو أساس الذي يليه من الداخل، وقوام النور بقوامهن، وكذلك اسم الدار اسم جامع لما يحفظ بحيطانها من الباب والدهليز وصحنها في بيوتها وما فيها من المخدع والخزانة، وكل مكان وموضع فيها له حكم غير حكم صاحبه. وكذلك اسم الحرم اسم جامع للحرام من حوالي مكة والبلد والمسجد والبيت العتيق، وفي كل موضع مناسك غير ما يكون في الموضع الآخر. وكذلك اسم القنديل اسم جامع للزجاجة، وفي القنديل موضع الماء غير موضع الفتيلة، وموضع الفتيلة غير موضع الماء، وهو داخل موضع الماء، والفتيلة هي التي يكون فيها النور، وفي موضع الفتيلة دهن ليس فيه ماء، وصلاحه بصلاح هذه الأشياء كلها، إذا نقص منها واحد فسد ما سواه. وكذلك اسم اللوز اسم جامع للقشر الخارج الذي فوق القشر الصلب، والقشر الثاني الذي هو مثل العظم والمخ، واللب الذي فيه، والدهن الذي في داخل اللب.

فاعلم، زادك الله فقهاً في الدين، أن لهذا الدين أعلاماً ومنازل، ولأهله فيه مراتب، وأهل العلم فيه على درجات. قال الله تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾ [الزّخرُف: 32]، وقال: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يُوسُف: 76].

وكل علم هو أرفع فموضعه في القلب هو أكنّ وأخصّ وأحرز وأخفى وأستر، ولكن ذكر اسم القلب ينوب عن ذكر سائر المقامات عند عامة الناس.

ولكن الصدر في القلب هو في المقام من القلب بمنزلة بياض العين في العين، ومثل صحن الدار في الدار، ومثل الذي يحوط بمكة، ومثل موضع الماء في القنديل، ومثل القشر الأعلى من اللوز الذي يخرج اللوز منه إذا يبس في الشجر. فهذا الصدر موضع دخول الوسواس والآفات، كما يعيب بياض العين آفة البثور وهيجان العرق وسائر علل الرمد، وكما يوضع في صحن الدار من الحطب والقماشات، ويدخل فيها كل أحد من الأجانب أحياناً، وكما يدخل السباع والبهائم في ساحة الحرم، وكما يقع فوق الماء في القنديل الفراش وغيره، وإن كان فوق الماء دهن فأسفل موضعه الماء، وكما تدل القملة والبعوض والذباب في قشر اللوز الذي هو أعلى إذا انشقّ حتى صارت الهوامّ الصغار يدخلن فيه.

والذي يدخل في الصدر قلما يشعر به في حينه، وهو موضع دخول الغل والشهوات والمنى والحاجات، وإنه يضيق أحياناً وينشرح أحياناً، وهو موضع ولاية النفس الأمّارة بالسوء ولها فيه مدخل وتتكلف أشياء وتتكبر وتُظهر القدرة من نفسها. وهو موضع نور الإسلام، وهو موضع حفظ العلم المسموع الذي يُتعلم من علم الأحكام والأخبار وكل ما يعبّر عنه بلسان العبارة، ويكون أول سبب الوصول إليه التعلم والسمع. وإنما سمّي صدراً لأنه صدر القلب، وأول مقامه كصدر النهار الذي هو أوله، أو كصحن الدار الذي هو أول موضع منها. ويصدر منه وساوس الحوائج، وفِكَر الأشغال تصدر منه إلى القلب أيضاً إذا استقرت وطالت المدة.

وأما القلب فهو المقام الثاني فيه، وهو داخل الصدر، وهو كسواد العين الذي هو داخل العين، وهو البياض، وكبلد مكة الذي هو داخل الحرم، وكموضع الفتيلة من القنديل، وكالبيت داخل الدار، وكاللوز داخل القشر الأعلى. وهو معدن نور الإيمان ونور الخشوع والتقوى والمحبة والرضا واليقين والخوف والرجاء والصبر والقناعة. وهو معدن أصول العلم لأنه مثل عين الماء والصدر مثل الحوض، يخرج من العين إليه الماء، كالصدر يخرج من القلب إليه العلم، أو يدخل من طريق السمع إليه. والقلب يهيج منه اليقين والعلم والنية، حتى يخرج إلى الصدر. فالقلب هو الأصل والصدر هو الفرع،

وإنما يتأكد بالأصل الفرع، كما قال رسول الله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات**»[1]، ففسر رسول الله ﷺ أن العمل الذي تعمله النفس إنما يرتفع مقداره بنية القلب، وتضاعف الحسنة على قدر النية. والعمل للنفس، ومنتهى ولايتها إلى الصدر بنية القلب وولايته.

وليس القلب في يد النفس رحمه من الله تعالى، لأن القلب هو الملك والنفس هي المملكة، كما قال رسول الله ﷺ «**واليد جناح والرجلان بريد والعينان مصلحة، والأذنان قمع، والكبد رحمة، والطحال ضحكة والكليتان مكر، والرئة نفس، فإذا صلح الملك صلحت جنوده، وإذا فسد الملك فسد جنوده**»[2]، فبين رسول الله ﷺ أن القلب ملك، فالصدر للقلب كالميدان للفارس. وبيّن عليه السلام أن صلاح الجوارح بصلاح القلب وفسادها بفساد القلب، فالقلب بمنزلة السراج وصلاح السراج بالنور، وذلك النور نور التقى واليقين، لأنه إذا خلا عن هذا النور كان القلب بمنزلة مسرجة طفيء نور سراجها وكل عمل جاء من النفس من غير قلب فإنه ليس بمعتبر في حكم الآخرة، وليس بمؤاخذ صاحبه إن كان معصية ولا مثاب إن كان طاعة. كما قال الله تعالى: ﴿ يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ [البَقَرَة: 225].

ومَثَل **الفؤاد في القلب**، وهو المقام الثالث، وكمَثَل الحدقة في سواد العين، وكمثل المسجد الحرام في داخل مكة، وكمثل المخدع والخزانة في البيت، وكمثل الفتيلة في موضعها وسط القنديل وكمثل اللب في داخل اللوز. وهذا الفؤاد موضع المعرفة وموضع الخواطر وموضع الرؤية، وكلما يستفيد الرجل يستفيد فؤاده أولاً، ثم القلب. والفؤاد في وسط القلب كما أن القلب في وسط الصدر، مثل اللؤلؤة في الصدف.

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب بدء الوحي، حديث رقم (1) [3/1] وأبو داود في السنن، باب فيما عني به الطلاق والنيات، حديث رقم (2201) [262/2] ورواه غيرهما.

(2) ورد بلفظ: «عن كعب قال أتيت عائشة فقلت هل سمعت رسول الله ﷺ ينعت الإنسان وانظري هل يوافق يعني نعت رسول الله ﷺ قالت انعت فقال عيناه وأذناه قمع ولسانه ترجمان ويداه جناحان ورجلاه بريد وكبده ورئته نفس وطحاله ضحك وكليتيه مكر والقلب ملك فإذا طاب طاب جنوده وإذا فسد فسد جنوده». رواه الطبراني في مسند الشاميين، حديث رقم (738؛) [419/1] وأبو نعيم في حلية الأولياء، ترجمة كعب الأحبار [47/6].

ومَثَل اللب في الفؤاد كمثل نور البصر في العين، وكمثل نور السراج في فتيلة القنديل، وكمثل الدهن المكنون في داخل لب اللوز. وكل واحد من هذه الأشياء الخارجة وقاية وستر للذي يليه من الدخل، وكل واحد منهن يشاكل الباقيات الأُخر، فهي أشكال متعاونات قريبة المعاني بعضها من بعض، موافقات غير مخالفات، لأنها أنوار الدين والدين واحد وإن كان مراتب أهله تختلف وتتنوع. وهذا اللب موضع نور التوحيد ونور التفريد، وهو النور الأتمّ والسلطان الأعظم.

وبعد هذا مقامات لطيفة وأمكنة شريفة ولطائف ظريفة، والأصل لهن جميعهن نور التوحيد، فالتوحيد سِرٌ والمعرفة بِرٌ، والإيمان محافظة السر ومشاهدة البر، والإسلام الشكر على البر وتسليم القلب للسر، لأن التوحيد سر بهداية الله تعالى للعبد ودلالته إياه عليه، ولم يكن العبد يدركه بعقله لولا تأييد الله تعالى وهدايته له. والمعرفة بِرٌ من الله تعالى له إذ فتح الله له باب الآلاء والنعماء مبتدئاً من غير استحقاق من العبد لذلك. ومَنَّ عليه بالهدى حتى آمن بأن هذا كله من الله تعالى، منَّة عليه نعمةً ومنةً، لا يقدر على شكره إلا بتوفيق الله، وذلك أيضاً نعمة جديدة منه عليه، فهو يشاهد بر الله ويحافظ سره، إذ هو الموفق، لأنه لا يدرك كيفية ربوبيته، فعلم أنه واحد، ويجتنب التشبيه والتعطيل والتكييف والتجنيف، فهذا هو الإيمان الذي هو يشاهد البر ويحافظ السر. وإن الإسلام هو استعمال النفس في بر الله بطاعته بالشكر والاستقامة وتسليم الربوبية إليه والإعراض عن إدراك السر والإقبال إلى العبودية والدوام على ما يقر به إليه، لأن الإسلام إنما يقام بالنفس والنفس هي عمياء عن إدراك الحق ومشاهدته، ولم يكلف النفس إدراك الحقائق، ألا ترى أن العبد أُمر بالإيمان بالقلب، ولم يكلف بإدراك ما آمن من جهة الكيفية، إنما عليه الاتباع والفرار من الابتداع، ويكفي من النفس التسليم فحسب.

والمقامات المسكوت عنها التي وراء هذه المقامات المذكور بعضها إنما يبصرها عبد موفق بفهم هذه المقامات الموصوفة بهذه الأمثال المعروفة، يعينه الله تعالى ويؤيده ليفهمها، وتكون هذه المقامات التي وراء هذه المذكورات كزيادة صفو الماء إذ لبث في الآنية، فبهذه الأمثال يدرك طريق السر المسكوت عنه.

الفصل الثّاني

وإن المؤمن قد ابتلي بالنفس وأمانيها، وأعطيت النفس ولاية التكلف بالدخول في الصدر. والنفس معدنها في الجوف وموضع القرب وهيجانها من الدم وقوة النجاسة، فيمتلىء الجوف من ظلمة دخانها وحرارة نارها، ثم تدخل في الصدر بوسوستها وأباطيل أمانيها ابتلاء من الله إياه حتى يستعين العبد بصدق افتقاره ودوام تضرعه لمولاه، فيجيبه الله تعالى ويصرف عنه شرها. وكذلك الشيطان، يدخل بوسوسته في صدر العبد، وهو آخر ولاية حد النفس، لأن النفس الأمّارة بالسوء شكل الشيطان، وهما شيطانان، قال الله تعالى: ﴿ شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ ﴾ [الأنعَام: 112]. وإن الله جل وعلا رحم عبده المؤمن حيث لم يجعل قلبه في يد نفسه، وإنما هو برحمته يتولاه، ويبتليه بدخول الشيطان ووسوسته في صدره ليعلمه قليلاً من حقارة قدره ويريه تمام فقره وتصديق ذلك قوله عز وجل: ﴿ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ ﴾ [آل عِمرَان: 154] يعني، والله أعلم، بوساوس الشيطان والنفس، ﴿ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ ﴾ [آل عِمرَان: 154] وهو طهارة القلب بنور الإيمان، وقال جل وعز: ﴿ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝ ﴾ [النَّاس: 5].

اعلم أن انشراح الصدر والضيق إنما يضاف إليه ولا يضاف إلى القلب. قال الله تعالى: ﴿ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ ﴾ [الأعرَاف: 2]، وقال: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ ﴾ [هُود: 12]، وقال: ﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ ﴾ ، وأخبر عن كليمه موسى عليه السلام أنه قال: ﴿ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝ وَيَضِيقُ صَدۡرِي ﴾ ، فأضاف الله الضيق إلى الصدر. وضيق صدر النبي عليه السلام وصدر الكليم لا يكون من جهة الوسواس الذي يكون لعامة المسلمين، لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عصمهم ربهم من وسواس الشيطان ومنازعات النفوس، ولكن كانت تضيق صدورهم إذا سمعوا الكفار يذكرون لله شريكاً أو يكذبونهم إذا ذكروا وحدانية الله تعالى. ولا غاية لضيق الصدر إذا ضاق، وصدر كل واحد يضيق على قدر جهله وغضبه، وكذلك لا غاية لسعته إذا انشرح بهدي الله تعالى، فإذا ضاق عن الحق اتسع للباطل، وإذا ضاق عن الباطل اتسع للحق. ألا ترى إلى ما ذكر الله تعالى على

نبيه ﷺ: [الشَّرح: 1]﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝ ﴾ ، فمنّ الله بشرح صدره بأنوار حق الإسلام حتى ضاق صدره عن وسع الباطل. وصدر المؤمن يضيق أحياناً من كثرة الوسواس والغم والشغل وتتابع الحوائج وبلوغ الحوادث وإصابة المصائب، ويضيق أيضاً إذا سمع باطلاً فلا يحمل قلبه ذلك، لأن الله تعالى وسع صدره بنور الإسلام ﴿ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ [الزُّمَر: 22].

وأما صدر الكافر والمنافق فإنه امتلأ من ظلمات الكفر والشرك والشك، واتسع لها، فلم يبق فيه مكان لنور الإسلام، وضاق عن وسع نور الحق فيه. قال الله عز وجل ﴿ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [النّحل: 106]، وقال ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ [الأنعَام: 125]، فبيّن الله تعالى أن الصدر إذا امتلأ من ظلمات الكفر ضاق عن وسع أضدادها من الأنوار.

وصدر المؤمن مكان نور الإسلام فيه. والإسلام اسم جامع لدين الله تعالى، ويضيفه للعبد أيضاً لقوله عليه السلام: «الإسلام إقرار باللسان وعمل بالأركان مع تصديقه بالإيمان ومشاهدته بعض صنائع الرحمن»[(1)]، كما أن العين والحرم والدار والقنديل واللوز أسماء جامعة. والإسلام اسم عامّ يشتمل على الإيمان والقول باللسان والعمل بالأركان. ولكن الإسلام له ظاهر وباطن، فظاهره ربما حمله المنافق وشرك أهل الإسلام فيه ظاهراً وهو في الباطن كافر، قال الله تعالى: ﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا ﴾ [الحُجرَات: 14]، فبيّن الله تعالى أنهم لم يؤمنوا بعد إلا أنهم أسلموا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم. وأما باطن الإسلام فهو الانقياد لرب الأنام وتسليم النفس والقلب لما يجري عليه من الأحكام، قال الله تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [البَقَرَة: 112]، فهذا هو المسلم حقاً الذي يشاكل نور إسلامه نور الإيمان ونور الإحسان، فتعاونت وتواصلت وتشاكلت. قال

---

(1) رواه ابن حبان في صحيحه، ذكر البيان بأن الجنة إنما تجب لمن..، حديث رقم (210) [1/440] والبيهقي في شعب الإيمان، باب الدليل على أن الطاعات كلها إيمان..، حديث رقم (17) [48/1].

الله تعالى في قصة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ ﴾ [المائدة: 44]، وفي قصة إبراهيم: ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الصافات: 103]. فهؤلاء خاصة الله طالبهم الله بالاستقامة على حقيقة الإسلام، وهو أنهم تبرءوا من حولهم وقوتهم، فأسلموا ظاهرهم وباطنهم لله. والدليل على أن الإسلام والإيمان، وأن كانا مختلفي الاسمين فهما شكلان في المعنى، قول الله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [يونس: 84]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [القصص: 53]، وقوله تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الذاريات: 35] الآية. والإيمان على تعارف العامة وعلى وجه الشريعة هو التصديق بالحق وقبوله بالقلب والإقرار باللسان أنه حق، والإسلام هو الانقياد للحق بالنفس والقلب والإقبال إليه والاستقامة عليه والاجتناب عما يخالفه.

والصدر أيضاً موضع الغل والجناية، لأن النفس ذات غل وجناية ولها ولاية في الصدر بالدخول، وهو من جهة الابتلاء، وقد ذكر فيما تقدم. قال الله تعالى في صفة أهل الجنة: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ [الأعراف: 43] حتى يدخلوا الجنة بلا غل. وقلب المؤمن محفوظ من الغل لأنه موضع الإيمان، إلا أن الله تعالى أمر عباده أن يدعوه ويسألوه أن لا يجعل في قلوبهم غلاً. قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [الحشر: 10]. وأحبَّ أن يدعوه ويخافوه ليطهّر قلوبهم، ولم يضمن لهم حفظ صدورهم من الوسواس ليعرفوا منة الله عليهم. ويحفظ قلوبهم ليستغيثوا إليه من وساوس الصدور ليزدادوا عزاً وشرفاً بالله إذا طهّر قلوبهم ومحصها، ويزدادوا ذلاً في أنفسهم. قال الله تعالى: ﴿ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ ﴾ [التوبة: 14 - 15]، فبيّن الله أن الشفاء يكون للصدور التي هي موضع الغل، وقال أيضاً: ﴿ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [يونس: 57] فقلب المؤمن سليم وصدره سليم، وقلب الكافر والمنافق ميت وسقيم، وصدره فيه ظلم عظيم، قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [المدثر: 31]، وقال: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ

لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13]، وقال: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ [غافر: 56].

واعلم أن كل علم لا يوصل إليه إلا بالتعلم والتحفظ والاجتهاد والتكلف من جهة السمع والخبر قرآناً كان أو حديثاً أو غيره، فإن موضعه الصدر ويجوز عليه حكم النسيان، قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العَنكبوت: 49]. وهو العلم الذي تتهيأ عبارته وقراءته وروايته وبيانه، ويمكن في صاحبه النسيان، لأن النفس هي التي تحمله وتحفظه، وهي مطبوعة على النسيان، فربما ينساه بعد التحفظ وبعد جهد كثير. والصدر في هذا المعنى كظهر القلب، يقال فلان يقرأ عن ظهر قلبه. ومع هذا الجهد ربما غلط وسها وشك في محفوظه. والصدر أيضاً من القلب كالصدفة من اللؤلؤة، ربما دخل في الصدفة شيء غير اللؤلؤة مثال الماء وما يشبهه، ثم يخرج منها، وليس في اللؤلؤة موضع غير تدخل فيها شيء اللهم إلا أن يرفع فحينئذٍ يصير موضعه خالياً يسع في مكانها شيء آخر.

الفَصْلُ الثَّالِثُ

والعمى والبصر يضاف إلى القلب ولا يضاف إلى الصدر، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحَج: 46]، هذا هو الطريق الظاهر. وأما من جهة مجاز اللغة وتعارف الناس ربما يعبر بلفظة الصدر عن القلب، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: 29]، وقال: ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عِمرَان: 118]، وقال: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝﴾ [القَصَص: 69]. وعنى بذلك القلب، ولكن عنى بها كلها قلوب الكفار، لأن صدورهم وقلوبهم صادّة موصدة لخلوها عن نور الهدى.

وهذا النوع من العلم لا يستقر في الصدر ولا يتمكن فيه إلا بعد التكرار وجهد الاعتبار والمواظبة عليه، لأنه مثل الطريق وخاصة لما دخل فيه من الخارج مثل المسموع. فأما ما خرج إليه من داخل القلب من لطائف الحكمة وشواهد المنة فاستقراره في الصدر متمكن، وإنما لا يثبت في الصدر هذه الأحوال لأنه موضع ورود الأشغال والحوائج لأنه كالفناء للبيت الذي في الدار، وقد يدخل في الدار من الخدم والحشم والجيران والأجانب وغيرهم في أوقات ولا يدخل في البيت الذي يدخل فيه صاحبه إلا ذو رحم أو محرم أو قريب أو صديق. وقد يُعبّر من جهة مجاز اللغة أيضاً

بالنفس عن القلب، قال الله تعالى في قصة عيسى عليه السلام: ﴿ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى ﴾ [المَائدة: 116] يعني تعلم ما في قلبي، وقال: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ﴾ [البَقَرَة: 235] يريد به القلب، وقال رسول الله ﷺ: **«إن الله عز وجل تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها»**، فبان لك أن المراد من الحديث وساوس الصدور التي لا تستقر. فأما ما استقر في القلب فإنه يُسأَل عنه ويُحاسب، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسرَاء: 36].

وكل علم تحمله النفس ويعيه الصدر فإن النفس تزداد به تكبراً وترفعاً، وتأبى قبول الحق، وكلما ازدادت علماً ازدادت حقداً على الإخوان وتمادياً على الباطل والطغيان، قال رسول الله ﷺ: **«إن لهذا العلم طغياناً كطغيان المال»**(1) واعلم أن العلم إذا قل نفعه اشترى به صاحبه الثمن القليل وأعرض عن طاعة الله. وهذا العلم إنما تعلمه لإقامة الشريعة وتأديب النفس وإصلاحها ومنعها عن الجهل ومعرفة حدود أحكام الدين وقوام ظاهر العين. وإنما تكثر منفعته وتزداد وتعظم إذا كشف الله له علم الباطن؛ علم القلب، وهو العلم النافع. ألا ترى إلى ما قال رسول الله ﷺ: **«العلم علمان: علم باللسان فذلك حجة الله على خلقه وعلم بالقلب فذلك العلم النافع»**(2). وتعوّذ رسول الله ﷺ فقال: **«اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع»**(3) وقال أيضاً ﷺ: **«نعوذ بالله من منافق عليم اللسان جهول القلب»**(4). فهذا كله دليل

---

(1) الذي ورد ما رواه الخطيب البغدادي في كتاب اقتضاء العلم العمل برقم (26) [30/1] عن أبي بكر الرازي قال يوسف بن الحسين: في الدنيا طغيانان طغيان العلم وطغيان المال، والذي ينجيك من طغيان العلم العبادة، والذي ينجيك من طغيان المال الزهد فيه».

(2) روى نحوه الدارمي في السنن، باب التوبيخ..، حديث رقم (361) [114/1] وابن أبي شيبة في المصنف، ما ذكر عن نبينا ﷺ، حديث رقم (34361) [82/7] وروى نحوه غيرهما.

(3) رواه مسلم في صحيحه، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل حديث رقم (2722) [2088/4] والنسائي في السنن الكبرى، والاستعاذة من قلب..، حديث رقم (7869) [445/4] ورواه غيرهما.

(4) ورد بلفظ: «أخوف ما أخاف عليكم جدال المنافق عليم اللسان». رواه ابن حبان في الصحيح، ذكر ما يتخوف على أمته جدال..، حديث رقم (80) [281/1] والطبراني في المعجم الكبير، حديث رقم (593) [237/18] ورواه غيرهما.

على أن المسموع الذي يحمله إنما هو حجة الله على النفس وهو يشتري به الدنيا ويستغني به عن الدين الذي هو أنفع له، ولا يعمل به حتى يكشف الله له من العلم النافع، ورُوي عنه عليه السلام أنه قال: «من عمل بما يعلم أورثه الله علم ما لم يعلم»[1].

ثم اعلم أن القلب لا غاية لغور بحاره ولا عدد لكثرة أنهاره، ومثل الحكماء في البحار كالغوّاصين، ومثلهم في الأنهار كمثل السقّائين والصيّادين، فكل يستخرج ويجد منها على قدر ما يرزقه الله منها. فمنهم من يُكشف له من جواهر معرفة عيوب الدنيا وسرعة انقلابها وكثرة غرورها وقلة ثباتها وتعجيل زوالها، ويكشف له من معرفة مكائد الشيطان وأصناف وساوسه. ومنهم من يُكشف له من طريق معرفة مراتب أهل التقوى ودرجات أهل العلم ومكارم الأخلاق وحسن معاملة الخلق عند مساويهم واحتمال الأذى والسخاوة بالدنيا والإيثار على نفسه كائناً من كان وخوف النار ومحاربة الشيطان ومجاهدة النفس ومخالفة هواها ومتابعة الرسول وأصحابه والتمسك بالسنة. ومنهم من يُكشف له من طريق التحدث بنعم الله وذكر آلائه ودفع بلائه وكثرة عطائه وجميل ستره وطول حلمه وعظيم عفوه وسعة رحمته وما أشبهها من هذا النوع. ومنهم من يكشف له من طريق مشاهدة ما سبق له من الله في أزليته وقدمه من ذكره إياه ومن حسن نظره إليه واجتبائه واختياره واصطفائه ولطائفه السابقة. ومنهم من يشكف له من طريق مشاهدة الحقائق من أفعال الربوبية، فيشاهد آثار قدرته في الأشياء كلها وجميل صنعه وما أشبه هذا الجنس. ومنهم من يكشف له من طريق مشاهدة عظمة الله وجلاله وكبريائه وعظم قدرته وحقارة قدر خلقه في جنب عظمته ورؤية فقر الخلق وضرهم وفاقتهم وحاجتهم إليه وقوته وغنائه عنهم وسعة خزائنه وكفايته وحسن عنايته في أمورهم. ومنهم من يكشف له من جهة رؤية التوفيق وحلاوة المعرفة والمحبة ورؤية عصمته إياه من الضلالة والكفر والأهواء. ومنهم من يكشف له من طريق مشاهدة فردانيته ووحدانيته فقط، حتى لا يرى في سره معه غيره، فيتلاشى قدر من دونه في سره حين يشاهد الله جل جلاله، فيرى قدمه وكماله وبقاءه، ويرى حدوث الخلق وفناءهم.

---

(1) أورده المناوي في فيض القدير، حرف السين [388/4] وأورده غيره.

وجميع هذه الوجوه ليس لبحارها غاية ولا لجواهرها نهاية وقد قال جل جلاله: ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البَقَرَة: 269]. وهذه الوجوه كلها، ما يجري منها على لسان الحكيم كمثل البحر بموج منه الزبد فيبذه البحر فينتفع به الإنسان، فكذلك الحكيم ما يجري من الحكمة على اللسان ويعبِّر للخلق على لسان البيان كزبد يهيج من بحر القلب، وزبد البحر ينتفع به من كان به رمد العين، فكذلك ينتفع من في قلبه مرض حب الدنيا ورمدت عينا قلبه بقول الحكيم، ويشفي الله تعالى صدره مما فيه من الأمراض من حب الشهوات ومثله من الآفات.

فهذا طريق باطن العلم وظاهره، ولا يستغني أحدهما عن الآخر، لأن أحد العلمين بيان الشريعة وهو حجة الله تعالى على خلقه، والآخر بيان الحقيقة التي وصفتُ بَعضها، فعمارة القلب والنفس بهما جميعاً، وصلاح ظاهر الدين وقوامه بعلم الشريعة وصلاح باطنه وقوامه بالعلم الآخر، وهو علم الحقيقة، والدليل على ذلك أن صلاح الدين بصحة التقوى، وقد قال رسول الله ﷺ: «**التقوى هاهنا**»[1] وأشار بيده إلى قلبه.

فمن اتقى بالعلم الظاهر وأنكر العلم الباطن فهو منافق، ومن اتقى بالعلم الباطن ولم يتعلم العلم الظاهر ليقيم به الشريعة وأنكرها فهو زنديق، وليس علمه في الباطن علماً في الحقيقة، إنما هو وساوس يوحي بها الشيطان إليه. قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ ﴾ [الأنعَام: 121].

وأما من كان مسلماً مؤمناً صالحاً عارفاً، آمن بكتاب الله وسنة رسوله وتمسك بالشريعة وعمل بها واقتدى برسول الله ﷺ واتبعه واتبع الأئمة من أصحابه وشاهد بقلبه مع الله تعالى على سبيل الافتقار والافتخار به ورؤية الاضطرار من نفسه وترك الاختيار وصحبة الملك الغفار. وقد وفّقني الله بمننه حتى بالغت في الشرح والبيان بين الصدر والقلب.

---

(1) رواه البيهقي في السنن الكبرى، باب ما جاء في تحريم القذف..، حديث رقم (16906) [249/8] ورواه أحمد في المسند عن أبي هريرة برقم (7713) [277/2] ورواه غيرهما.

والقلب هو معدن نور الإيمان، قال الله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ ﴾ [المجادلة: 22]، وقال: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحُجرات: 7]، وقال: ﴿ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ [النّحل: 106]. والقلب هو معدن التقوى والسكينة والوجل والإخبات واللين، والطمأنينة والخشوع والتمحيص والطهارة. قال الله تعالى: ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا ﴾ [الفتح: 26] وأشار بالإلزام إلى قلوبهم، وقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الفتح: 4]، وقال: ﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفتح: 18]، وقال في قصة الخليل عليه السلام: ﴿ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [البَقَرَة: 260]، وقال: ﴿ وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ﴾ [المَائدة: 113]، وقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [الحُجرَات: 3]، وأشار رسول الله ﷺ بالتقوى إلى قلبه، وقال عز وجل: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [المَائدة: 27]. وأصل التقوى في القلب، وهي: التقوى من الشك والشرك والكفر والنفاق والرياء. وقال في الطهارة: ﴿ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ ﴾ [الأحزَاب: 53]، وقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ﴾ [المَائدة: 41]، وقال: ﴿ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [آل عِمرَان: 154]، وقال في الوجل: ﴿ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ [المؤمنون: 60]، وقال: ﴿ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفَال: 2]، وقال في الإخبات: ﴿ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحَجّ: 54]، وقال في اللين: ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الزُّمَر: 23]، وقال في عدم الفقه: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ [الأعرَاف: 179]، وقال في الخشوع: ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الحَديد: 16]. ورأى رسول الله ﷺ رجلاً يصلي وهو يعبث بلحيته فقال: «لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه»[1]، وقال أهل التفسير إن معنى الخشوع الخوف الدائم في القلب.

---

(1) رواه ابن أبي شيبة في المصنف، حديث رقم (6787) [86/2]. وأورده أبو عبد الله الرحمن السلمي، برقم (206) [123/1].

اعلم، رحمك الله، أنه ليس من خلق الله شيء أطيب من قلب طاب بنور التوحيد والمعرفة والإيمان، ولا أطهر ولا أنظف ولا أتقى ولا أصفى ولا أوسع إذا طهّره الله من الأنجاس وتولى إحياءه بنور الحق وحفظه وحرسه وزاد فيه من الفوائد، وهو قلب المؤمن، وليس لأنواره غاية وليس شيء أخبث منه ولا أنتن، ولا أنجس إذا خذل الله صاحبه، ولم يتول حفظه، ووكله إلى الشيطان، وهو قلب المنافق والكافر، لأنه معدن الشرك والشك والنفاق والريب والمرض. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ [التوبَة: 28]، وقال في المنافقين: ﴿ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ﴾ [التوبَة: 95]، وقال: في معنى الريب: ﴿ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [التوبَة: 45]، وقال في معنى الإنكار: ﴿ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ ﴾ [النّحل: 22]، وقال في معنى المرض: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [الحَجّ: 53]. وأصل جميع الذنوب قساوة القلب، قال الحكيم: **«إن القلب إذا قسى لا يبالي إذا أساء»**.

والقلب إذا استنار بنور الله ونور الإيمان تولى الله حفظه، وملأه محبة وخشية، وأقفل عليه قفل القدرة، ووضع مفتاح المشيئة في خزانة غيبه، ولا يطلع عليه أحد إلاّ في وقت سكرة الموت، فحينئذٍ يظهر له ما في غيبه، وإن القلب إذا امتلأ من ظلمات الكفر والشك والنفاق، قيّض الله لصاحبه شيطاناً، فتولى حفظه وأقفل عليه قفل الخذلان، والله يعلم عاقبته، وما يؤول إليه أمره، لا يظهر ذلك لأحد إلى أن يغرغر، وذلك سر الله لا يطلع عليه غيره. فكم من كافر بعيد وُفّق بالإيمان فيموت سعيداً، وكم من مؤمن قريب يخذله ربه فيموت شقياً.

واعلم، رحمك الله، أن قدرة الله نافذة، وأنه لم يطلع على مراده ومشيئته في خلقه وخواتم أعماله إلاّ طائفة من الأنبياء، وذلك علامته لصحة نبوتهم. وأخبر رسول الله ﷺ عن عشرة من أصحابه أنهم من أهل الجنة كرامةً من الله وفضلاً منه عليه.

واعلم أن مدار تأكد وجوب الثواب والعقاب بالقلب، وفعله بالنفس تبعة، قال الله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ [البَقَرَة: 225] وإنما هذا في أحكام الآخرة. وأما حكم الدنيا فالنفس تؤاخذ في أفعالها، وأما فيما بين العبد وبين ربه فإن الحكم بما في القلب. قال الله تعالى في شأن عمار بن ياسر: ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ

مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النّحل: 106]، فبين الله عذره أنه لم يضره ذلك لا طمأنينة قلبه على صدق الإيمان. ويثاب العبد لعمله بالأركان إذا صحت نية قلبه على ذلك بنور الإيمان، قال رسول الله ﷺ: «**يثاب الناس على قدر نياتهم**»[1]، «**وإنما الأعمال بالنيات**»[2]، و«**لا عمل لمن لا نية له**»[3].

فالصدر موضع يصدر إليه علم العبارة، والقلب معدن العلم، والذي تحت علم العبارة، وهو علم الحكمة والإشارة. وعلم العبارة حجة الله على الخلق، يقول الله لهم: ما عملتم فيما علمتم؟ وعلم الإشارة محجة العبد إلى الله بهداية الله تعالى له، إنه منّ عليه بكشف قلبه بمشاهدة غيبه ورؤية ما وراء حجبه، كأنه يرى ذلك كله بعينه، حتى لو كشف له الغطاء لما زاد في نفسه، فالقلب موضع علم الإشارة. ومعنى علم العبارة أن يعبّر باللسان، ومعنى علم الإشارة أن يشير بقلبه إلى ربوبيته ووحدانيته وعظمته وجلاله وقدرته وجميع صفاته وحقائق صنعته وفعله.

ومعدن نور الإيمان ونور القرآن معدن واحد، وهو القلب، وكلا النورين شكلان، قال الله تعالى: ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا ﴾ [الشّورى: 52] فجمع بين النورين بالهاء كناية الواحد. ومعنى الإشارة أنه مُذ أشار إلى ربه بالربوبية لم يكفر به ولم يشكر غيره ولا يرجو أحداً سواه.

واعلم أن نور القلب على سبيل الكل لا يتجزأ ولا يتبعض لأنه أصل يجيء كله إذا جاء ويذهب كله إذا ذهب. وكذلك ظلمة الكفر، لأنها أصل كل مصيبة إلا أن تذهب، وربما يضعف ويتهيأ ويتبعض سلطانها مثل السراج إذ هو سراج واحد إن زاد ولاية نوره أو نقصت.

وأما نور الصدر وظلمته فإنه يزيد وينقص، لأن هذا فرع وهو بالنفس يقام، وعُيِّن به الإسلام. ومنه يدخل النقصان في هذا الوجه من الدين، وربما يزيد فيه، والدليل على ذلك ما قال رسول الله ﷺ في شأن النساء فقال: « **ناقصات عقل**

---

(1) لم أجده بلفظه فيما لدي من مصادر ومراجع.

(2) هذا الحديث سبق تخريجه.

(3) رواه البيهقي في السنن الكبرى، باب النية..، حديث رقم (179) [41/1].

ودين»[1] وإنما المراد منه فرع الدين في أيام الحيض والنفاس. فبان لك أن أنوار الصدور على وجوه، والعمل بها على المواقيت والمقادير. فمن أراد علماً منه ازداد في صدره نوره على مقدار ذلك، وينقص أيضاً نوره بترك استعماله، حامل هذا النوع من العلم هي النفس، فكما أنها تزيد وتنقص فكذلك أفعالها وصفاتها تزيد وتنقص.

وأما أنوار القلب فإنها في الأصل كاملة، ومَثَلُها كَمَثَل الشمس التي هي كاملة، ولكن الهواء إذا كان فيه علة مثل الغيم والضباب وشدّة الحرّ وشدة البرد حجبت هذه الأشياء نورَها، فانتقصت ولاية شعاعها، وقل سلطان حرها، فإذا ارتفعت تلك العلل نفذت ولاية نورها، وبلغت شعاعها واشتد سلطانها، ولم تكن في ذاتها ناقصة ولكن منافعها قد انقطعت للعلل التي وصفتُها. فكذلك نور الإيمان ونور المعرفة ونور التوحيد إذا أخذتها ظلمات الغفلة وغيوم النسيان وحجب العصيان وامتلأ الصدر من غبار الشهوات وضباب أضرار النفس واليأس من روح الله، وانتقصت ولاية هذه الأنوار عن النفس وبقيت بذاتها وتحت هذه الحجب ووراء هذه الأستار، فإذا ارتفعت هذه العلل من الصدر بمنة الله وتوفيقه وصحت توبة العبد إلى الله تعالى، كُشف الغطاء وخُرقت الحجب وظهرت منافعها على النفس وانتشرت ولايتها فمن تفكر بتوفيق الله في هذه النكتة واستمسك بالسنة، أزال الله تعالى كثيراً من الشبهات من قلبه، وقلع عن صدره عروق ريبه، وهداه الله تعالى إلى مشاهدة حقائق غيبه. وهذا شيء واضح لمن يسَّر الله عليه سبيل الفقه والفهم.

وأما مثل نور الأحكام وهو نور الإسلام في الصدر فإنه يزداد بصحة المعاملة وصدق المجاهدة، وينقص نوره بالإعراض عن إقامة شرائعه وترك استعماله، فَمَثَله كَمَثَل القمر، فإنه يزيد وينقص.

الإسلام اسم جامع لأصل الدين وفروعه، وقد أكمل الله هذا الدين بفروعه وأحكامه في نيف وعشرين سنة، إلاّ أنه نسخ من أحكامه بعضها فبدل بعضها.

وأما الإيمان والمعرفة والتوحيد فلا يجوز النسخ فيها ولا تبديل شيء منها.

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، في أبواب عدة منها: باب ترك الحائض الصوم، حديث رقم (298) [116/1] ورواه مسلم في صحيحه، باب بيان نقصان الإيمان..، حديث رقم (79) [86/1] ورواه غيرهما.

وكفى العاقل الموفق إذا تفكر فيها أن يعرف الفرق بين ما حملته النفس وبين ما حمله القلب. ولكن المؤمن هو من الله في مزيد من البر في كل لحظة وساعة، فتعلو مراتبه من جهة مشاهدة لطائف الله تعالى، ويكشف له من حجب الغيب من ساعة إلى ساعة ما لم يكن كشف له قبل ذلك. وكذلك العبد تضعف أحواله أحياناً، وتشغل مراتب قلبه من جهة الغفلة والأصول على حالها. ومَثَلها أيضاً كمثل السراج يكون في شيء فيُرخَى عليه الستور، فهو على حاله من الداخل، لكنْ ضياؤه ومنفعته حُجِبَت وولايتُه عن الانتشار انقطعت. ومَثَلها أيضاً كمثل المرآة تُلفّ في ثوب، فهي في الأصل كما كانت إلاّ أن منفعة الظاهر قد انقطعت، فافهم، رحمك الله، أن الكتاب المنزل كما كان جبريل عليه السلام تولى إنزاله بعلم الله تعالى، فمعدنه قلب النبي عليه الصلاة والسلام. قال الله تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البَقَرَة: 97]، وقال: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾.

الفصلُ الرَّابع

واعلم أن الفؤاد، وإن كان موضع الرؤية، فإنما يرى الفؤاد ويعلم القلب. وإذا اجتمع العلم والرؤية صار الغيب عند صاحبه عياناً، ويستيقن العبد بالعلم والمشاهدة وحقيقة رؤية الإيمان ﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ﴾ [الأنعَام: 104] والمنة لله عليه بالهداية والتوفيق بتصديقه، ﴿ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ﴾ [الأنعَام: 104] والحجة لله عليه بتكذيبه. وقال الله تعالى في علم اليقين وعين اليقين: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ﴾ [التكاثر: 5 – 7]. وأخبر الله نبيه موسى عليه السلام أن قومه اتخذوا العجل فاشتدّ غضبه، ورجع إلى قومه غضبان أسفاً لِمَا أيقن بإخبار الله تعالى عنهم، وحمل الألواح، فلما عاينهم يعبدون العجل ألقى الألواح، وأخذ برأس أخيه يجرّه إليه. فكذلك قال رسول الله ﷺ و«رحم الله أخي موسى ليس الخبر كالمعاينة»[1]. إن موسى أخبره ربه قال: ﴿ قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ

---

(1) ونصه كما رواه الحاكم: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ ليس الخبر كالمعاينة إن الله خبر موسى بما صنع قومه في العجل فلم يلق الألواح فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح (المستدرك، تفسير سورة الأعراف، (3250) [351/2] والطبراني في الأوسط باب من اسمه =

ٱلسَّامِرِيُّ ﴾ [طه: 85] فلما عاينهم ازداد غضباً وحدة.

فالقلب أيضاً تضاف إليه الرؤية، ولكن إنما يرى بالنور الذي فيه، يدل على ذلك ما أجاب أبو جعفر محمد بن علي ﷺ للأعرابي حين سأله فقال «رأيت ربك؟» فقال «ما كنت أعبد شيئاً لم أره» فقال «كيف رأيته»؟ قال: «إنه لم تره الأبصار بمشاهدة العيان ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان»، فأشار إلى الرؤية بالقلب ولكن بحقيقة نور الإيمان. والقلب والفؤاد يُعبّر عنهما بلفظة البصر لأنهما موضعان للبصر، قال الله تعالى: ﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ [النور: 44]، وقال «فاعتبروا يا أولي الأبصار» [الحشر: 2] فأهل الأبصار لهم الاعتبار، بأن يروا في الأشياء لطائف صنع الله تعالى، وإنما هم أهل القلوب.

وأهل المشاهدة بنور الإيمان على مراتب، فمنهم من يكشف له من عظائم الغفلة بمجاهدته الصحيحة ورؤية الآخرة بعيان عيني قلبه كأنه ينظر إليها، كما قال حارثة «أصبحت مؤمناً حقًا»[1] قال رسول الله ﷺ: «إن لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك؟»[1] الحديث. فهذا كشف الله له بعزف نفسه عن الدنيا والآخرة، وعاينها بنور قلبه، وإنه لم ينطق عن مقام مشاهدة الله ومشاهدة صفاته ومنّته وبره وعظمته، وما أشبهها، إنما ينطق عن مجاهدته التي أورثته مشاهدة العرش والجنة وأهلها والنار. فبان لك أن الرؤية والمشاهدة من جهة العبد يزداد سلطانها وأنوارها من الله تعالى.

وفرق آخر بين القلب والصدر أن نور الصدر له نهاية ونور القلب لا نهاية له ولا غاية ولا انقطاع وإن مات العبد، وإنما العبد إذا مات على الإيمان كان نوره معه

إبراهيم، حديث رقم (25) [12/1] وباب من اسمه محمد حديث رقم (6943) [90/7] ورواه غيرهما.

(1) رواه الطبراني في الكبير، عن الحارث بن مالك الأنصاري برقم (3367) ونصه كاملاً: عن الحارث بن مالك الأنصاري أنه مر برسول الله ﷺ فقال له كيف أصبحت يا حارث، قال أصبحت مؤمناً حقاً فقال انظر ما تقول فإن لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك فقال قد عزفت نفسي عن الدنيا وأسهرت لذلك ليلي وأطمأن نهاري وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها فقال حارث عرفت فالزم ثلاثاً.

لا يفارقه في القبر ولا في القيامة، ويبقى معه دائماً، قال الله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: 27].

وأما أحكام شرائع الإسلام وما كان بناؤه على سبيل التكليف فإنها تنتهي غايتها بالموت، وكفى به دليلاً لمن يقول بكمال الإيمان وأنه لا يزيد ولا ينقص. وهو حجة على من يقول بزيادته ونقصانه ويشبهه بسائر الأعمال، ويقول بأن الأعمال كلها إيمان، ويقول إن الإيمان باللسان، أو يقول في الحقيقة إنه فعل العبيد، أو يفرق حقيقة معنى الإيمان ومعنى الإسلام. وليس بمصيب منا من يشتغل بما لم يُكلَّف، والسكوت للجاهل سلامة والنطق للعالم من الله إكرام. ألا ترى أن سؤال العبد في القبر إنما يكون عن الأصول ولا يكون عن الفروع، يقال له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ ولا يقال: ما عملك؟ ولا: كيف صليت؟ ويُسأل يوم القيامة عن الإيمان أولاً ثم عن الأعمال على الولاء، فيثاب بالأعمال على قدر قوة الأصول وهي النيات.

إنما يُسمَّى القلب قلباً لسرعة تقلبه. قال عليه الصلاة والسلام: «إنما مَثَل القلب كمَثَل ريشة في الفلاة من الأرض»[1] الحديث. فأخبر عليه الصلاة والسلام طرفاً من قدرة الله وشيئاً من لطفه لعبده الضعيف بتثبيت قلبه على الإيمان وإرسائه على الحق بسرعة تقلبه كيلا يرتفع عن الهدى بحول الله وقوته. فالعاقل من لا يضيف فعل القلب إلى نفسه إلا على مقدار ما يليق بالعبودية، ويسكت عما لا يعنيه، فإن له من وراء ذلك اشتغالاً عن الفصول بما لا يعنيه. ومن انهدم بناء توحيده وأساس إيمانه وأرض معرفته، فمن غيره يبنيه؟

وقد وصفتُ أن الإسلام جمع العلم والعمل؛ والدليل عليه ما أجاب رسول الله ﷺ حين سأله جبريل «ما الإسلام»؟ الحديث[2]. فاتفقا على أن الإسلام علم وعمل. وأجاب سؤاله عن الإيمان فاتفقا في ذلك جميعاً أنه علم ومستقره القلوب. وأما خاصّة أهل الإيمان فإنهم يستفيدون من أحاديث رسول الله ﷺ فوائد لطيفة لا تهتدي العامة

---

(1) رواه بنحوه البزار في المسند، عن أبي موسى برقم (3037) [49/8] ورواه الروياني في المسند عن أبي موسى برقم (568) [372/1] وروى نحوه غيرهما.

(2) متفق عليه رواه البخاري برقم (50) [27/1] وبرقم (4499) [1793/4] ومسلم برقم (9) [39/1] وبرقم (10) [40/1] وروى الحديث غيرهما.

إليها، لأنهم محجوبون بنفوسهم عن لطائف الحق برؤيتهم أعمالهم. وقد أمر الله أن يخاطب الناس على قدر عقولهم، وقال: ﴿ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾ [النساء: 63]. وأما جوابه عن الإحسان فإنه قيّد بمشاهدة الله عز وجل فقط فإما أن يشاهد العبدُ بقلبه ربّه جلا جلاله، وإما أن يشاهد بقلبه أنه يراه جل جلاله، وفي هذا الخبر فوائد كثيرة دون ما عقلته العامة، إلاّ أن هذا ليس موضع بيانها.

فبيّن رسول الله ﷺ أن مقامات المؤمنين على قدر مراتبهم إذ قيد الإحسان بالرؤية. ومعدن الرؤية هو الفؤاد، قال الله عز وجل: ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ [النجم: 11] والفؤاد مشتقّ من الفائدة لأنه يرى من الله عز وجل فوائد حبه، فيستفيد الفؤاد بالرؤية وتلذذ القلب بالعلم، وإنه ما لم ير الفؤاد لم ينتفع القلب بالعلم. ألا ترى أن الأعمى لا ينفعه علمه شيئاً في وقت الشهادة إذا احتاج إلى أدائها لأنه محجوب عن الرؤية، فعلمه في الحقيقة علم لكنه لم يتأكد سلطانه يخرج القاضي شهادته بالعمى وإن كان عدلاً. وفيه إشارة لمن فقهه الله في الدين، قال الله تعالى: ﴿ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج: 78]، فكيف يشهد من علم شيئاً ولم يره. وقد ذكر الله في قصة يوسف وإخوته عليهم السلام أنهم قالوا: ﴿ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴾ [الحج: 81] ولم يكونوا رأوا الصُّوَاع[1] في رحل أخيهم، وأنه من وَضْع صاحب يوسف بأمره ولم يكن سَرِقة. وإن الله جل وعلا أكرمنا بالقرآن وهو بحره الأعظم، ملأه من جوهر اللطائف، وجعله من خزائن الظرائف، فطوبى لمن أكرمه الله ببعض ما فيه من الحكمة والبيان في السر والإعلان. وقال بعض العارفين: إنما سُمّي الفؤاد فؤاداً لأن فيه ألف واد. فإذا كان فؤاد العارف فأوديته جارية من الأنوار من إحسان الله تعالى وبره ولطفه.

واسم الفؤاد أدقّ معنى من اسم القلب، ومعناهما قريب كقرب معنى الاسمين الرحمن الرحيم. فحافظ القلب هو الرحمن لأن القلب معدن الإيمان، والمؤمن توكل بصحة إيمانه على الرحمن، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾

(1) الصُّواع والصِّواع والصَّوع والصُّوع: كله إناء يشرب فيه، مذكر، وفي التنزيل: ﴿ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ ﴾ [يوسف: 72]. هو الإناء الذي كان الملك يشرب منه.

[الملك: 29]. وحافظ الفؤاد هو الرحيم، قال الله تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف: 156]، وقال: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ [الفرقان: 32].

ووصف الله تبارك وتعالى ربطه قلب العبد، فقال في قصة أصحاب الكهف:

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا ﴾ [الكهف: 14]، وقال في قصة أم موسى:

﴿ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴾ [القصص: 10]. وقال أهل التفسير: ربط القلب بنور التوحيد، وذلك أن القلب يعلم والعالم يحتاج إلى ربط التأييد حتى يطمئن بذكر الله عز وجل. وأما الفؤاد فإنه يرى ويعاين فيقع له الفراغة ولا يحتاج إلى الربط بل يحتاج إلى معونة المدد بالهداية. قال الله تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ ﴾ [القصص: 10]، فوصف الفؤاد بالفراغة وفضّله على القلب إذ كان القلب يحتاج إلى الربط والفؤاد يرى ويعاين والقلب يعلم، و«ليس الخبر كالمعاينة.

الفصل الخامسُ

واللب هو الجبل الأعظم والمقام الأسلم، كالقطب لا يزول ولا يتحرك، وبه قوام الدين، والأنوار كلها راجعة إليه حافّة حوله، ولا تتم هذه الأنوار ولا ينفذ سلطانها إلاّ بصلاح اللب وقوامه، ولا تثبت هذه الأنوار إلا بثبوته، ولا توجد إلا بوجوده. وهو معدن نور التوحيد ونور مشاهدة التفريد، وبه يصحّ من العبد حقيقة التجريد وضياء التمجيد، وإن هذا اللب نور مقرون ووزع مغروس وعقل مطبوع، ليس كالمركُبات في النفس التي هي داخلة، إنما هو نور مبسوط كالأشياء الأصلية. وهذا اللب الذي هو العقل مغروس في أرض التوحيد، ترابها نور التفريد، سُقي من ماء اللطف من بحر التمجيد حتى امتلأ عروقه من أنوار اليقين وتولى الله غرسه وباشر ذلك بقدرته من غير واسطة فغرسه في جنة الرضى، ثم عضم هذه البحور بسور الصون، وأرساه في أزليته وأبديته وأوليته حتى لا تكاد تقترب منه بهيمة النفس بشهواتها أو بجهلها أو سباع مفاوز الضلالة أو شيء من الذوات التي هي طبائع النفس مثل كبرها وحمقها وآفاتها. والرب جل جلاله صاحب هذا البستان ووليه الذي هو أزيَن من جميع الجنان، لأنه بستان الإيمان تولى الله غرسه وسقيه وتربيته حتى أثمر الشجر نور الإيمان

بتوفيق الرحمن ولطائف ثمرات الإحسان. قال الله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات: 7].

فهذا تفسير اسم اللب: فإنه لام وباء فابتدأ بلام مثل لام اللطف والباء مشدّدة واحدة في الكتابة لكنها من الحروف المضاعفة، فهي في الحقيقة اثنان: باء البرّ في البداية وباء البقاء بالبركة عليه. وهذا النور لا يوجد لسبب من الأسباب إلاّ بفضل مفتّح الأبواب. فأصل ما رزق الله تعالى العبد من أصول الدين هو فضل الله بلا علة، ثم جعل فروعه بعلة العبودية. ومجاهدة العبد مقرونة بمعونة الربوبية وهداية الألوهية، ولا يُوفَّق بلطف التدبير وحسن التقدير، حتى يكون أول شيء فضله في الأزل، فيتيسر على العبد أعمال الخير.

واعلم أن اللب لا يكون إلاّ لأهل الإيمان، الذين هم من خاصة عباد الرحمن، الذين أقبلوا إلى طاعة المولى، وأعرضوا عن النفس الدنيا، فألبسهم لباس التقوى، وصرف عنهم أنواع البلاء، فسمّاهم الله أولى الألباب، وخصّهم بالخطاب، وعاتبهم بأنواع العتاب، ومدحهم في كثير من الكتاب، فقال الله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِى ﴾ [المائدة: 100]، وقال: ﴿ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة: 197]، وقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: 90]، وقال: ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة: 269]، وقال: ﴿ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [إبراهيم: 52]، وقال: ﴿ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص: 29]. فمدح الله تعالى أولى الألباب وبيّن مراتبهم وسرائرهم مع ربهم وفضائلهم في فقههم وفهمهم وحلمهم حتى أعجز أمثالنا عن إدراك أحوالهم لأنه خصّهم بنور اللب ما لم يفعل ذلك بغيرهم.

وأما عند عامة أهل الأدب ومن لهم معرفة بشيء من اللغة فإن اللب هو العقل. ولكن بينهما فرق كما بين نور الشمس ونور السراج فكلاهما نور. وهذا شيء ظاهر، لأنك لا تكاد ترى عاقلين يستوي سلطان علقهما ونورهما، بل يتفاضل أحدهما على الآخر بزيادة خصّ هذا العقلُ بها ما لم يبن ذلك في الآخر. فما ظنك بمن خصّه الله تعالى بمعرفته وأكرمه بلطائف برّه وأفاض عليه من بحار خيره ما لم يفض منها على غيره.

والعقل في الاسم واحد، وسلطانه ناقص وزائد وهو متبوع متفرع، يقوى بقوة أركانه ويزداد بزيادة سلطانه. وأول مقام العقل هو عقل الفطرة، وهو الذي يخرج به الصبي والرجل من صفة الجنون، فيعقل ما يقال له لأنه ينهى ويؤمر، ويميز بعقله بين الخير والشر، ويعرف به الكرامة من الهوان، والربح من الخسران، والأباعد من الجيران، والقرابة من الأجانب. ومنه عقل حجة وهو الذي به يستحق العبد من الله تعالى الخطاب، فإذا بلغ الحلم يتأكد نور العقل الذي وُصف بنور التأييد، فيؤيد عقله، فيصل الخطاب الله تعالى. ومنه عقل التجربة، وهو أنفع الثلاثة وأفضلها، لأنه يصير حكيماً بالتجارب، يعرف ما لم يكن بدليل ما قد كان. وهو ما قال رسول الله ﷺ: «لا حكيم إلا ذو تجربة ولا حليم إلا ذو عثرة»[1]. ومنه عقل موروث، وصفته أن يكون الرجل كبيراً عاقلاً حكيماً عليماً حليماً وقوراً، قد ابتلي بولد سفيه أو تلميذ سفيه لا ينتفع من صحبته، فيموت هذا العاقل فيورث اللّهُ تبارك وتعالى ببركته عقلَه ونوره وضياءه ونفعه ووقاره وسكينته وسمته لهذا السفيه، فيتغير حاله في الوقت، فيصير وقوراً عاقلاً على سبيل سلفه هذا إنما يعاينه الإنسان بوفاة الكبير العاقل، وتَغيُّر الحال في السفيه الجاهل. وليس يورث غير عقله، ولكن يدركه بركة دعائه ونور علمه، ويتفضل الله تبارك وتعالى بإتمام ذلك بمنه وكرمه.

وهذه الوجوه منافعها على المِقدار، ويصلح الإنسان بهذه الوجوه من العقل لصحبة الناس وينتفعون به. ولعل هذه الوجوه تجمع فيمن لا يؤمن بالله واليوم الآخر مثل الفلاسفة وحكماء الهند والروم وغيرهم، لأن هذه الأنواع من العقل إنما هي لتأييد النفوس ومعاملة أهل الدنيا على سبيل المراعاة. وأما النافع منها تمام النفع فهو العقل الموزون المطبوع بنور هداية الله تعالى. وهو اللب الذي وصفته حديثاً ويُسمَّى عقلاً.

والعقل يعبَّر به عن العلم على وجه المجاز في سعة اللغة، ولكن أولو الألباب هم العلماء بالله، وليس كل عاقل عالماً بالله، وأما كل عالم بالله فهو عاقل، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: 43].

(1) أورده الحكيم الترمذي في نوادر الأصول، والأصل الخامس والثمانون والمائة، في عثرة الحليم...، [295/2].

والعقل له أسماء أخر، يُسمّى حلماً، ونُهى، وحِجْراً، وحِجى، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ ﴾ [طه: 54، 128]، وقال: ﴿ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴾ [الفجر: 5]. وقال رسول الله ﷺ: «ليلني منكم أولو الأحلام والنهى ثم الذين يلونهم»(1). وقد قيل إن العقل يعقل النفس عن متابعة الهوى كما يمنع العقال الدابة من مرتعها ومرعاها. والعقل اسم غير متبدل وهو اسم عام، ولا يستعمل تصريف هذه الأسماء إلا منه، يقال عقل، يعقل عقلاً فهو عاقل وذلك معقول عنه.

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم: 24]. وهو أن يعقل عن الله أمره ونهيه ومواعظه ووعده ووعيده ويفهم مراده في الأشياء على قدر ما يوفّقه ويكشف له من تعظيم أمره واجتناب مناهيه. وهذه كلها لا توجد إلا بلطف الله وحسن نظره إليه فيفضّله على غيره باللب الموصوف والنور المعروف. وهو فقيه في أصول الدين وفروعه، وليس كل من يكون فقيهاً في الفروع فقيهاً في الأصول، لأن الفقه في علم الأحكام كثير وهو فقيه بالتفقه وهو حامل الفقه والعلم، والفقه اسم للعلم يعبّر بهذه اللفظة عنه، يقال فلان يتفقه ويتعلم. وأما الفقه في حقيقته فهو فقه القلب، كما قال رسول الله ﷺ: «ربّ حامل فقه لا فقه له ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»(2). وقال الحكيم: «ليس بفقيه من لم يعدّ البلاء نعمة والرضاء مصيبة»(3) وقال الحسن: «إنما الفقيه الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة البصير بذنبه والمواظب على طارعة ربّه»(4)، وقد بيّنت في صدر الكتاب أن فقه المتعلم موضعه في باطن الصدر، ويزداد نوره بالتعلم والاستعمال، ويتفرّع له أنوار الفقه

---

(1) رواه أبو عوانة، في المسند، باب إيجاب تقدم أولي الأحلام والنهي عن الإمام، حديث رقم (1381) [381/1].

(2) رواه أبو يعلى في المسند، عن جبير بن مطعم، حديث رقم (7413) [408/13].

(3) ورد بلفظ: «ليس بمؤمن مستكمل الإيمان من لم يعد البلاء نعمة والرخاء مصيبة» رواه الطبراني في الكبير، عن ابن عباس، حديث رقم (10949) [32/11] ورواه الديلمي في الفردوس عن ابن عباس، حديث رقم (5241) [407/3].

(4) رواه ابن أبي شيبة في المصنف، من كلام الحسن البصري حديث رقم (35188) [186/7] ورواه الدارمي في السنن، من باب من قال العلم الخشية، حديث رقم (294) [101/1] ورواه غيرهما.

والفهم، فيستنبط بنور فقهه مسائل، ويقيس ما لم يعلم بما يشبهها ويشاكلها ويقرب من معناها.

وأما الفقه في الدين فهو النور الذي يقذف الله تعالى به في قلب عبده المؤمن، مثل السراج، يبصر به، ولا يكون ذلك للكافر والمنافق. قال الله تعالى: «ولكن المنافقين لا يفقهون» [المنافقون: 7]. وأما الفقيه الذي نوّر الله قلبه بنور البصر فالذي أشار إليه رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بعبد خيراً فقهه في الدين وبصّره عيوب نفسه وبصّره بداء الدنيا ودوائها»[1]. فمن جمع الله تعالى فيه كلا الفقهين، فهو الكبريت الأحمر والعالم الأكبر واللبيب الأوفر.

فأما استنباط الفقيه في الأحكام فهو استنباط المسائل على موافقه السنة وإقامة الشريعة، وأما استنباط الفقيه في باطن العلم فهو استنباط الخواطر على موافقة الحقيقة ومشاهدة الربوبية. وإنما تتبين زيادة الفصل بينهما في استنباط معنى في الباطن والظاهر لآية قد أنزلها الله تعالى، يوجِبُ ظاهرُها حكماً، ويكون تحت ظاهرها، من العبارة التي في باطنها، إشارةٌ وعلمٌ. فيستنبط ما يوافق حجة الله تعالى، ويستنبط الحكيم ما يوافق مراد الله تعالى ويهدى إلى محجّته بما تبين من لطائف الإشارات موافقاً للتوحيد ومخبراً عن مراد يوافقه الحميد.

الفصلُ السّادِسُ

والأنوار التي وصفتُها في صدر الكتاب مثل نور الإسلام ونور الإيمان ونور المعرفة ونور التوحيد، وإن كانت أسماؤها مختلفة، فهي أشكال غير أضداد، ويتولد من كل نور منها فوائد على حدة ما لا يتولد من الآخر على قدر مراتبها. فنور الإسلام يتولد منه خوف ورجاء، ونور التوحيد يتولد منه خوف ورجاء، ونور الإيمان يتولد منه خوف، ورجاء، ونور المعرفة يتوالد منه خوف ورجاء، وكذلك سائر الأحوال التي تهيج من القلب وتتوالد من أنوار الباطن مثل الشكر والصبر والمحبة والحياء والصدق والوفاء وغيرها، ولكن أشرحُ بتوفيق الله تعالى هذا الفصل الواحد.

فاعلم أنه يتولد من نور الإسلام خوف الخاتمة ورجاء حسن العاقبة، قال الله

(1) رواه بـــنحوه ابن أبي شيبة في المصنف، في الفقه في الدين، حديث رقم (8 – 31049) [6/240] ورواه البزار في المسند برقم (1700) [117/5] وروى نحوه غيرهما.

تعالى: ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: 132]، وقال في قصة يوسف عليه السلام: ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف: 101]. ويتولد من نور الإيمان خوف طوارق السوء، وكذلك يتولد منه رجاء طوارق الخير في كل وقت، ونور المعرفة يتولد منه خوف السابقة، ورجاء السابقة، ونور التوحيد يتولد منه خوف الحقائق ورجاء الحقائق، وهذا النوع يرجع جوفه إلى مشاهدة الربوبية، وهو أن يخاف الله تعالى ولا يخاف سواه، ويرجوه ولا يرجو سواه. وسائر الأحوال التي ذكرتُ، شرحُها على هذا السبيل الذي وصفتُ لك.

ومَثَل هذه الأنوار كمَثَل الجبال، فالإسلام جبل وأرضه الصدر، والإيمان جبل وموضعه القلب، والمعرفة جبل ومعدنه الفؤاد، والتوحيد جبل ومستقره اللب. وعلى رأس كل جبل طائر، فطائر جبل الصدر النفس الأمّارة بالسوء، وطائر جبل القلب النفس المُلْهَمة، وطائر جبل الفؤاد النفس اللوّامة، وطائر جبل اللب النفس المطمئنة، فالنفس الأمّارة يكون طيرانها في أودية الشرك والشك والنفاق وما يشبهها، ولكن رحم الله أولياءه فحفظهم عن شرّها، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ﴾ [يوسف: 53]. والنفس الملهمة يكون طيرانها في أودية التقوى أحياناً وفي أودية الفجور أحياناً، قال الله تعالى: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾ [الشمس: 8]. وطائر جبل المعرفة هي النفس اللوّامة، ويكون طيرانها في أودية الترفع والعز والنظر في كرامات الله والافتخار والفرح بنعم الله أحياناً، وفي أودية الافتقار والتواضع والازدراء بنفسها ورؤية الذل والمسكنة والفقه أحياناً، ومع ذلك تكون لوّامة لصاحبها في أحوالها، قال الله تعالى: ﴿ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ ﴾ [القيامة: 2]. وطائر جبل اللب النفس المطمئنة، ويكون طيرانها في أودية الرضاء والحياء والقرار على التوحيد ووجود حلاوة ذكر الله تعالى، وهي شكل الروح طيّبها الله عن خبث المنازعة، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ ﴾ الآية [الفجر: 27 28]، وقال: ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الواقعة: 89].

ولفظة اسم النفس تشمل هذه المعاني كما ذكرنا في معنى اسم القلب، وهو قول الله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ [يوسف: 82]، والمعنى: أهل القرية، وقال: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ

قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ ﴾ [يونس: 98]، يريد بذلك أهل القرية. فكذلك القلب مضغة لحم والمراد ما فيها. وكذلك النفس، والمراد ما في داخل الجسد من النار. والنفس اسم الجنس، وجوهر بعضها أطيَبُ من بعض، وبعضها أخبث من بعض، وأشدّ ظلماً وأكثر فجوراً، وهي النفس الأمّارة، والنفس طابت بنور ظاهر الإسلام من خبث ظاهر النفس، وهي تزداد طيباً بصدق المجاهدة إذا قارنها توفيق الله تعالى. قال رسول الله ﷺ في دعائه: «**نعوذ بالله من شرور أنفسنا**»[1] فتعوّذ رسول الله ﷺ مع ما خصّه الله تعالى بأنواع من الكرامات وطهارة في النفس والنية. قال: «**كان لي شيطان إلا أن الله تعالى أعانني عليه فأسلم**»[2].

والنفس جوهرها ريح حارة مثل الدخان، ظلمانية سيئة المعاملة، وروحها في الأصل نورانية، وتزداد صلاحاً بتوفيق الله تعالى مع حسن المعاملة وصحة التضرع، ولا تزداد صلاحاً إلا بمخالفة العبد هواها والإعراض عنها وقهرها بالجوع والشدائد. والنفس اللوّامة هي أقرب إلى الحق، لكنها مخادعة مداهنة، لا يعرفها إلا العارفون من الأكياس، والنفس المطمئنة هي التي طهّرها الله من خبث الظلمات، فصارت نورانية، فشاكلت الروح، تمشي في طاعة الله منقادة من غير إباء منها فصارت مطيعة بطاعة الله، وهي نفس الصدِّيق الذي ملأ الله سرّه وعلانيته.

إنما شبهت هذه الأنوار بالجبال، لأن نور الإسلام في صدر المسلم آكد وأحكم من أن يزيله أحد ما دام الله تعالى يحفظه، حتى لا يتهيأ لأحد أن يزيل نور الإسلام من صدره. وربما لم يستقم المسلم على الطاعة، وهو مع ذلك متمسك بالعروة الوثقى، ولكنه لا ينجو من وسوسة النفس. وجبل نور الإيمان أرسى وأعظم وأرسخ وأثبت من نور الإسلام، لأن للنفس ولاية وتكلفاً في حفظ الإسلام واستعمال شرائعه، وليس لها تكلف في حفظ القلب. ومثبّته نور الرب جل جلاله، قال الله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ

---

(1) رواه البيهقي في السنن الكبرى، باب كيف يستحب أن تكون الخطبة، حديث رقم (5594) [215/3] وأبو يعلى في المسند عن عبد الله بن مسعود برقم (5257) [168/9] ورواه غيرهما.

(2) رواه مسلم في صحيحه، باب تحريش الشيطان..، حديث رقم (2814) [2167/4] والترمذي في السنن حديث رقم (1172) [475/3] ورواه غيرهما.

ﵟٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖﵞ [إبراهيم: 27]، وقال رسول الله ﷺ في مدح هذه الأمة: «**الإيمان في قلوبهم كالجبال الرواسي**»[1]. وهو موضع علم النفع، ونور المعرفة أوسع وضياؤها أرفع لأنه معدن الرؤية، والرؤية آكد من الخبر لأن «الخبر ليس كالمعاينة». ونور التوحيد هو أعظم الجبال، وَمَثَلُهُ في الجبال كمثل جبل قاف عند سائر الجبال.

فجبل نور الإسلام ينتهي حدوده إلى مجاهدة النفس وصالح أعمالها، وأهل الإسلام هم في درجات متفاضلون. وجبل الإيمان ينتهي حدوده إلى التوكل والتفويض. والمشاهدة أجلّ ما لم ير النفس، والاعتبار بما قد رأى والنظر بنوره إلى ما غاب عن الأعين. وأهل الإيمان في أصل الإيمان متساوون، وفي مشاهداتهم وما يتولد في أنواره من ثمرات الإيمان وفروعه متفاضلون. وجبل نور المعرفة ينتهي حدوده إلى إحاطة العلم بالبقاء والفناء والعجز والقدرة، وتنتهي إلى مشاهدة برّ الله تعالى ولطائفه. فبهذا النور يُعرَف الفاني والزائل وحقارته ودناءته، ويُعرَف الباقي وقدرته ورفعته، ويُعْرَف عجز الخلائق وضعفهم. والعارف في هذا المثل كأنه جبل الله، استقرت معرفته برؤية عظمته وكبريائه وقدرته، ويمسكه ربه، فلا يزول بإصابة حادثة ولا ينتقل بإصابة محنة، لأن الله تعالى يمسكه بقدرته وبرحمته.

ومعنى العين من «عرف» كأنه عَلِمَ وعرف عزة الله وعظمته وعلوه وعلمه، فذلّت نفسه عند رؤية عزته، وتصاغرت عند رؤية عظمته، وتلاشت عند رؤية علوه. ومعنى الراء من «عرف»: رأى ربوبية الله تعالى ورأفته ورحمته ورزقه، فوثق به، وآمن به، واعتمد على رأفته، ورجا من رحمته، ورضي بالله ربًّا ومدبراً. ومعنى الفاء: فقه في الدين لله تعالى، وفهم مراده، وفارق كان فان، وفرّ من كل فتنة إلى الفتاح العليم، وفاق نور قلبه الباقي على كل شيء فان. ووجه آخر: معنى العين عرى قلبه عن النظر إلى غير ربه، فألبسه تعالى لباس التقوى حتى عاود القلب ملازمة باب مولاه. ومعنى الراء: رأى قلبه كل شيء كما خلقه الله نعالى. ومعنى الفاء: فرأى الفاني كأنه قد فني

---

(1) أورده الذهبي في ميزان الاعتدال، من طريق عثمان بن عبد الله الأموي الشامي، رقم (5529 - 5584) [53/5]، وأورده غيرهما. أورده البستي في المجروحين، باب العيني، [2/ 103].

حتى انفرد للفرد الذي هو مولاه. ووجه آخر: معنى العين أنه عزت نفسه بالإيمان، والراء: راحت روحه بارتياح ذكر الرحمن، والفاء: فتح الله تعالى قلبه بالفقه في علوم القرآن.

ووجه آخر: عشقت نفسه، ورق قلبه، وفاقت روحه. ووجه آخر: عبد أعانه ربه، فرأى بعونه ما غاب عن عينيه، وكشف له عن معاني الأشياء، ففارق النفس والخلق بقلبه، فقام بربّه لا بقوة نفسه، مكشوف به سره، مشغول بربه، قد آثره على ما دونه، فإنه عرف أنه أكبر وأجلّ وأعظم وأعز وأكرم وأعلى وأعلم وأغنى وألطف. فغرق نور فؤاده في مشاهدة عظمته، وهو في بحر فوائد الله تعالى، لا ينتهي مددرها ولا يبلغ غورَه أحد. فهذا أقلّ علامة من علامات العارف، لأن العارف لا يدركه في أحواله ريح عاصف، ولا يتصل به برق خاطف، ولا يخبر عنه وصف واصف. ويطوف حول سرّه من الله تعالى في كل وقت من برّ الله تعالى ولطائفه ورحمته وكرامته وعظمته وفوائده ونعمه، لا ينقطع عنه أدنى طرفة عين من الله أنواع اللطائف. فهو عارف بالله، وعند الله نفسهُ، وغير عارف بما ينكر من نفسه من أخلاقها السيئة ومن عيوبها، وله من أقواله وأفعاله حكمة. وهذا كله إنما يتبين له من بحر فضله.

ويثبّته على هذه المرتبة العظيمة جبل نور التوحيد الذي هو الجبل الرابع، وهو على مستقر اللب، وهو الجبل الذي لا غاية لعلوه ولا نهاية لعظمته، وهو معدن جميع الخيرات والبحر الذي يخرج منه كل خير ويرجع إليه كل خير، ولا يتهيأ لأحد من الخلق وصف نوره بلسان العبارة إلاّ على مقدار ما يوفّق وييسَّر.

واعلم، أيّدَك الله، أن هذا عبد أخذه نور التوحيد، فأحاط به حتى أغرقه في بحره. فصار نور التوحيد على وجه المثل كالشمس، فهي أطول في الصيف وأشدّ حرًّا، طلعت عليه حتى بلغت موضعها من الزوال وهو أعلى موضع في أيام الصيف ترتفع الشمس إليه. وليس في السماء غيم ولا علة حاجزة لنورها ولا سبب مانع لحرها وضيائها من ظلمة. وليس بينها وبين هذا العبد شيء، حتى أحاطت برأسه، فأحرقته الشمس بحرّها، وغيّرت حاله مألوفاً وطبقاً، ولا يرى لشخصه ظلاً من ارتفاعها وعلوّ مكانها إلا عند قدميه، ولا تستقر قدماه على الأرض من شدة الحر إلا على الضرورة. فكيف يكون هذا الموحِّد الذي أقامه الله تعالى مقام التوحيد بحوله وقوته؟ وهو مقام من يحسّ به أسد فيقتله ويأكله وقد استيقن بهلاكه ليس له معتمد ولا كافّ ولا

مستغاث، فما أقرب حال صاحب هذا المثل من حال الموحِّد، فهذا إنسان حيٌّ عند الناس وهو عند نفسه ميت بقربه من ربه لأنه بقي في ظلمات حد الإدراك لا يدرك كيفية التوحيد....[1] نور التوحيد وأحاطت به سراً وعلانية، وقد ضل هذا العبد طريق التكيف، فليس له تكلف في الأمور، وقد قام بترك الاختيار، وصارت عبوديته أسيرة في قبضة عزة الرب جل جلاله، وهو يخاف من الشرك الخفي في سرِّه في لحظة، وهو ينظر بقلبه من ربه إلى خلقه كيلا يتلفت إلى غيره من خلقه أو إلى نفسه أو إلى حركته أو إلى حد التعطيل، حتى يرى عجزه عن إدراك ربوبيته، أو إلى حد التشبيه حتى يرى نفسه غريقاً في بحر التوحيد، وهو بحر عظيم عميق لا يُرَى شطُّه، ولا منتهى لغوره، وهو ريان عطشان، جوعان شبعان، عريان مكتس، بصير أعمى، عالم جاهل، عاقل أحمق، وحليم أخرق، وغني فقير، وقادر عاجز، وصحيح مريض، وحي ميت، وباق فان، وبعيد متدانٍ، وقوي متوانٍ، ومشته بلا أمان. فهذه صفة العالم الربّاني والعارف الروحاني، والسابق النوراني، ليس كالجاهل الظلماني، ولا علمه نفساني. ولو زدتُ فوق هذا الشرح في حال الموحِّد أخافُ أن يكون فتنةً على من عافاه الله من هذا البلاء، وغرق في ظلمات المعاصي والشهوات وحبِّ الدنيا عن مشاهدة لطائف المولى، فإن هذه الأشياء معافاة عن الشرك والشك، وحبط دون المولى.

وهو في أشدّ البلاء، كما وصفتُ لك شيئاً منه. وقد قال رسول الله ﷺ: «أشدّ الناس في الدنيا بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل»[2]. وقال رسول الله صلى الله عليه سلم: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ولحثيتم التراب على رؤوسكم»[3]. وأخبر عليه السلام من يشاهد الله تعالى وكبرياءَه في أشدّ البلاء فقال عليه

(1) بياض في الأصل.

(2) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الإيمان، حديث رقم (120) [99/1] ورواه الترمذي في السنن، باب ما جاء في الصبر على البلاء، حديث رقم (2398) [601/4] ورواه غيرهما ونصبه عن مصعب بن سعد عن أبيه قال قلت يا رسول الله أي الناس أشد بلاء قال الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل فيبتلى الرجل على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة».

(3) لم أجده بعبارة: ولحثيتم التراب على رؤوسكم. رواه البخاري في صحيحه في أبواب عدة منها: باب لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم، حديث رقم (4345) [1689/4]

السلام: «**إذا رأيتم أهل البلاء فاسألوا الله العافية**»[1]. فتفكّر، رحمك الله، في حال من وقع عليه هذا البلاء، ونزع عنه لباس العافية، فكيف يكون عيشه. أما بلغك ما كان رسول الله ﷺ فيه في كل حال وفي كل وقت؟ إذا شرع في صلاته سمع له أزيز كأزيز المرجل، وكان يتغير لون وجهه إذا هاجت ريح وظهرت حادثة. ولكن الغفلة فينا حجبتنا عن مشاهدة ما شاهد أهل المعرفة، وملأت خواطر قلوبنا عن مثل هذه الحالات. وقد ذمّ الله تعالى أقواماً فقال: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ ۝ ﴾ [الروم: 7]. وهذا العبد الذي غرق في نور التوحيد واشتدّ بلاؤه، فهو في عيش رغد، طابت حياته مع ربّه. قال الله تعالى ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل: 97]. فهذا العبد قد نسي الحلاوات كلها عند حلاوة ذكره وطاعته ومعرفته ومحبته. وقد قال رسول الله ﷺ: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام دينًا**»[2] إلى آخره. وقال عليه السلام: «**ثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما، ورجل كره أن يعود إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يُلقَى في النار، ورجل أَحبَّ عبداً لم يحبّه إلاّ لله**»[3]. وليس هذا موضع شرحها. فهذا عبد سقاه الله من بحر الهدى شراباً، ووجد حلاوته، فهو كالمجنون عند الناس، وقد زيّنه الله تعالى بأحسن اللباس، وعصمه من شرّ الوسواس وفضّله على كثير من الناس، ولا تُدرَك أحوالُ هذا الموحِّد بالنظر والقياس، وخصّه الله تعالى بقوة من عنده في جميع أحواله بما لا يُدرَك ذلك بالعقول والحواسّ. قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [البقرة: 257]، وقال: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ

=

ورواه غيرهما.

(1) رواه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، رقم (6646) [161/12].

(2) رواه مسلم في صحيحه، باب الدليل على أن من رضي بالله رباً، حديث رقم (34) [62/1] والترمذي في السنن (باب 10) حديث رقم (2623) [14/5] ورواه غيرهما.

(3) روى نحوه البخاري في صحيحه في أبواب عدة منها: باب حلاوة الإيمان، حديث رقم (16) [14/1] والنسائي في السنن الكبرى، [باب] حلاوة الإيمان، حديث رقم (11719) [6/527] ورواه غيرهما.

ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ ﴾ [محمد: 11]، وقال: ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [الأعراف: 196].

فما ظنك، رحمك الله، بمن كان الله وليه وناصره ومعينه ومؤيّده، هل تدرك حقيقة أحواله بحاسّة العقل؟ أما رأيت إنكار الضالّين كرامات الأولياء ومعراج النبي ﷺ إذ نظروا إليها من أهوائهم وسموها عقولاً، وزعموا أن عقولهم لا تقبل هذه الأشياء، ولا يصح مثل هذا من طريق المعقول، فكل ما لا تقبل عقولهم فذلك باطل. فيا أخي كيف تُدرِك بآلة مخلوقة محدثة مركَّبة ربوبيةَ خالقٍ قدير رب عالم يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد؟ ومتى يُدرِك شيءٌ يزيد وينقص ويتقارب ويتفاضل ربوبيةَ ربٍ لا يزيد ولا ينقص ولا يتغير حاله؟ بل العقل حجة من الله تعالى على العبد، وهو آلة مركَّبة لإقامة العبودية لا لإدراك الربوبية.

ومن عجز عن إدراك أشياء في نفسه مخلوقة فيه ولم يدرك حقيقتها علماً إلا بالظن والخيال مثل النوم وأحوال القلب وطبائع النفس والروح، ولا يعرف حقيقة النفس أيش هي، ولا يعرف حقيقة العقل الذي يدّعي أنه يعرف به كل شيء، فكيف يكون له سبيل الإدراك إلى ما هو أعلى منه؟ بل الصواب التسليم للحكم والاستسلام للربّ والرجوع إلى الحق. وهذا الموحِّد الذي وصفه الله تعالى بقوله: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ [ق: 37]، فهذا صاحب القلب في الحقيقة، لأن حافظ قلبه ربه عز وجل ولأن من وكّله الله إلى حفظ قلبه زاغ قلبه، ومن حفظ قلبه ربه فقد وقع من الشغل في فراغه. والناس يعظمون هذا الإنسان، لأنه رفيع المقدار. وقد وضع هو نفسه، وأزراها، وصارت نفسه لنور قلبه كالمرآة بعينه، ينظر بنور قلبه إلى نفسه فيعرفها، فيصل بمعرفتها إلى معرفة ربّه جل وعلا. قال الله تعالى: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الذاريات: 21]، وقال عليه السلام: «من عرف نفسه عرف ربه».

وهذا إنما يكون للمبتدىء في أوائل أمره وسلوك طريقه، وأما إذا اتصل بنور الحق، وقوي بقوة الحق، تلاشى عند سلطان عظمته قدرُ مَن دونه من خلقه، ويظل عند ظهور حقه مقدار جميع خلقه. وقد وصف الله مثلاً من نور قلب المؤمن على سبيل المثال فقال تعالى: ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا ﴾ إلى قوله: ﴿ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾

[النور: 35]. فمن تفكر بتوفيق الله تعالى بإدراك شيء من معنى بيان هذه الآية من أول الكتاب إلى آخره ما يدلّه على شرح معنى هذه الآية، والله أعلم. وقال بعد هذا: ﴿ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور: 40].

وأسماء مقامات السرّ مثل الصدر والقلب هي عبارة باللسان، وإنما حقيقتها إشارات إلى الأنوار، وقد وضعها الله من خزائن نوره. ألا ترى ما قال رسول الله ﷺ: «**فراسة المؤمن لا تخطيء**»[1]، «**والمؤمن ينظر بنور الله تعالى**»[1]، وقال: «**ليُفْتك قلبك**»[2]، وقال: «**زاجر الله في قلب كل مؤمن وواعظه في قلب كل مؤمن**»[3].

واعلم يا أخي أن قوام الخلق كلهم بالله تعالى، فما ظنك فيمن تولاه الله تعالى خصوصاً واكتنفه بكنفه وجعله من خاصته وأهل ولايته. ومن لم يمت لا يرى القيامة إلا أن يموت، كما قال رسول الله ﷺ: «**من مات فقد قامت قيامته**»[4]. ومن مات وخرجت روح نفسه وانتقل بروحه من الدنيا إلى الآخرة، عاين الآخرة وما فيها. فكذلك من مات بمعناه وحيي بمولاه وعلم أنه لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فقد كشف له غطاء غفلته، وقامت قيامته، وصار حياً بمولاه، لأنه اكتنفه وتولاه وأيد قلبه وأحياه، فشاهد بنور الحق ما لم يشاهد غيرُه، وقال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ ﴾ [آل عمران: 169]، وقال: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ ﴾ [البقرة: 154]. ومن قتله الكافر في سبيل الله جعله الله تعالى حياً بكرامته شهيداً، فما ظنك فيمن قتله نور

---

(1) ورد بلفظ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله». رواه الترمذي في السنن، باب ومن سورة الحجر، حديث رقم (3127) [298/5] والقضاعي في مسند الشهاب، (433 اتقوا فراسة..) حديث رقم (663) [387/1] ورواه غيرهما.

(2) ورد بلفظ: عن وابصة بن معبد الأسدي أن رسول الله ﷺ قال لوابصة جئت تسأل عن البر والإثم قال قلت نعم قال فجمع أصابعه فضرب بها صدره وقال استفت نفسك استفت قلبك يا وابصة ثلاثاً البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك». رواه الدارمي في السنن، باب دع ما يريبك..، حديث رقم (2533) [320/2] وأحمد في المسند، حديث رقم (18035) [288/4] ورواه غيرهما.

(3) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(4) رواه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، حديث رقم (1117) [285/1].

المحبة ونار خوف الهجران ونار مخالفة الهوى ونور موافقة الحق ونار الاشتياق، وقتل نفسه بسيف التوحيد، فصار حيًّا لله عز وجل.

والحياة التي يفهمها العامة على وجوه:

منها حياة النفس بالروح، وهي حياة الدواب والبهائم، ومنها حياة القلب من ظلمة الكفر بنور الإيمان، ومنها حياة النفس بالعلم، فإنّ العالم حيّ والجاهل ميت، ومنها حياة العبد بنور الطاعة من ظلمة المعصية، ومنها حياة التائب بنور التوبة من ظلمة الأضرار وبنور توفيق الله من ظلمة رؤية المجاهدة، ومنها حياة العبد برؤية منّة الله تعالى عليه وحسن نظره إليه من ظلمة النظر إلى العمل، ثم منها ما لا يَحتمل ذكرَها قلوبُ العامة.

قال الله تعالى: ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء: 85]، وقال: ﴿ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ [المجادلة: 22]، وقال: ﴿ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [غافر: 15]، وقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى: 52]. فكل حيّ ممن خلق الله تعالى إنما سمي حياً بالروح، والروح عبارة عن النور الذي به أحيا الله الخلق، وهو كما ذكر الله تعالى، أن الروح من أمره، وقوام الروح بالله، والنفس قائمة بالروح. فمن فهمَّه الله تعالى هذا المقدار فهم ما وراء ذلك، بتأييد الله وتوحيد الله وتوفيقه، من حياة القلب بروح الحكمة وروح الصدق وروح المحبة وروح الولاية وروح الشهادة وروح الرسالة وروح الكلام وروح الخلة. فحياة الصدر بروح الإسلام، وحياة القلب بروح الإيمان، وحياة الفؤاد بروح المعرفة والمشاهدة، وحياة اللب بروح التوحيد والانفصال عن القوة والحول والاتصال بالحق.

ومثل صاحب هذا الطريق في ابتداء أمره كمثل رجل احتوته ظلمات الليل وأحاطت به في بيت مظلم، فأعطي سراجاً فاستضاء بنور ذلك السراج، ثم فُتِحَت كوة بيته وبابه فوقع نور القمر، فاستأنس به واستبشر حتى خرج إلى الصحراء فاستغنى بنور القمر وضيائه عن ضوء السراج، فبينما هو فرح كذلك إذا أسفر الصبح، فغلب نور النهار وسلطانه نور القمر، فاستبشر، فإذا هو طلعت الشمس وجعل نورها وضياؤها يزداد إلى أن يبلغ أعلى درجاتها.

فمثل البيت المظلم هي النفس الجاهلة بظلماتها، ونور السراج فيها نور العقل، ثم يزيد هذا العقل، كطلوع القمر، بأنوار الشريعة وعلم السنة. ثم يزيد بنور صفوة

المعرفة، وهي كطلوع الصبح، ثم يزيد برؤيته منن الله تعالى وما سبق له من الله من الحسنى في الوقت ظاهراً وباطناً ولطائف صنعه وحكمه. ثم يزيد بنور التوحيد وهي طلوع الشمس، ثم يرتفع ويزداد ضوؤها ونورها وسلطانها ومنافعها برؤية حقائق آثار قدرته ولطائف ربوبيته. وإذا اكتملت أنواره واجتمعت خاف العبد من زوالها، وخشي من انتقالها، ولم يأمن تغيير حالها. فصاحب هذا المقام يخاف من فراق هذا النور وزوال هذا السرور أشد مما يخاف هذا المستأنس بنور الشمس من زوالها وغروبها.
وقد قال القائل:

طلعـت نـور شمـسه في القلـوب   وأضـاءت فمـا لهـا مـن غروب
يتـباهون بالحبـيب فكـل   آخـذ مـن حبيـبه بنـصيب[1]

ومَثَل نظر العبد إلى أعماله وأفعاله وأحواله كَمَثَل رجل أسرج سراجاً كما وصفنا، ثم اتصلت له هذه الأنوار التي وصفتُها، فهل ينظر إلى السراج بعد ما ظهرت له هذه الأنوار؟ لا، بل يشكر لمن وفّقه للأعمال. وكذلك الموحِّد، رأى سره معاينةً بحقائق الإيمان ومشاهدةً بنور هداية الرحمن آثار عظمة الله وقدرته وجلاله وكبريائه وفردانيته، فلم يلتفت إلى عمله، ولم يعتمد عليه، واعتمد على الله، وغرق في أنوار مشاهدة منّته ولطائف رحمته وشواهد رأفته، فتبرأ من النظر إلى حركات نفسه. وأزرى بنفسه لما رأى من سوء أخلاقها وقبح مرادها.

ومثل آخر أن الكواكب إنما يكون سلطانها في ليلة ظلماء، فإذا طلع القمر وكانت ليلة البدر غلب نوره نورَ الكواكب، وخفي أكثر النجوم، فإذا أسفر الصبح وطلعت الشمس انطمست آثار الكواكب الباقية، وذهب نور القمر. فما ظنك في عمل النفس عند ظهور الربوبية بالتوفيق والمعونة والهداية وهل يعتمد الموحِّد في عمل ما دام يرى لطائف ربوبيته وسعة رحمته، إذ العبد قائم بربه غير مستغنٍ عنه ظاهراً وباطناً لدينه ودنياه طرفة عين ولا أدنى من ذلك. فلما كانت الهداية وأنوار الولاية

(1) لم أقف على قائل هذين البيتين ويشبهها أبيات للحسين بن منصور الحلاج وهي قوله:

طَلَعَـت شَـمسُ مَـن أُحِبُّ بِلَيلٍ   فَاسـتَنارَت فَمـا لَهـا مِن غُروبِ
إنَّ شَـمسَ الـنَّهارِ تَغـرُبُ بِاللَّيـ   ـلِ وَشَـمسُ القُلوبِ لَيسَ تَغيبُ
مَـن أَحَـبَّ الحَبـيب طـارَ إِلَـيهِ   اِشـتِياقاً إِلى لِقـاءِ الحَبـيبِ

ولطائف حسن الرعاية جملت وشملت وكثرت لم يبق النظر إلى حركات النفس وأعمالها على سبيل ما يرى في كل لحظة وطرفة من لطائف الرب جل وعلا.

وأبيِّن لك شيئاً من صفة هذه القلوب التي يتولاها ربها. اعلم، رحمك الله، أن قلوب أولياء الله خزائن الحكمة، ومواضع الرحمة، ومعادن المشاهدة وكنوز المعرفة، وبيوت الكرامة، ومواضع نظر الله جل جلاله إليها برحمته، ومزرعة رأفته، وأواني علمه، وأخبية حكمته، وأوعية توحيده، ومواضع فوائده، ومساكن عوائده وأكنة أنوار من نوره. ينظر إليها برحمته في كل لحظة، فيزيد أنوارها، ويصلح أسرارها، وقد زيّنها الله بنور الإيمان، وأسَّسها بالتوكل على الرحمن، وحشاها من لطائف الامتنان، وبنى حيطانها من فوائد الإحسان، وطيب أرضها بنور الحق والهدى حتى طابت تربتها من خبث الشرك والشك والنفاق وسائر الفواحش. فهذه الأرض أرض المعرفة سقاها الله من بحر الرضى حتى نبتت فيها من أنوار النفس، وأيَّدها بحسن معالجة أصحاب البساتين، وهم السادات من المتقين، وأخرج أكمامها بريح متابعة سيد المرسلين، وربَّاها بالرياح الربَّانية: ريح الرحمة وريح الرأفة وريح الظفر وما يشاكلها من رياح الربوبية، وأنضج أثمارها بحر شمس المعرفة، وزادها بمضي ليل الافتقار ونهار الافتخار، وأحسن لون فواكهها بصبغة الله، وهي بيان أحكام الشريعة واستمساك العبد بالعروة الوثقى، وطيَّب طعمها بالتمسك بسنة نبيه عليه الصلاة والسلام. ثم وضع سرير المحبة على أرض الحق المطيَّب ترابها بنور اللبّ المؤيد بنور التوفيق المغذى بغذاء التصديق المؤسس بأسلس التحقيق المسدّد بركنه الوثيق، وبسط على هذا السرير الفرش الوثير من الحول والقوة، وألقى عليها من نمارق التضرع والاستكانة، وجعل متكأه الاستقامة، واعتماده على الله أن يثبته على الحق ولزوم الجماعة، ثم أجلس على هذا السرير عبدَه ووليه مسروراً ومؤيداً ومنصوراً، وقد ألبسه لباس التقوى، ونزع عنه ثياب التكلف والدعوى، وخلع عليه كرامته من خزائن فضله، وشدّ أزره بمنّته وتوفيقه، وتوجّه بتاج ولايته، وغسله بماء بره ورعايته، وزاده طهارة من بحر هدايته، وأطعمه من حلاوة ذكره ومحبته، وسقاه شراباً طهوراً بكأس التوحيد من بحر التفريد ممزوجاً بحلاوة وصلته حتى صار قائماً بالله غائباً سره عمن سواه، قد ذلت نفسه عند ظهور عزته، وتلاشت عن التكلف عند رؤية نصرته، فقامت نفسه في خدمته كالعبد المحجور أو كالمضطر المقهور أو كالأسير المأسور، ثم نظر إليه ربُّه نظرة رحمته، فنشر

عليه من خزائن الربوبية نثار كرامات الخصوصية، حتى قام مقام حقيقة العبودية، فأغناه الله تعالى بذلك، ثم قرَّبه وناداه وأكرمه وسمَّاه ولطف به ودعاه، فأتاه حين سمع دعاءه، فأيّده الله تعالى وقوّاه واكتنفه وآواه حتى أجابه ولبّاه وفي السر ناداه، وفي كل وقت ناجاه، وصرخ إلى مولاه لا يعرف له رباً سواه، فأعطاه سؤله ومناه، واصطفاه لخدمته وهداه، ولمحبّته ارتضاه، ولمعرفته اجتباه، وأجرى بين يديه أنهاراً من الصدق والصفاء، والتحقيق والحياء، والمحبة والرضاء، والخوف والرجاء، والصبر والوفاء، والشكر والقضاء، والبقاء واللقاء، والافتخار والافتقار، والتعظيم وترك الاختيار، والنظر في الأقدار، ومشاهدة العزيز الجبار. يزيده الله كل وقت من اللطائف ما عجز الواصفون عن وصفه. وهو في قرب من مولاه مستوحش من دنياه، اشتغل بالله عن النظر في عقباه، فهو في أرغد عيش مع مولاه، يخاف زوال هذا الحال، ويخشى حادثة توجب الانتقال عن مقام مشاهدة الكبرياء والجلال، وهو في هذه الحالة كالأنيس المستوحش، وكالمستقر المستوفز، وكالمطمئن المضطرب، قد غرق في بحر لا يرى شطّه، وهو بحر التوحيد، ولا يتمنى النجاة من هذا الغرق. يتلذذ هذا الموحِّد كما يتلذذ المتلذذون من حلاوات الدنيا، ويألم من ألم فراقه بما لا يألم أهل الأوجاع والأمراض والشدائد، والمضروبون بالسياط والمجرَّمون بالحديد، فعافاه الله من ألم الفراق وجمع له كل عافية، وجمله من عنده وآمنه، فسبحان من آلى على خاصة أوليائه والمقربين من أصفيائه بالآلاء العظيمة، وأنعم عليهم بالنعماء الجسيمة، وعصمهم من الأهواء السقيمة، ومنَّ عليهم بالقلوب السليمة، وسلك بهم سبيل المحجّة المستقيمة، فله الحمد على دفع البلاء وبذل العطاء وزيادة النعماء وكرامة الهدى ورفع الردى، والتوفيق بالاقتداء بنبيه المصطفى وملة خليله المجتبى وسنة رسول الله ﷺ المرتضى خاتم الأنبياء والرسل إلى أوضح السبل، ختم الله به النبوة، وبدر بمتابعته إلى إقامة المروة وإحياء الفتوة، وقطع به الحجة، وأرسله للعالمين رحمةً، ودفع به كل نقمة، وأتم به النعمة، إذ هو رسوله المصطفى صلى الله عليه وعلى آله أهل الصدق والصفاء وعلى أصحابه أهل المحبة والوفاء وعلى أزواجه أهل العفة والتقى وسلّم، ولا ملجأ ولا منجى منه، وهو ولي كل مؤمن ونعم المولى هو، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم.



منازل القربة

تأليف

الحكيم الترمذي

أبي عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن بشر

المتوفى ٣٢٠هـ

ضبطه وصححه وعلق عليه

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الحكيم الترمذي ﷺ: أول منازل القربة الإيمان بالله، فهذه قربة العامة فإذا تخطاها فلن يتقرَّب إلى الله بشيء مثل الفرائض.

وذلك قول رسول الله ﷺ فيما يروي عن ربِّه - تبارك وتعالى - أنه قال:

«ما تقرَّب إليَّ عبدي بمثل ما افترضت عليه، وإنه ليتقرَّب إليْ بعد ذلك بالنوافل حتى أحبه، وما يتقرَّب إليِّ بشيء من النوافل أحب إليَّ من النصيحة، فإذا أحببته كنت عينه التي بها يبصر، وسمعه الذي به يسمع، وفؤاده الذي به يعقل، ولسانه الذي به ينطق، ويده التي بها يبطش، ورجله التي بها يمشي، فإن دعاني أجبته، وإن سألني أعطيته»[1].

فقد اشترط إذًا الفرائض في مبدإ الأمر وهي إقامة الأمر والنهي، ففي إقامة الأمر والنهي أداء ما افترض الله عليه ولا يكون مؤدِّيًا حتى يتم الفرائض.

وقد رُوي عن رسول الله ﷺ: **«إن الرجل ليصلي الصلاة وما يُكتب له ثلثها وربعها وخمسها حتى ذَكر عُشرها»**[2]. وقال في حديث آخر: **«لا يكتب له ما سها عنه»**[3].

فالمحدِّث عنه في صلاته ليس بمؤدٍّ لفريضته في باب القُربة، وفي باب الحكم هو مؤدٍّ غير مأمورٍ بإعادته، والحكم للعامة والقربة للخاصة، فمن طلب القربة؛ فإنما ينالها حتى ينقطع منه حديث النفس في الصلاة، ومحالٌ أن يكون المقرَّب يناجي ربَّه بلسانه وغائبٌ بقلبه، ولا يقول بهذا إلا جاهلٌ لا يعرف ما القربة، وإنما سمع اسمًا فنطق به، والمؤدِّي لجميع الفرائض إنما يكون مؤديًا إذا وفَّى الأداء على ما وصفنا من ذكر

---

(1) لم أجده بلفظه وروى نحوه باختلاف يسير في لفظه البيهقي في الزهد الكبير، فصل في الاجتهاد في الطاعة..، حديث رقم (699) [270/2].

(2) روى نحوه البيهقي في السنن الكبرى، (398) جماع أبواب الخشوع في الصلاة..، حديث رقم (3342) [281/2] وروى نحوه أبو يعلى في المسند، مسند عمار بن ياسر، حديث رقم (1615) [189/3] وروى نحوه غيرهما.

(3) ورد بلفظ: «لا يكتب للرجل من صلاته ما سها عنه». رواه ابن المبارك في الزهد ووقفه على عمار بن ياسر.

الصلاة.

وكذلك الزكاة وكذلك الصوم والحج والعمرة.

ألا ترى أنه قال: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [البقرة:83] في جميع المواطن التي ذكرها في التنزيل، ولم يقل: «صلوا».

وقال: ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [البقرة:83] ولم يقل: «زكوا».

وقال: ﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ ﴾ [البقرة:196] ولم يقل: «حجُّوا واعتمروا».

وقال: ﴿ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ ﴾ [الحج:78] ثم لم يتركهم رُذالاً[1] حتى قال: ﴿ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ ﴾.

وقال في الصوم: ﴿ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ﴾ [البقرة:185] فابتغى منهم الكمال.

وقال في قُربة الأمر؛ وهو الإيمان: ﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [النساء:136].

ثم قال: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال:2] إلى قوله: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ [الأنفال:4].

فالمؤدُّون لفرائض الله هم الواصلون إلى حقائق الأمور، فإذا كان مؤدِّيًا للفرائض على هذه الصفة نال القُربة، والقربة لها منازل، ثم يتخطَّاها إلى وسائل، فأهل الوسائل في ملكه ومن دونهم في معسكره، فإنما تكون النوافل بعد إتمام الفرائض، فإذا أدَّى الفرائض قُبلت منه، فهناك بعد القبول تكون النوافل، ولا تكون نافلة حتى تؤدَّى الفريضة، فإذا نال القربة في المعسكر؛ قوي على أداء الفرائض وهو إقامة الأمر والنهي؛ فهناك سعد بعد ذلك بالأعمال الصالحة، وأحب النوافل إليه النصيحة له.

وهو الذي رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن عبادًا لله ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيُّون والشهداء بمكانهم وقربهم من الله**»[2]، قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «يحببون الله إلى عباده، ويحببون العباد إلى الله، يمشون لله في الأرض

---

(1) الـرُّذل والـرذيل والأرذل: الـدون مـن الناس، ورذله يرذله رذلاً: جعله كذلك..، والرُّذال والرُّذالة: ما انتقي جيِّده وبقي رديئه. والرذيلة ضد الفضيلة. (لسان العرب).

(2) روى نحـوه عـبد الرزاق في المصنف، باب المتحابين في الله، حديث رقم (20324) [11/ 201] وروى نحوه أحمد في المسند برقم (22945) [341/5].

نُصحاء»[1].

وقال في حديث آخر: «**أحبُّ ما تعبَّدني به عبدي إلى النصح لي**»[2].

حدَّثنا الحسن بن الحسن المروزي، حدَّثنا عبد الله بن المبارك عن يحيى بن أيوب عن عبيد الله بن زحر عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة ﷺ عن رسول الله ﷺ بهذا في باب «النوافل» فوجدنا في إقامة الفرائض الصبر عليها.

ورُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**الصبر ثلاثة: صبرٌ على المصيبة، وصبرٌ على الطاعة، وصبرٌ على المعصية، فمَن صبر على المعصية كتب الله له ثلاثمائة درجة كل درجة كما بين السماء والأرض، ومَن صبر على الطاعة كتب الله له ستمائة درجة كل درجة كما بين العرش إلى الثرى، ومَن صبر على المعصية كتب الله له تسعمائة درجة كل درجة كما بين العرش إلى الثرى مرتين**»[3].

وقد عظَّم الله شأن التقوى في تنزيله في مواضع كثيرة، ووعد الجزيل من الثواب بالتقوى، ووعد قبول الطاعات بالتقوى، فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة:27]؛ فإنما يتَّقي المعاصي، وإنما صار ذلك أعظم؛ لأنه ردُّ شهوة ورفض مشيئة، وفي المصائب مكاره، وفي إقامة الفرائض مكاره، وفي ترك الشهوات المنهيَّة مكاره؛ فهي أعظمهن، ألا ترى أن العامة تجد الصبر على المصائب، وتجد الصبر على الفرائض، ولا تجد صبرًا على المعاصي، وإنما صار المتَّقون قليلاً من أجل ذلك؛ لأن أعظم الجهاد مع النفس في ترك الشهوات.

وكذلك ما رُوي عن داود عليه السلام أنه قال له ربه: يا داود إيَّاك والشهوات! فإن القلوب المعلَّقة بالشهوات عقولها محجوبة عني.

فإذا صار العبد في باب القُربة بإقامة الأمر والنهي ثم في باب النوافل، فأعظم نوافله

(1) هـذا القسم من الحديث أورد نحوه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول في سر العمل وعلانيته [75/4] وروى نحـوه ابن حبان في التوبيخ والتنبيه، الدين النصيحة، حديث رقم (15) [1/ 22].

(2) رواه أحمد في المسند عن أبي أمامة، برقم (22245) [254/5] ورواه الروياني في المسند عن أبي أمامة برقم (1193) [276/2].

(3) روى نحـوه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب عن علي بن أبي طالب برقم (3846) [2/ 416].

ترك الشهوات، فإذا اختار سائر الطاعات مِن الحج والجهاد والصوم والصلاة، فإن نَفْسَه لا تزكو على ذلك؛ لأن القلوب إنما تصل إلى الله بالطهارة والصفاء.

فالطهارة للقلوب ترك الغل والغش والحقد، والصفاء لأخلاق النفس، فهذا أعظم النوافل، فإذا ذهب يستكثر من نوافل أعمال البرِّ، وتركَ أخلاقه كل مرةٍ سيئة، وقلبه ذو غشٍّ وغلٍّ ثم طمع في القربة؛ فهو محال.

ومشيئات النفس في شهواتها، فكلُما قلَّت مشيئته قويت قُربته من ربِّه؛ لأنه يُكثر موافقته لربِّه في تدبيره، فلا يَزال يترقَّى في درجات القربة بإطفاء المشيئة حتى يصير في أعلاها، فهناك لا تبقى له مشيئة.

فرحم الله مَن بلَّغ هذا عني، فقال للمفتونين: يقول لكم محمد بن علي: حرامٌ على قلوبكم الوصول إلى منازل القربة حتى تؤدُّوا الفرائض على ما وصفت، ثم حرامٌ على قلوبكم بعد ذلك درجات الوسائل حتى تُميتوا مشيئاتكم لمشيئته، ثم حرامٌ على قلوبكم بعد ذلك الدرجة العظمى في مُلك الملك بين يديه حتى ينقطع عن قلوبكم مشيئة الوصول إليه، وكيف يطمع عبدٌ في ذلك ومشيئته قد بلغت به مبلغًا إذا برز له من الغيب تدبيرٌ من الله قد دبر له من الحكمة البالغة بالرحمة الشافية؛ كانت له في نفسه مشيئة تدبير الله، وتتحرك فيه شهوة تدبير نفسه، أفلا يستحي هذا الأحمق أن يحدِّث نفسه أو يطمع فيها؟ وأن الله - تبارك اسمه - الرحمة عن يمينه، والحكمة بين يديه، وأم الكتاب عن يده الأخرى، ثم يصدرها إلى محل القضاء في ملك الجبروت، فإذا جرى القضاء من العرش إلى الثرى في جميع خلقه؛ غمض الجميع من تحت العرش عيونهم من هول سلطان القضاء، إذا انتهى إليهم تفرَّق القضاء، فبعضه متوجِّه إلى الجنان، وبعضه إلى النيران، وبعضه إلى أهل السموات، وبعضه إلى أهل الثرى.

فهذا الجاهل المعجب بنفسه يرى في صدره مشيئة لنفسه، فإقامة كل بسطواته بعد ما برز له تدبيره من ربِّه على ما وصفنا، فلم تَمُت مشيئته لمشيئته من هول ما ذكرنا؛ لأنه لا يطمع بصره إلى ذلك، ولا حسٌّ قلبه بهذه الصفة، ثم يطمع بعد هذا أن ينال منازل الوسائل فتكون بين يديه، ولا يدري بين يديه ما هو إلا الاسم والحروف التي ينطق بها.

مسألة: الشكر على الحقيقة

قال أبو عبد الله -رحمه الله-: أمَّا الشكر على الحقيقة، فالشكر هو انفتاح الشيء

وانكشاف الغطاء. يقال في اللغة: شكر فاه يشكره: أي أبدى عن أسنانه شيئًا ما، ولا يكون ذلك حتى يبديه، فالشكر: هو انفتاح عين القلب حتى يرى، والشكر: هو رؤية ضعفه في الأشياء؛ فذلك حقيقة الشكر.

ثم في الشكر طبقةٌ أعلى من هذا وهي: رؤية ما جرى في الذكر قبل التدبير، ثم في الشكر طبقة أعلى من هذا، وهي: رؤية المشيئة والقسمة للحظوظ، ثم في الشكر طبقة أعلى من هذا، وهي: رؤية العلم في الفرديَّة والأحديَّة؛ فهذه كلها حقائق الشكر، فالشاكرون على درجاتهم، كلما جازت رؤية درجة فمثبوتة على الشكر على قدر رؤيته في درجته.

فالشاكرون شكروه قلبًا، وحَمدوه قولاً، فالقول كالقوالب فإذا صارت الأقوال إلى الله قامت بين يديه في مقام الحمد.

فمنهم: مَن قوله قالب خالٍ ليس هناك إلا قول، فبشُّر الرب بحرمة توحيده، ويكتب له ثوابه.

ومنهم: مَن قوله مشحون بالنور ولا إشراق له، إلا أن القلب ممتلئ بالنور، فكلَّما ازداد صاحبه حمدًا كانت له كجمرة تزداد توقدًا حتى يضيء البيت، وهو قوله -تعالى-: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم:7].

ومنهم: مَن قوله مشحون بالنور وله إشراق، إذا أقام الحمد بين يديه؛ أشرق فأخذ تلك الفسحة فامتلأت، وصار إلى عيش الحمد، فلحق بحمد المولى الذي حمد به نفسه.

مسألة في التقوى:

وأمَّا التقوى، فإن التقوى على خمسة أنواع: تقوى الله، وتقوى الرب، وتقوى اليوم، وتقوى النار، وتقوى الأرحام.

فأمَّا تقوى الله فإن يتَّقي أن يُوَلّه إلى أحدٍ سواه، ثم للوَلهِ حدودٌ ودرجات، فواله يوله إلى الأوثان حتى يعبدها دونه تعالى رجاء نوال من الأوثان، وهو قوله تعالى: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر:3].

وواله يوله إلى مَن تجري المضار والمنافع على أيديهم حتى يتيقَّن بهم، ويتعلق قلبه بهم، فيعصي الله في جنبهم، وواله يوله إلى أعماله حتى يتَّكل عليها، يرجو الفوز والنجاة بها غدًا.

وأمَّا تقوى الرب فإنه يتَّقي أن يخاصم في ربوبيَّته، ثم للخصام حدودٌ ودرجات فمخاصم قال: ليقدر علينا الذنب ثم يعذبنا حتى جاءت مشركو قريش إلى رسول الله ﷺ فنطقت به، فقال رسول الله ﷺ: **«إنهم خصماء الله»**(1).

ونزلت: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾ [القمر:47] إلى قوله: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر:49].

ومخاصم قال: ﴿ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ ﴾ [يـس:47] وهم الزنادقة، قال الله تعالى: ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [يـس:47].

ومخاصم قال: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [البقرة:30] وهم الملائكة في شأن آدم عليه السلام.

قال الله – تعالى –: ﴿ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:30]، قال الله – تعالى- لنبيه عليه السلام: ﴿ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [ص:69].

ومخاصم خاصم في أحكامه: لو كان كذا لكان كذا، وهلاَّ كان كذا؟ وهؤلاء أهل التوحيد.

ورُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«إياكم واللو فإن من اللو يقع عمل الشيطان»**(2).

ومخاصم يخاصم في تدبيره، فيدبر لنفسه من تلقائه في أموره دنيا وآخرة، بمبلغ ما أُوتي من علمه على تدبير ربه كوحدانيته، وجهلاً بالله، وإعجابًا برأي نفسه وتملكًا، واقتدارًا.

وأمَّا تقوى اليوم، فإن ذلك يوم حشاه الله بالمثوبة والجزاء والعدل والنصرة، يثيب على الإحسان، ويجازي على العبودة، ويجازي على الكفران، ويُظهر عدله حتى يختم

---

(1) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، من اسمه محمد، برقم (6510) [317/6] وبرقم (7162) [162/7] ورواه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، حديث رقم (992) [255/1].

(2) ورد بلفظ: «إياك واللو فإن اللو تفتح عمل الشيطان» رواه النسائي في السنن الكبرى، [باب 167 مـا يقـول إذا غلـبه أمر) حديث رقم (10457) [159/6] ورواه ابن ماجه، باب التوكل واليقين، حديث رقم (4168) [1395/2] ورواه غيرهما.

به الأفواه ويُخرس به الألسنة، وينصر حقّه، ثم ينشر رحمته، ويبرز فضله، ويهطل جوده وكرمه، ويظهر من مجده ما لا خطر على قلب بشر.

فخلق ذلك اليوم من قوله: ﴿ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ ﴾ [الأنعام:73] ويمد مقداره بمقدار خمسين ألف سنة من أيام الدنيا، فيكون نصف ذلك اليوم جميع ما ذكرنا بدءًا، حتى إذا انتصف النهار، اجتمع الأحباب بباب الجنة بالعناء في مقيلهم أضياف الرحمن، وقد خرج آخرهم من الصراط بعد ما امتحشتهم: أي أحرقتهم، واجتمع الأعداء بباب النار في سرادقٍ من النار أحاطت بهم.

قال تعالى: ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ ﴾ [الكهف:29]. وقال: ﴿ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴾ [المرسلات30] من دخان النار، وقد أظلتهم من فوقهم، فهناك مقيلهم أضياف ملك، ثم يدخل أهل النار النار؛ ليعذبوا، ويدخل أهل الجنة الجنة؛ لينعموا ويحبروا، وقد بقي من ذلك اليوم النصف، وهو بمعدل خمس وعشرين ألف سنة، والأحباب يكسون ويحلون الحلي والحلل، ويتوَّجون، ويسورون، ويقتسمون منازلهم، فيتنعمون مع أزواجهم، وينظرون إلى حظوظهم ومملكتهم، ويذكرون الأعداء، فينطلقون إليهم، والأعداء يكبَّلون، ويغللون، ويقيَّدون، ويسلسلون، ويلبسون القطران، ويُضربون بالمقامع من الخزان، ويصرخون، وينادون أرحامهم ومعارفهم، والأحباب ينظرون إليهم من الأرائك والمجالس فيضحكون بهم ويستهزئون.

وهناك عجائب في الدارين من الويل والتحسير والندامات والملامات ودعوة الثبور، وفي هذه الدار من الحبور والسرور والتسبيح والتقديس والتحميد لله على ما هداهم وأولاهم من مننه، فمن يقدر أن يصف ذلك حتى تنقضي هذه المدة؟ فإذا تمَّ ذلك اليوم وهو مقدار خمسين ألف سنة، نصف للموقف والجزاء والحساب والأعذار، ونصف في الجنة للاقتسام وقبض الجزاء والاحتواء على المملكة، أمر الله الجليل - تبارك اسمه - بإطباق النار عليهم، وردم أبوابها، وسد خللها ونقوبها، وأصمت: أي أقفل ذلك السجن محنة للأعداء بأجسامهم وسلبهم صورته وتناسَاهم، وأخرسهم عن دعائه وندائه، وخسأهم، فقال: ﴿ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون:108]، وفى وعده فقال: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة:13]، ثم وضع قدمه على أعناق الأعداء، وأرسل عليهم غضبه، فأحاط بهم، وختم غضبه

باللعنة، ثم أعرض عنهم وتناساهم، فكأنهم لم يكونوا، وعينهم في ملك من ملكه، وكأن النار لم تكن، وكأن أهلها لم يكونوا، ثم أقبل على أحبابه بذلك الفرح الذي كان في البدء، فإذا ظهر ذلك الفرح منه، وتيه في أهل الجنان، حتى إذا انتهى الأمر إلى آخر الدرجات، تضاعفت الجنان بما فيها نعمة وسرورًا وحبورًا.

وهو قول جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما-: «**إنه ينادي: يا أهل الجنة قد بقي لكم شيء لم تنالوه، فيقولوا: وما ذاك يا ربنا؟، قال: رضواني**»[1]، وهو قوله تعالى: ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة:72].

فهناك انقطعت الصفات عن أهل الدارين، وكل ما جاء من الأخبار من الكتب والرسل، فإنما جاء بمقدار احتمال الخلق ذلك الخبر، فإنما كان احتمال الخبر فيما يكون في هذا اليوم الذي مقداره خمسون ألف سنة، فإذا انقضى هذا اليوم نصف في الموقف، ونصف في الرأفة؛ وانقطعت الصفة. قال له قائل: وكيف انقطعت الصفة؟

قال: أما قرأت في التنزيل: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة: 17] فالذي خفي من قرارة العيون إنما يظهر بعد ما يطمئن أهل الجنان؛ لأنهم في الابتداء في شغلٍ من قبض الجزاء، واقتسام المساكن، والاحتواء على المملكة من الخدم والأزواج والخيام والأنهار والمتنزهات والمدائن والآجام والآكام والكثبان، ألم تأتك الأخبار عن رسول الله ﷺ: «**إن أدنى أهل الجنة مَن ينظر في ملكه مسيرة ألف عام**»[2].

(1) رواه البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري باب صفة الجنة والنار..، حديث رقم (6183) [2398/5] ولفظه: عن سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة فيقولون لبيك ربنا وسعديك فيقول هل رضيتم فيقولون وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك فيقول أنا أعطيكم أفضل من ذلك قالوا يا رب وأي شيء أفضل من ذلك فيقول أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً». ورواه مسلم في صحيحه، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة..، حديث رقم (2829) [2176/4] ورواه غيرهما.

(2) لم أجده بلفظه، وإنما ورد بألفاظ أخرى منها ما رواه البخاري في صحيحه باب صفة الجنة والنار..، حديث رقم (6202) [2402/5] ونصه: عن عبيدة عن عبد الله ﷺ قال النبي ﷺ إني لأعلم آخر أهل النار خروجاً منها وآخر أهل الجنة دخولاً رجل يخرج من النار حبواً
=

فهذا كلُّه مدائن وقصور وبساتين وأنهار وشواطئ ومتنزّهات وخيام وأزواج وخدم يحتاج إلى مدة حتى يحتوي على هذا كله مفرقًا واحتواء، ويتنعَّم بالآلاء والكسوة والمراكب والأطعمة والأشربة والضحك والاستهزاء بالأعداء.

والحمد لله والتسبيح له بما أعطاه والتسبيح جهرًا، يتجاوب له الجنان إلى أسفل الدرجات، حتى ينتهي التجاوب إلى أهل النار؛ فيكون حجة الله عليهم، وذلك بما يحب الله أن يوصله إلى الأعداء، ويقال لهم: بمثل هذا التنزيه كانوا يعبدونني أيام الدنيا.

فإذا قالوا: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف:43] فكأنما أراد منهم أن يخفوا ذلك عن الجهر، ولا يتجاوب أهل النار بذلك حتى لا يجد أهل النار سبيلاً إلى الخصام يتفرجون لذلك، فهذه المقالات من أهل الجنة.

هذه الأشياء المذكورة في التنزيل من قول أهل النار: ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا ﴾ [فاطر:37]. وقال: ﴿ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ [الزخرف:77]، ويا ويلاه، ويا ثبوراه.

وقال: ﴿ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزمر:57]، وقال: ﴿ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴾ [الزمر56].

وقال: ﴿ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الزمر:58] وقولهم للخزنة: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر:49]، وقول أهل الجنة: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ [فاطر:34، 35]. فهذا كله في نصف اليوم الباقي، فإذا تم هذا اليوم قال الله -تعالى-: ﴿ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾

= فيقول الله اذهب فادخل الجنة فيأتيها فيخيل إليه أنها ملأى فيرجع فيقول يا رب وجدتها ملأى فيقول اذهب فادخل الجنة فيأتيها فيخيل إليه أنها ملأى فيرجع فيقول يا رب وجدتها ملأى فيقول اذهب فادخل الجنة فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها أو إن لك مثل عشرة أمثال الدنيا فيقول أتسخر مني أو تضحك مني وأنت الملك فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه وكان يقال ذلك أدنى أهل الجنة منزلة.

[المؤمنون:108].

فخرست الألسن، ونزعت الصور منهم، وأطبقت النيران، وسدت الأبواب، ورمي بالنسيان عليهم، فصارت النيران والكفار كأنهم لم يخلقوا، ولم يكن لله خلق أشرك به قط ولا عصاه تمردا، وأقبل على أهل الجنان بذلك الفرح الذي كان في البدء، فهنالك دعاهم إلى الزيادة، وناداهم إلى الروح الأمين من بطنان العرش: يا أهل السعادة يا أحباب الرحمن يا معشر الموحِّدين إن هذا يوم الجمعة، وإن الرحمن يدعوكم إلى زيارته؛ لتنظروا إلى معبودكم، فتتمتعوا بكلامه، وتقرَّ أعينكم بمقاصدكم أيام عبودتكم، وتتلذَّذوا بالنظر إلى جلاله وجماله.

فعند ذلك يشتغل أهل الجنان بالرحمن شغلاً يذهلون به عن الجنان، ويشتغل أهل النار في النار بغضب الجبار شغلاً يذهلون به عن الدنيا والمعارف حتى يتساءلوا: أتدرون أين كنا؟ ومن أين جئنا؟ فلا يذكرون ذلك، ونظرنا فإذا الدنيا سبعة آلاف سنة فيما أتت به الروايات.

حدثنا بذلك أبي -رحمه الله-، حدثنا مالك بن سليمان الهروي عن يزيد بن عطاء عن أبي سنان عن الضحَّاك عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: «الدنيا سبعة آلاف سنة[1]، مضى منها ستة آلاف سنة»، ثم تلا قوله: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ ﴾ [الحشر:18].

ثم قال في تنزيله: ﴿ وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ ﴾ [الأنعام:73]، فأخبرنا أن هذا لم يكن بعد، وأنه سيكون بقوله: ﴿ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ ﴾ [الأنعام:73] في مبتدئه، ثم يمد في مقداره خمسين ألف سنة، فألف سنة في النفخ والبعث والحشر، ويُبقي تسعة وأربعين ألفًا، وهي سبع مرات سبعة آلاف سنة، مقدار الدنيا سبع مرات هم في الحساب في الموقف وقبض الجزاء في الجنة، والأعداء في الإضراب والاستغاثة والنداء والعويل والخصام والتبرُّي بعضًا من بعض، والإقبال باللوم، والعذل حتى تنقضي مقدار الدنيا سبع مرات، فتأتي الجمعة يوم السابع، فيزورون معبودهم حتى تقرَّ عيونهم بمن عبدوه.

(1) هذا القسم من الحديث رواه الحاكم في المستدرك، ذكر نبي الله وروحه..، حديث رقم (4171) [654/2] ونصه: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قدم رسول الله ﷺ المدينة واليهود تقول: إنما هذه الدنيا سبعة آلاف سنة» وروى هذا الأثر غير الحاكم.

فيبلغ بهم الحال إلى ما رُوي عن رسول الله ﷺ، حدَّثنا بذلك الفضل بن محمد بن مصفا الحمصي، حدَّثنا سويد بن عبد العزيز عن الأوزاعي عن حسان بن عطية عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ عند ما ذكر الزيادة: **«لا يبقى في ذلك المجلس أحدٌ إلا حاضره الله محاضرة، فيقول: أي فلان، أتذكر غدرتك يوم كذا وكذا؟ أتذكر يوم كذا وكذا؟ فانظر أي شيء هذا؟ ومَن يعرف هذا؟»**[1].

ذلك ليعلم أن أحوال الدنيا كلها قد انطمست، وذهبت الحشمة، وزالت العبودة، وغمر فضله قبح المعاصي التي كانت منهم، فإذا ذكر لهم ذلك لم يدخلهم روع ولا حياء.

وإلى ما هاهنا تفهم العامة من أهل الباطن، ثم من وراء ذلك علم الخاص من الأولياء ما لا يفهمه جمهور أهل الباطن، ومن أين يدرون ما ذلك الفضل الذي يُذهب عنهم حشمة المعاصي؟ وإنما يعرف ذلك من لحظ البدء في الذكر الأول قبل المقادير، قبل أن تصير الأمور السيئات سيئات، فهاهنا نعلم ما هذا، وأن أهل الجنة إذا انطمست أحوال الدنيا وانقضت مدة ذلك اليوم، عادوا إلى الحالة التي ابتدأهم منها، فإن من أهل الجنة من لقي الله بعجائب من الذنوب والخطايا، والجسارة عناء وشدة، وفي اللحود عذابٌ، فإذا مضت هذه المدة التي وصفنا؛ انطمست هذه الآثار كلها ما لقوا الله به من الذنوب، وما لقوا من العنت والعذاب، فصاروا أحبَّاء وخلصاء، فمن اتقى ذلك اليوم وثب من قبره إلى الله وثبة المشتاقين، وبيده بضعة من قلب قد نغل، وبضعة من كبد قد عفن، والنغل من حريق الشوق، والعفن من مرارة ما لقي في جنبه من الأذى، واستخفافهم بحق الله وإعراضهم عن الله، فإذا لقي ربه بثُّ شكواه.

فكان كما رُوي عن رسول الله ﷺ، رواه صالح بن عبد الله عن يحيى بن سليم الطائفي عن محمد بن مسلم عن مَن حدَّثه عن عبد الله بن عمرو بن العاص - ﷺ - أن رسول الله ﷺ سُئل عن: ﴿يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾؟ [المعارج:4].

فقال ﷺ: **«طول على الكفار، وأمَّا المؤمنون فصنفان: صنفٌ منهم يكون عليهم ذلك اليوم كرجلين تناجيا فطال نجواهما، ثم افترق كل واحد إلى منزله،**

---

(1) روى نحـــوه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول في أحاديث الرسول، الأصل التاسع، في مرتبة روح المؤمن، [99/1].

وأمَّا الآخرون فكرجل صائم أصاب عرقًا وعطشًا وتعبًا، فلما غربت الشمس أفطر»[1]، فالأول الذي طال نجواه إنما يشكو بثه إلى الله ما لقي في جنبه، ويشكو طول حبسه عنه، من الحياة وشدة الشوق إليه، وتريه الصغير نغلاً وعفنًا يستعطفه؛ ليقرِّبه، يلتمس بذلك شفاء نغله وغليله وشغوفه به، فلو مَلك الجنان بحذافيرها ما هنأ بها ولا رفع طرفه إليها حرصًا عليها، فهذا يعجِّل الله له النظر إليه نظرة الشفاء، لا يضره الحساب.

ورُوي عن كعب أنه قال: **«مَن بكى لله خشية، حرَّمه الله على النار، ومَن بكى شوقًا إليه أباح الله النظر إليه»**[2].

ورُوي عن موسى بن الصبَّاح أنه قال في قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة:243]، قال: «يُؤتى بالعبد من صنف من الثلاثة الأصناف يوم القيامة، فيقال له: ما أردت بعملك؟ فيقول: رغبت فيما رغبتني فيه من الجنة، فيقول: فإن لك ما رغبت فيه، فلك الجنة، ومن فضلي عليك أن أُنجيك من النار، ويُؤتى بعبدٍ من الصنف الآخر، فيقول له: ما أردت بعملك؟ فيقول: خِفت مما خوفتني به من النار، فيقول: فلك الأمان مما خفت منه مما خوفتك، ومن فضلي عليك أن أُدخلك الجنة، ويُؤتى بعبدٍ من الصنف الثالث، فيقول له: ما أردت بعملك؟ فيقول: حبًا لك يا رب، وشوقًا إليكَ، فيقول: قد أوجبت لك الجنة، فلك الأمان من النار، ومن فضلي عليك أن أُبيح لك النظر إلى وجهي في هذا الموقف»[3].

فهم المقرَّبون، فهذا يوم الله، يظهر لخلقه فيه جلاله وعظمته وملكه وكبرياؤه وسلطانه وبهاؤه وعزه ومجده وجوده ورحمته، فلتقوى ذلك اليوم درجات، فمتَّقٍ يلقاه بتوحيده قد اتَّقى الشرك، ومتَّقٍ يلقاه بتوحيده ووفَّى توحيده قولاً وقلبًا وفعلاً؛ قد اتَّقى الشرك والمعاصي، ومتَّقٍ يلقاه بتوحيده ووفَّى توحيده قولاً وقلبًا وفعلاً؛ فهذا هو المشتاق الذي دأب على قدميه أيام الدنيا، قد اتَّقى أن يطمئن إلى أحدٍ سواه، واتَّقى أن يستأنس بأحدٍ سواه، وأخذته الغيرة لربِّه أن يستأنس أحد بغيره أو يفرح بشيء

---

(1) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(2) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(3) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

دونه، فكل أهل الموقف يجذبهم جلاله وعظمته وكبرياؤه، حتى تذهل الرسل صلوات الله عليهم عن الخطاب والجواب، فيقولون: ﴿ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [المائدة:109].

ويقول الرسل: «**نفسي نفسي**»[1]، غير رسولنا ﷺ، فإن الرأفة قد احتوشته: أي شملته، والختم أمانه، إذا رفع الختم وأخلط به نور الختم أمن.

وإنما خاطب الرسول ﷺ بقوله: ﴿ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ ﴾ [المائدة:109]. فإنما يحكي عن الرسل، فخاطبه بذلك، وتضطرب أجنحة الملائكة المقرَّبين هذا في الموقف ساعة واحدة لا بد منها؛ لأن هذه نظرة العظمة، ثم ينصرف من الملك سلطانه وجبروته وقهره وغضبه إلى الأعداء، فمن يقدر أن يصف ما يخرج لهم من سلطانه، وتتصرف رحمته بعزِّه وبهائه وفخره وجوده ومجده إلى الأحباب؟ فينال أحبابه من ذلك على قدر حبِّهم له وشغوفهم به أيام الدنيا، واشتياقهم إليه، وتعظيمهم لأمره، ويبرز ما كان من العبد من الانقياد والبذل والتسليم واحتمال المكاره في جنبه، ومراقبتهم إيَّاه، وكثرة ذكرهم له، ونجواهم ودوامهم في طاعته، ووقوفهم عند أحكامه.

حدَّثنا إسماعيل بن نصر، حدَّثنا مسدد البصري، حدَّثنا بشر بن المفضل عن عمر مولى عفرة عن أيوب بن خالد بن صفوان عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن كان يحب أن يعلم منزلته عند الله فلينظر ما الله عنده، فإن الله ينزل العبد من نفسه حيث أنزله العبد من نفسه**»[2].

فهذا ميزانٌ قد جُعل للعبيد في دار الدنيا قبل أن يلقوا ربهم، يزن به قلبه، ويعاير به قلبه وقوله وفعله، وهذا غير العدل، ثم لله تفضل على العبيد بما لا تدركه العقول، طواه

---

(1) جـزء من حديث طويل رواه البخاري في صحيحه في أبواب عدة منها باب قول الله عز وجل «ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه»..، حديث رقم (3162) [1215/3] ورواه مسلم في صحيحه، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، حديث رقم (194) [184/1] ورواه غيره.

(2) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب الدعاء والتكبير..، حديث رقم (1820) [671/1] والطبراني في الأوسط، باب من اسمه إبراهيم، حديث رقم (2501) [67/3] ورواه غيرهما.

عنهم لئلا يفتتنوا.

وأمَّا تقوى النار، فإن النار منتقمة، وللانتقام خُلقت، وكانت بيضاء نيِّرة على خلقتها؛ لأنها من النوريَّة، أرسل عليها سلطانه حتى سوَّدها وحددها ولظاها وحشاها من غضبه، حتى أكل بعضها بعضًا، وكادت تميز من الغيظ، ثم لها في الموقف شررٌ ولهبٌ ودخانٌ وتلظٍ وزفرات وجواز الخلق عليها.

فهذا كله نصرة الحق، فمَن نصر الحق وقي النار وشررها ولهبها ودخانها وحسّها، حتى لا يراها ولا يسمع لها حسًّا، ولا يعلم بالجواز عليها، ويجعلها عليه بردًا وسلامًا.

حدَّثنا عمر بن أبي عمرو العبدي، حدَّثنا سليمان بن حارث، حدَّثنا أبو صالح العتكي غالب بن سليمان عن كثير بن زياد عن أبي سلمة قال:

سألت جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- عن الورود، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الورود الدخول، لا يبقى برٌ ولا فاجرٌ إلا دخلها، فتكون على المؤمنين بردًا وسلامًا كما كانت على إبراهيم عليه السلام حتى إن لجهنم ضجيجًا من بردهم، ثم ينجي الله الذين اتَّقوا، ويذر الظالمين فيها جثيًا**»[1].

حدَّثنا عبد الله الربعي عن منصور بن عمار عن ابن لهيعة عن بشير بن طلحة عن خالد بن يزيد عن يعلى بن منبه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**تقول النار للمؤمن: جز فقد أطفأ نورك لهبي**»[2].

ثم للتقوى من النار حدود ودرجات، فمتى لقي الله بتوحيده، فلا بد أن يبقى على الصراط حتى تمس جوانبه النار إلا أن يعفو الله، وإنما قلنا جوانبه؛ لأن الوجوه الساجدة والأطراف المتوضئة محرَّمة على النار فيما روى لنا في الخبر.

ومتى لقي الله بتوحيده، ووفى توحيده، وهناك تخليط في الباطن، وتضييع وتفريط في الفرائض وهفات، فلا بد أن يصيبه شررها وأهوالها وحسّها إلا أن يعفو الله.

ومتى لقي الله بتوحيده، ووفى توحيده، وهناك تخليط وتفريط وهفات، ولكنه

(1) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، حديث رقم (8744) [630/4] وأحمد في المسند عن جابر بن عبد الله..، حديث رقم (14560) [328/3] ورواه غيرهما.

(2) رواه الطبراني في الكبير، عن خالد بن الدريك عن يعلى، حديث رقم (668) [258/22] والبيهقي في شعب الإيمان، فصل في قوله عز وجل: «فوربك لنحشرهم والشياطين..»، حديث رقم (375) [339/1] ورواه غيرهما.

لقيه مستورًا بما تاب وندم، وجاهل في ذات أيام الله أيام الحياة الدنيا، فستره وعفا عنه في الدنيا حتى لقيه صادقًا مستورًا، فجوازه على الصراط مع ستره، فوقي شررها ولهبها وزفرتها وحسها ورؤيتها.

ومتى لقي الله بتوحيده، ووفَّى توحيده، وقد كان هناك تخليط وتفريط وتضييع وهفات، فتاب وندم، فاجتباه ربُّه بمشيئته، فأحبَّه ربه، فأحرق حبه لعبده تخليطه وتفريطه وتضييعه وهفاته، فلقيه مع حبُّه، ومع شوق العبد إليه، فبدَّله مكان كل سيئة حسنة. وهاهنا قول الشعبي- رحمه الله -: إذا أحبَّ الله عبدًا لم يضره ذنبه.

حدَّثنا بذلك عبد الله بن الوشاح اللؤلؤي الكوفي، حدَّثنا يحيى بن اليمان عن عاصم عن الشعبي قال: «التائب من الذنب كمَن لا ذنب له، وإذا أحبَّ الله عبدًا لم يضره ذنبه».

وهذا الذي وصفه أبو هريرة في حديثه في قوله: ﴿ فَأُوْلَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ ﴾ [الفرقان:70]، قال: يتمنَّى العبد يومئذٍ أنه قد استكثر من السيئات.

حدَّثنا بذلك الفضل بن محمد، حدَّثنا العباس بن الوليد الدمشقي، حدَّثنا هشام بن عمار، حدَّثنا سليمان بن موسى عن أبي العنبر عن أبيه عن أبي هريرة قال: **«ليأتين ناس يوم القيامة ودُّوا أنهم استكثروا من السيئات»**، قيل: من هم يا أبا هريرة؟ قال: **«الذين يبدِّل الله سيئاتهم حسنات، قال: حتى يتمنى العبد أن ذنوبه كانت أكثر مما هي»**[1].

حدَّثنا محمد بن محمد بن حسين، حدَّثنا عمران بن سعيد الدمشقي، حدَّثنا سعيد بن عبد العزيز عن مكحول في قوله: ﴿ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ ﴾ [الفرقان: 70]. قال: إذا تابوا جعل الله ما عملوا من سيئاتهم حسنات.

حدَّثنا عمر بن أبي عمر، حدثنا نعيم بن حماد عن الفضل عن الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبي ذر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه واخبئوا كبارها، فيعرض عليه صغارها ويخبأ كبارها،

(1) أورده السيوطي في الدر المنثور، وعزاه إلى عبد بن حميد عن عمرو بن ميمون [281/6] وقوله تعالى: «والذين لا يدعون مع الله إله آخر..» وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة.

فيقال: عملت كذا يوم كذا، وكذا يوم كذا، [فتبدل] كل سيئة عملها حسنة، فيقول: إن لي ذنوبًا ما أراها هاهنا، فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه»[1].

ورُوي في الخبر أن إبراهيم خليل الله ﷺ قال: يا كريم العفو! فلقيه جبريل عليه السلام، فقال: يا إبراهيم هل تدري ما كريم العفو؟ قال: أخبرني يا جبريل، قال: إنه لم يرضَ بالعفو من السيئة حتى أبدله مكان كل سيئة حسنة.

وهذا أمرٌ غامض دقيق لا يعرفه إلا العارفون، أعني قوله: يتمنى أنه قد استكثر من السيئات، والسيئات ليست من محبوب الله، فهذا كأنه يستحيل في معقول الصادقين، ففزعوا من هذا القول إلى أن ردوه، وتأوَّلوا أن هذا التبديل في الدنيا، وإنما استحال عنده؛ لأنه نظر إلى تدبير الله الذي وصفه فيما بينه وبين العباد أن السيئات مهجورة قبيحة، ولصاحبها الفرار منها يوم القيامة، والحياء من الله - سبحانه وتعالى - فكيف يتمنى أنه قد استكثر منها؟ فتأوَّلوا التبديل مكان الشرك توحيدًا، ومكان المعصية طاعة، فهذا تأويلٌ بعيد ذو اضطراب.

ومن مثاله في هذا الباب أنه إذا تاب صار هكذا، وقد قال في الآية الكريمة: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا ﴾ [الفرقان:70]، فهذا فعل العبد.

ثم قال: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ﴾ [الفرقان:70]، فالتبديل فعل الله بالعبد بعد التوبة والعمل الصالح، فمن أصغى سمعه إلى هذا التأويل فاته حلاوة ما في الآية من عظيم صنعه بالعبد، وإنما يصفُ الكريم مجده حتى يعرفه العباد بالمجد والجود، فيرمون بأنفسهم إليه بدلاً.

فهكذا يكون تفسير: ﴿ مَن تَابَ ﴾: منزلته من الله، فهو من المعارف لا من الأحباب ونحن نقول بلسان الأعجمية: لمثل هد إين: إنسان، است اود وره دورست: هم باري، إن هذا منزلته من ربِّه من المعارف لا من الخلطاء وأهل الأسرار، فصاحب هذا خلص إلى المقادير، فطالعها بقلبه، يعني: ليس من المعارف الذي يباسط في المداعبة والملاعبة ثم يخطئ إلى البدء ومن قِبل المقادير.

فمن هناك عرف الحسنات والسيئات، وإنما صارت السيئات ذات حشمة بعد أن

---

(1) رواه ابن السري في الزهد، باب الخروج من النار، حديث رقم (211) [155/1].

صارت سيئات في المقادير حتى ظهرت النفوس، فأعرضت عن الله، وأقبلت على شهواتها ألا ترى أنهم إذا صاروا إلى الجنة حاضره الله في محاسنته محاضرة.

فقال ﷺ: «**أتذكر غدرتك وفجرتك يوم كذا؟**»[1]، فلا يحتشم العبد من ذكرها في الجنة، صار أمر العباد إلى الأمر الذي كان في البدء قبل المقادير؛ لأن المقادير وقت الابتداء والعبودة، فلما انتهى الابتلاء منتهاه، وزالت العبودة، عاد الأمر إلى منتهاه، وانكشف سرُّ القدر الذي طواه عنهم أيام الدنيا، فكذلك تمنى العبد أنه كان استكثر من السيئات، وإنما طوى الله علم القدر عن الأنبياء والرسل فمن دونهم، وعن الملائكة لئلا يفتتنوا، وذلك علمٌ استأثر الله به رحمة على عباده، فكان من عظيم منَّة الله عليهم في الدنيا أن طواها عنهم، ومِن عظيم منَّته عليهم في الآخرة أن يسترها عليهم، وأن سرَّ القدر جَهار الإيمان، فتبحبح أهل الجنة في خبائهم مع ذكر ما كان في حشو الدنيا من العجائب بسرِّ القدر قد سقطت الحشمة عنهم، ومَثل ذلك مَثل رجل له ولد وهو به ضنين، وبه معجب، وعليه مُشفق، قد أعدَّ له في خزائنه ما لا يحتمله اليوم لصباه وضعف عقله، فهو يدر عليه من الرزق ما يصلح به على قدر احتماله، ولو بسط عليه لأفسده، وقدَّره فهو يقدِّر ذلك عليه تقديرًا، حتى إذا أدرك مدرك الرجال واحتمل الكل حد أبيه زوَّجه، ثم جهزه من خزائنه التي أعدَّ له، فكان محتملاً لذلك، وقبل ذلك كان لا يأمن أن يفسده ويضيعه، فكذلك المؤمنون في الدنيا لا يحتملون كل أخبارهم التي طوى عنهم ولو أخبروا لافتتنوا فإذا صاروا إلى الآخرة قووا على احتمالها، فدخلوا الجنة مع الإيمان، وجهاز الإيمان.

ولهذا رُوي في الخبر: «**إن لله سرًّا لا يعلمه أحد ولو أفشاه لفسد الخلق، وللأنبياء – صلوات الله وسلامه عليهم – سرًّا لو أفشوه لفسدت النبوَّة، وللعلماء سرًّا لو أفشوه لفسد العامة، وللملوك سرًّا لو أفشوه لفسد ملكهم**»[2]، قال: حدَّثنا بذلك الفضل بن محمد عن سفيان بن عيينة.

ولهذا رُوي عن الشعبي عن عكرمة أنه سُئل عن الحروف المقطَّعة نحو: «كهيعص» و«يس» و«حم» و«طه» و«طس» و«ق»، وما أشبه ذلك فقال: هن من

---

(1) رواه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول في مرتبة روح المؤمن [101/1].

(2) أورده الحكيم الترمذي في نوادر الأصول، في ما يعدونه صدق الحديث، [234/1].

الصوافي. وهذا علم الرسل فمن دونهم من المحدثين، فأمَّا غيرهم فهم عجزة عن إدراك ذلـــك، وأمَّـــا تقـــوى الأرحـــام فـــتقواها مـــن القطـــيعة، والرحم مأخوذة من اسم الرحمن.

ورُوي عن ابن عباس ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لما خَلق الله الرحم قامت فأخذت بحقوي الرحمن، واستعاذت من القطيعة، فقال لها: خلقتك بيدي، وشققت لك من اسمي اسمًا، وهذا مكانك مني، لأصلنَّ مَن وَصلكِ، ولأقطعنَّ مَن قَطعك**»[1].

حدَّثنا بذلك الفضل بن محمد عن محمد بن زياد اليشكري عن ميمون بن مهران عن ابن عباس - ﷺ - عن رسول الله ﷺ وبعضه قتيبة بن سعيد عن جابر بن إسماعيل عن معاوية بن أبي مرود عن أبيه عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ، وجرير بن أبي سنان عن سهل بن أسد عن كعب قال: «**الرحم شجنة في منكب الرحمن، فمَن وصلها وصله، ومَن قطعها قطعه**»[2].

فالرحم أصله من الرحمة، وهو سببٌ بين الرب وبين العباد، فهذه ثلاثة أسباب: الوصلة سبب منها المعرفة، وسببٌ ثان العهد، وسببٌ ثالث الرحم، فبالمعرفة يتآخون، وبالعهد يتعاملون، وبالرحم يتواصلون.

ورُوي عن موسى ﷺ أنه قال: يا رب أوصيتني بصلة الرحم، فكيف بمن تباعد مني أرحامه في مشارق الأرض ومغاربها، قال: يا موسى أحب لهم ما تحب لنفسك.

فمن بلغ هذه المرتبة فقد صحَّت معاملته، وصحَّت معرفته، ألا ترى قول رسول الله ﷺ: «**يا أبا هريرة أحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمنًا**».

فهذا ميزانٌ به توزن العبودة، وذلك أن الله - تبارك اسمه - جعل بعض عبيده في الرقِّ ملكا لك حجة عليك، ووضع في نفسك السهو حجة عليك، ثم صيَّر العبودة في هذين.

---

(1) روى نحـــوه الطـــبراني في الأوســـط، ذكر من اسمه هاشم، حديث رقم (9317) [126/9] وأورده الحكيم الترمذي في نوادر الأصول، في الثلاثة التي تحت العرش [188/2].

(2) روى نحـــوه البخاري في صحيحه، باب من وصل وصله الله، حديث رقم (2 - 5643) [5/ 2232] وروى نحوه ابن حبان في صحيحه، ذكر تشكي الرحم إلى الله جل وعلا..، حديث رقم (2 - 3 - 444) [5/2 - 186].

فانظر ما الذي تقتضي من عبدك، كيف يريد أن يكون لك؟ يكن لمولاك مثل عبدك لك، فانظر ما الذي تحب لنفسك فأحب لخلقه مثل ذلك، فقد انتظم هذان جميع العبودة، وأن الله تبارك اسمه اتَّخذ من أجل العباد كسوة، ولا حاجة له إلى الكسوة، فالرحمة قَميصه والعزُّ إزاره؛ فهذا منُّه للعباد، ثم أرسل القميص من جوانب عرشه، وخلق منه الرحمة، فوضعها في الجسد، فمَن وصلها فإنما يتَّصل بالقميص، ومَن قطعها انقطع ذلك من القميص، وكذلك كان كعب يخرج على مَن جلس إليه وهو قاطعٌ لرحمه، ويذكر عن التوراة.

وكذلك رُوي عن رسول الله ﷺ: «**إن الرحمة لا تنزل على قومٍ فيهم قاطع رحم**»[1].

وكان يكره أن يحرم القوم نزول الرحمة من أجل ذلك القاطع، والرب اسمه، والله اسمه والرحم منه بدا، والنار من نوره بدت، واليوم من كلمته: ﴿كن﴾، وتلك كلمة سلطان لا تشبه الكلمات المتقدمات من قوله؛ لأن قوله: ﴿كن﴾ فيما مضى، كلمة قُدرة وربوبيَّة وهذه الكلمة كلمة قُدرة وسلطان.

ألا ترى أنه قال: ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝ ﴾ [القمر:50]، وهو قوله: ﴿كن﴾، ثم قال في ذكر الساعة: ﴿ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ [النحل:77] أي: أقرب من لمح البصر، لا كلمة زجرة وسلطان.

ألا ترى إلى قوله: ﴿ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ۝ ﴾ [الصافات:19] كأنما خلق ذلك اليوم بكلمته، وهي كلمة سلطان وزجرة، ندب العباد إلى أن يتَّقوا هذه الأسماء الخمسة، فيجعلوا أنفسهم في وقاية من ذلك، فإنه وضع في كل اسم منها إذا برز لم يقم له، والتقوى أصله، وقوي لأنه من وقي يقي وقاية.

فصيَّروا عند الافتعال الواو تاء فقيل: تقوى، وإنما هو: أوتقى يوتقي، فأدغمت الواو في التاء.

---

(1) رواه البخاري في الأدب المفرد، باب لا تنزل الرحمة..، حديث رقم (63) [36/1] ورواه غيرهما. رواه البيهقي في شعب الإيمان، السادس والخمسون من شعب الإيمان، حديث رقم (7962) [223/6].

مسألة:

قال أبو عبد الله – رحمه الله– : سألت هل للمستقيم حب المعصية في أوقات؟ أو هل يطلب الورع والمتقي المعصية؟

فاعلم أن الآدمي له قلب ونفس، فالقلب معدن الإيمان، والنفس معدن الشهوات، وبينهما ساحة واسعة اسمها الصدر؛ لأن الأمور منه تنصدر إلى الأركان، فللقلب في هذه الساحة باب، وللنفس فيها باب، فمن هذا الباب يفور نور الإيمان وإشراقه في الصدر، ومن هذا الباب يفور نار الشهوات ودخانها في الصدر، فيجتمعان في الصدر، فإذا كان الغالب على هذا الصدر إشراق النور ظهرت الطاعة على الأركان، وإن كان الغالب في هذا الصدر دخان نار الشهوات ظهرت المعصية على الأركان.

فهذه قصةُ القلب والنفس، فإذا آمن العبد فإنما يؤمن بقلبٍ ونفسٍ قد ولج فيها نور التوحيد، فاستقام القلب والنفس لله موحدًا قد عزم القلب على الطاعة، واجتمعت النفس على الطاعة، فلزمه اسم الإيمان والإسلام في وقتٍ واحد؛ لأنه اطمأنَّ بقلبه إلى الله، فهو مؤمن، وسلَّم نفسه إليه في الطاعة فهو مسلمٌ، ولمْ يبقَ في النفس شهوة الشرك، وبقي سائر الشهوات، وبالشهوة عبد المشركون الوثن، واتخذوه شريكًا لله، تعالى الله عن ذلك.

فهذا العبدُ المؤمن لما جاءه نور الهداية، جامع نور المحبة مع نور العقل، فهداه حتى وحَّد ربَّه وأحبَّه بنور المحبة، وزيَّن العقل ذلك في قلبه.

فإنما قبلت النفس التوحيد بما زين لها العقل ذلك، فذلك قوله –تعالى –: ﴿ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ ﴾ [الحجرات:7، 8]، من الحكمة فضلُها لآخِرها فهذا العبد بالرغبة والمحبة ترك شهوة الشرك، وبنور التوحيد وحَّد، فاطمأن القلب إليه والنفس جميعا، فلمَّا جاء الأمر والنهي وجدت النفس شهواتها عاجلا خلا الشرك، فامتحن العبد بأن حرَّم عليه بعض ما في النفس من كل شهوة، ليظهر ما في قلبه من صِدق الإيمان فيثاب ويعاقب، فيكون عذرًا لله في القيامة في ثوابه وعقابه ظاهرًا.

فليس على العبد تبعة ولا لوم في الشهوة؛ لأنها مركَّبة فيه، ففيه شهوة النساء، وشهوة المأكول والمشروب والملبوس والمركوب، وإنما حرَّم عليه أن يتناولها من

وجهٍ، كرجلٍ وقع نظره على امرأة أو على طعامٍ فاشتهاه ليأكله، فحُرِّم عليه تناولها إلا من وجه نكاح، وأبيح له بالنكاح، وحرم عليه إلا من وجه الملك، فهذه الشهوة لا يقال لها معصية ولا طاعة، إنما هي تركيبٌ في العبد، إذا تناول تلك الشهوة من الوجه الذي أُطلق له فهو مطيعٌ، فإذا تناولها من الوجه الذي لم يطلق له فهو عاصٍ، وليس قصده في ذلك الوقت المعصية، إنما قصده تناول الشهوة وقضاء المنيَّة، وهو في ذلك مكرَّر عليه لما يتردد في صدره من الخوف، وقلبه يضطرب من الخطر العظيم الذي يركبه، ولكن للشهوة الغالبة والقدر المقدور والقضاء المبرم؛ تظهر الغلبة للنفس على القلب، فيصدر ذلك بعزيمة من القلب، فيظهر على الأركان، فيصير عاصيًا في ذلك الوقت، وهذا في عداد المستقيمين؛ لأنه في عامة الأوقات الغالب في صدره إشراق نور الإيمان.

مسألة في شرح قوله:

«الخشية من العلم بالله، والخوف من المشاهدة».

قال أبو عبد الله – رحمه الله –: الخشية من العلم، والخوف من المشاهدة، فالخشية ممزوجة، والمشاهدة منصوصة، وذلك أن المشاهدة لقاء العظمة، فالخوف كل الخوف من العظمة، والعلم بالله يؤدِّيك إلى السلطان، وكما يؤدِّيك إلى السلطان يؤدِّيك إلى الرحمة، ويؤدِّيك إلى الجلال، وكما يؤدِّيك إلى الجلال يؤدِّيك إلى الجمال، ويؤدِّيك إلى العزِّ والكبرياء، وكما يؤدِّيك إلى الكبرياء يؤدِّيك إلى الكرم، ويؤدِّيك إلى الخطر العظيم من مكره، وإلى هول المشيئة.

وكما يؤدِّيك إلى ذلك يؤدِّيك إلى الجود، ويؤدِّيك إلى الهيبة، وكما يؤدِّيك إلى الهيبة يؤدِّيك إلى المحبة والأنس، فلذلك قلنا: إن الخشية ممزوجة؛ لأن الخشية من العلم بالله.

وكذلك قال في تنزيله: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر:28]، ثم قال على إثرها: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر:28]، لعلمك أن العلماء بالله يخشون الله بعلمهم بالله أنه جليل، فيخشون جلاله، ثم يمازج الخشية علمهم بالله أنه عزيزٌ غفور، وذلك أن العزيز يأنف أن يخيِّب مَن يأمله، أو يَرد سائله، أو يُوئيس راجيه، والعزيز يَعطي ولا يبالي من العطيَّة، ويَعطي مَن يستحق ولا يستحق.

وكذلك تجد في عبيده أوفرهم حظًا من العزِّ أجودهم يدًا بالعطية، وأقلُّهم مبالاة

بما يعطي لغيره، وعلوِّه وارتفاع قَدره، ويأنف من الشيء التافه أن يعطى.

وكذلك قال: يا موسى ثوابي على قدر عظمتي، فقال في تنزيله في تلك الآية: إن الخشية للعلماء، ثم قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر:28].

ورأى أن العلماء إذا لاحظوا جلالي خشوني، فإذا لاحظوا عزِّي وفخري ومجدي ورأفتي وسعة مغفرتي وفسح رجائي وعفوي؛ دخلت الخشية ممازجة عملهم بهذه الأشياء، فحقق الخشية.

وأمَّا الخوف فمن المشاهدة، فإذا شهدوا العظمة ذهبت هذه العلوم، ووقفوا في بحر العظمة، فمثلهم كمثل رجل كان في أنهار، فقطع تلك الأنهار إلى البحر، فهو في تلك الأنهار على اختلاف الأحوال من الأُنس والوحشة، فإذا وقع في البحر ذهب علم الأنهار وأخذه هول البحر، والأنهار شعب البحر، فراكب الأنهار كلما تخلله وحشة من مشقة من هذه الأنهار أنسته أخرى، فإذا صار إلى البحر طمَّ هول البحر على الجميع، وذهب بالأُنس والوحشة، وصارت كلها أهوالاً؛ لأن الأنهار منها نهرٌ ساكن لين، ونهرٌ جرَّار ينصب من الصخور والأحجار، فتراه يسير ويجري وثابًا واستنانًا، فصاحبه في وحشةٍ منه وخوف، فإذا وقع في نهر ساكن لين اطمأنَّ وسكن وأنس به، فإذا صار إلى البحر هاله، وأخذ بمجامع قلبه، وصار معلق القلب.

فكذلك صاحب الخوف معلَّق القلب بمشيئته؛ لأنه في بحر العظمة وهول المشيئة، ماذا يخرج من عظمته؟ وماذا يرون من مشيئته؟ فصاحب الخشية منبسط متجمِّل، وصاحب الخوف منقبض وسط الخوف، فالخشية تحول بينه وبين المعاصي، وحركاتها في الباطن نائمة، وتطلع رؤوسها، أعني: تلك الشهوات، والخوف يُيبس رطوبة تلك الشهوات وحياة النفس في الباطن، فتُيبس الشهوات، تصير النفس خاشعة كأنها لبدة حلقة ملقاة، لا تكاد تفيق.

فالخوف للرسل والأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - والخشية للصدِّيقين، ومَثلُ العامة المستورين في الخشية كمثل رجلٍ دخل مرجًا له طول وعرض على شاطئ وادٍ، فقد عَلمَ يقينًا أن فيه أسدًا، فهو يسير في ذلك المرج عرضًا وطولاً مع الأمن، وربما اعتراه خوفٌ قليل إذا ذكر الأسد، وقد علم أن فيه أسدًا، ولكن لسعة هذا المرج وعظم مسافته يخيَّل إليه أنه إذا ذكره أنه منه بعيد، وإذا وجد خبر البعد اطمأنَّت النفس، فتخطَّى في ذلك المرج يمينًا وشمالاً على طمأنينة النفس، وأُنسه بتلك الحوائج،

فإذا وقع على أثرِ طري مخالبه في ذلك المرج، هاجت منه وحشة تحول بينه وبين التخطِّي يمينًا وشمالاً، ولكنه يعود إلى الطريق العامة المسلوكة، فإذا عاود الطريق أمن، رجعت تلك الخشية لعلمه بأنه لا يخرج إلى الطريق العام إلا القليل، وأنه أكثر ما يكون في موطنه المعلوم، وقلَّ ما يخرج إلى الطريق فإذا خرج إلى الطريق قلَّ ما يُؤذى إلا أن يتعرَّض له في هذا، لما رأى أثره الطري، هاجت الخشية منه، فترك الجولان هناك، وعاود الطريق، فلزمه سلوكًا، واطمأنت نفسه بتلك السبيل فاستقبله الأسد، ووقف له مترصِّدًا، فقد جاءت المشاهدة.

فهذا الخوف كائنٌ هاهنا؛ لأنه وقف على طريقه، فمثل صاحب الخشية كمن رأى مخالب الأسد، ولقيه واقفًا على الطريق، وهو قوله – تعالى –: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝ ﴾ [الفجر:14].

مسألة:

قال أبو عبد الله رحمه الله: وجدت الروح ملتقيًا منفشًا في جميع الجسد من القرن إلى الظفر، فإن أصابت الجسد علة من وجعٍ وتغيرٍ وانتقاصٍ، اشتغل الروح بذلك؛ لأنه ضاق عليه ذلك المكان؛ لأنه منفش في جميع الجسد، فإذا نكب الجسد في موضعٍ ظاهرًا كان أو باطنًا على الروح تمكَّن من ذلك المكان، فاشتغل، فإذا وجدت النفس ألم تلك النكبة شغلت النفس القلب، فالقلب والروح يدعوان إلى الطاعة، والنفس تدعو إلى الشهوات، فإن اشتغل الروح والقلب عن النظر إلى العقل ماذا يُومئ؟ وإلى أين يسير؟ وعلى أي شيء يدل؟ وماذا يزين ويبصر ويعرف؟.

بقي العقل معطلاً، فيحتاج العبد إلى الحب، فإن للحب حلاوة، وللحلاوة فرح، فإذا خلص إلى القلب والروح هذا الشغل يخلص من ذلك الشغل بحلاوة الفرح، فبالفرح ينبسط له القلب ويتقوَّى وينبعث ويتنشَّط، وبالفرح يضعف ويذبل وينقبض، وبالحلاوة تذهب مرارة الألم من النفس، والعبد مخرجه من معرفة العبد ربه وعلمه به، وإذا علمه وعرفه استنار العلم بما في قلبه من الحب له، وذلك حب الإيمان حتى يأتيه المدد من الله من حبِّه الذي أعدَّه لأوليائه وأحبابه، فيمدُّ ذلك الحب من حبِّه حتى يتصل به، فإذا نكب العبد نكبة، فتخلص إليه ألمها وشغله، فرجع إلى معرفته، فعلم أن ذلك كان في علمه السابق ومشيئته التي سبقت خلقه، فإن هذا العلم في هيجه وألمه لا يجد شيئًا؛ لأن معرفته بعلمه ومشيئته هي معرفة تؤدِّي إلى العظمة، والعظمة تقهر،

فإذا قهر الروح والقلب ذبلا واختضعا، وفي النفس مرارات، وفي الروح شغل، فإذا نال حبه صار على ما وصفنا، فاستراح.

فأيَّد الله تعالى الأنبياء صلواته وسلامه عليهم والأولياء بهذا الحب، حتى صفت لهم العبودية، وجروا في ميدان المشيئة على الجود، والسماحة، وبذل النفس، وهشاشة الروح، وبشاشة القلب.

مسألة:

قال أبو عبد الله رحمه الله: خلق الله الآدمي، وخلق في جوفه بضعة من لحم سمَّاها قلبًا لتقلُّبه، وجعله أميرًا على الجوارح، ووضع في القلب معرفته والعلم به، فوكَّل القلب بحفظ الجوارح، وتوكَّل هو بحفظ القلب وإمساكه، ولم يكله إلى أحد، فهو مُقلِّب القلوب على مشيئته، ووكَّل به العقل، ووضع في العقل المعرفة والعلمَ بالله، وجعل بطنه في معدن الشهوات، ووضع فيه الشهوة للأشياء، ووكَّل به الهوى، ووضع الهوى في ظلمة الجهل بالله، والعقل بما فيه من المعرفة بالله والعلم بالله يسوق قلبك إلى الله، والهوى يدعو نفسك إلى الشهوات الفانية، وإنما هما ريحان، في كل واحدةٍ منها حياة، إحداهما سماوية والأخرى أرضية، واسم إحداهما الروح، والأخرى النفس، ومسكن الروح في الرأس، وهو منفش في جميع الجسد، ومسكن النفس في البطن، ثم هو منفش في جميع الجسد، فإذا نام خرجت النفس فعرجت إلى الله، وبقي الروح في القلب، وأصل النفس موثقة بالروح، فهي تغط ولا تقدر أن تخرج أصلاً حتى لا يبقى شيء، فغطيط النائم من أجل ذلك، فإذا بعدت مسافتها وعلت سكن الغطيط، وذهبت الحركات، وهدأت الجوارح كأنه مات، وذلك لقلة ما بقي من النفس في الجسد، ولم يبقَ إلا الوثاق، وخرج علمها.

وذلك قوله – تعالى –: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ [الزمر:42]، فأعلمَ العباد أن هذا القلب أمري، وكنوزي فيه، وعهدي عنده، وجودي حوله، وأعطيته من جميع الأحشاء عينين على فؤاده في صدره، وجعلت صدره مجلس التدبير والقضاء والحكم، وفصل ما بين الحق والباطل من الأمور، وجعلت له سمعًا يعي عني كلامي الذي خاطبته به، وبصرًا في عينيه يصير له باطن الأمور معاينة، وغائب الأوقات مشاهدة، وفي ذلك البصر نوري، وفي ذلك السمع نور حياتي، وجعلت له همًا يهم، فهمه أن يهيم على وجهه في طلبي حتى يجدني، فإذا وجدني كان لي وكنت

له، فإذا نال هذا الحظ قوي على أمره وأدبِ الرغبة، وأقام فيهم حدودي من الأمر والنهي، ووضع كل شيء من أمري وخلقي وتدبيري في موضعه، وضبط المملكة والرعاية بهذا الهم، فالغنى كل الغنى له، والسرور كل السرور له يوم يَقدم على ربِّه، والفرح كل الفرح له يوم يلقاني، والشفاء كل الشفاء له يوم يراني، ومَن جعل همَّ قلبه همين، فمرة يهتم إليَّ، ومرة يهتم إلى نفسه، ثم من نفسه تتشعب هموم لا تحصى، وكل همٍّ من تلك الهموم له حلاوة وشهوة ولذة فقد ذهب عني، وسببه حلاوة الهموم.

فالهمُّ من الهيمان، أن يَهيم هكذا وهكذا، وإنما هو «هَامَ»، و«همَّ»، أدغم الألف في الميم فشدده، فهيَمَان القلب بوجهه إلى ربِّه، والقلب بضعة من لحم، بمكانها لا تبرح، ولكن وضع فيه نور المعرفة ونور العلم ونور العهد ونور الحياة بالله، فبنور الحياة بالله علمت هذه الأنوار الثلاثة، فصارت هذه الأنوار في جوف الحفظ، وسبب الحفظ الإذن من ولي الواضع لهذا، وهو الله ﷻ، فإذا أذن أبرز الحفظ من وعائه هذه الأنوار التي قد تضمنها، فإذا أبرزها ذلك العبد.

فهاهنا في هذا الموضع ذكر العبد الله به، بذلك الذكر سيَّر القلب إلى ربِّه، بنور العقل والعلم والمعرفة، ونور الحياة مركز هذا الذكر إلى أن اتَّصل بالله، فكل ذكر قوَّته على قدر حظه من نور الحياة، وأوفرهم حظًا من ذلك النور أقواهم سيرًا وترقيًا إلى الله في الدرجات وأقواهم وسيلة، فذاكرٌ يصعد ذكره إلى السماء ثم يعجز فيبقى هناك، وذاكرٌ يصعد ذكره إلى العرش ثم يعجز، وذاكرٌ يصعد ذكره إلى الحجب ثم يعجز، وذاكرٌ يصعد ذكره ثم يلج الباب، فيسلخ في نور الحجب مَلكًا مَلكًا، حتى يصير المرعى بين يدي الله ﷻ، فهذا كله بنور الحياة الذي أعطاه ربه من الحشمة، فهذا سير القلوب إلى الله ﷻ.

فأمَّا البضعة فمسكنها في الجوف، والذي فيها من هذه الأنوار منسوب إليه، فيسمَّى كله قلبًا، كما سمِّي الإنسان إنسانًا للإنسية التي فيه، وسمِّي الآدمي آدميًا بالأدمة التي فيه، وهي الوصلة، فإنه خلقه بيده، ومنه سمِّي الإدام في الطعام إدامًا؛ لأنه يضمّه إلى الطعام حتى حلاه به وطيبه، فيسمَّى إدامًا ولحما، وسمِّي حيًّا بحياة القلب، غير حياة الروح، وحياة الروح غير حياة النفس.

فالقلب سمِّي قلبًا لتقلُّبه، وإنما يقلبه مقلبه هكذا وهكذا من أجل الخدمة؛ لأن الخدمة ألوان، وسائر الأشياء شجرة، فالشجرة راسخة لا تزول، ومَن خلقه للخدمة

صيَّره ذا قلب؛ لأنه خلقه بمشيئته لنفسه، وسبقت مشيئته فيه ألوانًا، فإنما تقلُّبه بمشيئاته لينظر هل يمضي هذا العبد مع مشيئاته مسرعًا؟ من السرعة كأنه يبادر إرادته محبًّا له ومشغوفًا به، فإذا بدت له مشيئة في أمرٍ نسبي الأمر؛ لحلاوة حب مشيئته، ونسي نفسه، فهو يسعى مع مشيئته في تلك الأمور ركضًا وطيرانًا، يتلمَّظ حلاوته بالشفتين، وإن كانت نفسه تنقطع فيه، وحرفيَّته تذهب، وعمره يفنى ولا يمضي، فيتردد، ويتثاقل بعمله على عبوسٍ وتردُّد واسترخاء الشفة في ذلك الأمر، وينظر إلى حكم العزيز الماجد نظرًا شزرًا، كالبعير النافر الذي لم يألف مالكه، فخلقنا خلق عجيب لا يشبه أحدًا؛ لأنه خَلقنا لحبِّه لنا وفرحه بنا.

ومَن خُلق لهذا اقتضى منه الخدمة والكون بين يديه؛ لاختلاف المشيئات التي لخالقها عليك، ويجريها لك لا نسبة بعضها بعضًا، فلما خلقك من الخلق كذلك خلق الإبل، وسائر الخلق يعودون إلى الأصول التي منها خُلقوا، فمَن خُلق من التراب عاد ترابًا مثل البهائم والطيور، ومَن خُلق من النار مثل الشمس والقمر عاد إلى النار التي منها خُلق، ويبقى الآدمي في أبديته.

فمَن خدمه فهم خير البرية، هم جنات عدنٍ خالدين فيها أبدًا ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ [المائدة:119] ومَن أبقَ من الخدمة فهم شرُّ البرية في جهنم خالدين فيها، كما أنبأنا الله تعالى في تنزيله، فوفارة الخدمة ربما فيها حسب طاقته للآدمي أن يمضي قلبه مع مشيئات الله تعالى في جميع الأمور والأحوال في كل الأوقات، راضيًا عن الله، لا يشاء إلا ما شاء الله، فقد افتقدت مشيئة نفسه بمشيئة الله ﷻ؛ لأنه كان للعبد مشيئة شهوانية حلوة، فلمَّا جاءت مشيئة الله وجد في قلبه حبًّا لمولاه قد شغف، وأخذ بمجامع قلبه حلاوة ذلك الحب فلم نجد لحلاوة مشيئة القلب مساغًا في القلب؛ لأن حلاوة مشيئة الله قد أخذت قلبه فملأته، فلم يبقَ لحلاوة حبِّ الشهوات موضعًا، فتلاشت في جنب حلاوة الحب، فنحن محبُون، والله وسائر الخلق محبوب إليه جبرهم للتسخير لنا، ولا مشيئة فيهم، خُلقنا لحبِّه، وخَلق سائر خلقه لجبره، فقاموا كلهم في جبره لا يزولون، وخُلقنا فقمنا في حبِّه، فصار الحب قيامتنا.

وفي الحــبِّ الفرح والحلاوة والحياء، وهذه الأشياء حشو الحب، وكان من تدبيره فيـنا أن خلق النار، وخلق ببابها زينة وأفراحًا، وتلك الحمرة فيها، وهي من الشيطان، والــشيطان خلـــق منه الموت، فكذلك صارت هذه الأفراح التي في الشهوات تُميت

القلب إذا كان صاحبها في غفلة عن الله ﷻ، فوضع في الآدميين من تلك الزينة والأفراح التي حفت النار بها، وهو قول رسول الله ﷺ: «حفت النار بالشهوات»[1].

فوجدنا أجسادنا موضوعة بين حبين وفرحين، فرح بالله وحب له، وفرحٌ بالنفس وحب لها، ومعدن هذا الفرح بالله والحب له في القلب، ومعدن الفرح بالنفس وشهواتها والفرح بها في الجوف، وكلاهما والفرح به، إلا أن الفرح بالله والحب له أصله من الله باب الدار؛ لينظر أيهما يستعمل العبد، ويميل إليه، إلى الحب إليه والفرح به، فيعمل لدار السلام بطاعة الله في أمره ونهيه وقطع علائقه، أو يميل إلى الفرح الذي بباب النار من الأفراح والزينة، فيعمل لنفسه حتى يغلب ذلك على قلبه، فيتعدَّى الحدود، ويضيِّع الفرائض، ويعمل بالهوى.

فهاهنا وقعت المجاهدة يعني: النفس والقلب، فالقلب مائلٌ إلى أفراح القلب والحب، والنفس مائلة إلى أفراح الشهوات والحب لها.

فالعمل والعلم والمعرفة والفهم والكياسة والذهن والقلب والهوى والشهوات والأفراح والزينة جنود النفس، فمَن ترك المجاهدة ذهبت النفس بالقلب وأسرَته، فلا له أمرٌ ولا نهيٌ، وصار جوفه بلدة من بلاد العدو، ومَن جاهد بقلبه حتى أسر النفس، صار الأمر والنهي للقلب، وبرزت جنوده، وظهر سلطانه، وصَفت إمرته، فإذا بلغ هذا المبلغ فهو من الذين نفيت عنه العلائق والأدناس، وقد خرج من الأوساخ والأدران؛ وهي المعاصي، وقد كان قبل ذلك خرج من الأوساخ والأرجاس والأنجاس، وهي الشرك والكفر، فبقيت الأدناس، فإذا قطع العلائق ذهبت الأدناس، وبقيت الغيوم الحاجبة له عن الله، فهو الآن يسارق الله بقلبه، فتلك الغيوم من البارقة، والآدمي من قبل أن يؤمن بالله بعيد من الله؛ لأنه مع هذه الأشياء، فإذا أمنَ وتبرى خرج من الأرجاس والأنجاس، ثم من بعد ذلك إذا انتهى عن المعاصي، خرج من الأوساخ والأدران، ثم إذا قطع العلائق خرج من الأدناس، وبقيت الغيوم. قال له قائل: وما تلك الغيوم التي ذكرت أنها محجبة عن الله؟ قال: الالتفات إلى النفس في عطية الله ﷻ إيَّاه، والمشيئات التي تلاحظ بها مشيئة عقله، ونفاذ أمره.

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة..، حديث رقم (2822) [2174/4] والترمذي في سننه، باب ما جاء حفت الجنة بالمكاره..، حديث رقم (2559) [693/4] ورواه غيرهما.

وهل لعبدٍ مشيئة وهو يعلم أن مشيئته ناسخة لجميع المشيئات، وأن المشيئات كلها تتعطل، وتصير هدرًا لما برز من مشيئة الله- تعالى- التي شاء ثم قدر ثم شاء [ثم] أمضاه؟.

فتلك المشيئات التي تردَّد فيه، فيلاحظها بغير قلبه، ثم يترك الخطوات بتردد حتى تصير فكرة، ثم تصير الفكرة بحلاوة في العروق، وتتشرَّب العروق مشيئة النفس والهوى، فتلك غيوم وحجب للقلوب، فهذه مسارقة يسرق قلبه من الله؛ لأن شرط الله مع الآدمي أن يكون قلبه له، وسائر الجوارح للقلب، وأن يكون القلب يحبُّه، فإن أحبَّ غيره فبحبِّه يحبُّه؛ لأنه خلقه وصنعه وفعله حتى يكون مرجع ذلك كله إلى حبِّه وفرحه، فإذا ذهب بقلبٍ إلى الله، معتقًا له من رقِّ النفسِ بعظيم المجاهدة؛ لم يذهب فيسارقه، فهذا هزءٌ ولعبٌ، فإذا حضر القلب حتى يترك المسارق صفاه الله ﷻ. قال له قائل: ما حضور القلب؟

قال: أضرب لك مثلا، أليس الله خلق شهوة النساء وحبهن وزينتهن فيك، وأعلمك ذلك في تنزيله حيث يقول: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ [آل عمران:14] قال: نعم، قال: أليس قد أدَّبك كيف تأتي هذه الشهوة؟ وبأي مقدار؟ ومتى؟ فما كان من ذلك بإذنه فهو النكاح، وما كان بغير إذن فهو السِفاح والزنا؟ فإذا ترك الأدب، أليس قد أمر بأن يُرجم ويُقتل بالحجارة؟

قال: نعم، قال: أليس يجب هذا عليه إن كان محصنًا؟ قال: فمتى يحصَّن الرجل؟

قال: إذا وجد حرَّة مسلمة فقد صار مسلمًا قد حصَّن شهوته بوفارة ما وجد؛ لأن الأَمَة فيها نقص، وفي غير المسلمة نقص، فإذا اجتمعت الحريَّة والإسلام توفر وكمل، ولم يبق لك حجة.

فهناك إذا تَركَت الأدب، فزنيت [بامرأة] فأُمرت بأن تقتل رجمًا بالحجارة، وكذلك هاهنا ما دمت في حب الطاعة، وفي حب الزهادة، وحب التقوى، وحب العطايا، فإنما يحب هذا كله من أجل الله، ولكن حبك الله ذو شعب ولكل حب علاقة، ولم تصل بعد إلى أصل الحب الذي اشتعب هذه الشعب، فإذا وصلت إليه فقد حصن قلبك وعف، وترك المسارقة؛ لأن قلبك هاهنا قد امتلأ بحبه، وفاض إلى صدره والعروق من الحلاوة.

فكذلك قال: ولست أسكن البيوت، وأي بيتٍ يسعني، مَن طلبني فإني في قلب العفيف الوادع اللين.

فالعفيف قد صار قلبه محصنًا، قد عفَّ عن [تلك] الحلاوات، لما وجد من وفارة حب الله، وامتلأ منه، والوادع التارك الساكن عن الشهوات التارك لها، واللين الذي لان قلبه بالرحمة التي غمس فيها، ورطب في ذاته، فهو لينٌ متين، كالكرم لين رطب منقاد، وكعصف بعض هذه الأشجار اللينة شبه الخيزران وأشباهها، إن ثنيتها انثنت ولم تنكسر ولم تنقطع، فإنما لان القلب للعفة؛ لأن الشهوة حارة تُيبس القلب فيصير كزًّا، أي، صلباً شديداً، فإذا عفَّ وانغمس فعندها صار القلب لله يمسكه صاحبه لله، فأظهر ربنا وجوده على العرش، وأظهر وجوده هاهنا في مثل هذا القلب؛ لأن هذا القلب سبيل إلى العرش بين يديه، فإن كان هاهنا وجوده، فهو الذي يستعمله.

وهو قوله ﷺ فيما رُوي عن ربه- تبارك وتعالى-: **«فإذا أحببت عبدي كنت سمعه وبصره ويده ورجله وفؤاده، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي، وبي يعقل»**(1).

وقال رسول الله ﷺ: **«إنَّ أسرق السُرَّاق مَن يسرق صلاته»**(2)، فإذا كان أسرق السراق مَن يسرق صلاته من الله، فما ظنك مَن سرق قلبه من الله حتى يذهب بغمامة قلبه منه، حتى يبقى القلب كالمعلَّق بشعرة فإذا انقطع ذهب؟.

ولذلك قال: يا موسى حبلك مني لم يصل بحبل غيري.

وذلك قوله- تعالى-: ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ﴾ [البقرة:256] أي لا انقطاع لها من الله.

فهذا العبد حين آمن بالله، تعلَّق به حبًّا، واستمسك بالعروة الوثقى، ثم لا يزال يسرق قلبه، ويوهن عقدة العروة، حتى يكاد ينحل، وينقطع من ضعفه ورقُته.

فجَهدَ العبد الآن في ترك كل المشيئة، فهي منهم في أمنٍ، اتهموا تلك المشيئة؛ لأنها خرجت من نفس خائنة، وقلبٍ مائل، فهذه رياضة الصادقين في سيرهم إلى الله،

---

(1) أورده الحكيم الترمذي في نوادر الأصول، في بيان عدد الأبدال وصفاتهم، [1/ 4 - 265].

(2) روى نحوه الحاكم في المستدرك، باب التأمين، حديث رقم (835) [353/1] وابن حبان في صحيحه، ذكر اثبات اسم السارق على الناقص الركوع ..، حديث رقم (1888) [209/5] وروى نحوه غيرهما ونصه: «يسرق صلاته قال لا يتم ركوعها ولا سجودها».

فإذا ذهب يصلي ويصوم ويعمل أعمال البر، ويزعم أنه يسير بهذا إليه فقد ضلُّ الطريق وأخطأ، ليس يوصل إليه بالصلاة والصوم، وإنما يُوصل ببذل النفس وتسليمها إليه في ترك المشيئات، واحتمال المكروهات، فإنك إذا تركت مشيئتك في الأمور، فإنما تترك الشهوات وإذا فعلت ذلك جاءتك المكاره، وضقت بها ذرعًا، والتوت النفس وترددت حتى إذا بلغت المنتهى، وذابت عنك المشيئات، وهانت عليك المكاره فعندها فأبشر، ويقع إقبال الله عليك بالكرامة، فإنه كريمٌ رحيمٌ ودودٌ.

مسألة:

قال أبو عبد الله- رحمه الله-: الميراث على تقدير المفعال، مأخوذٌ من الرثة، وهي ما تضمَّنه البيت، وجمعها بعد تفرقها، وكذلك سمِّي الوارث وارثًا لما مات المالك، تبدد ملكه، وتعطل عن جميع تِركته، فقام آخر فضمَّه إلى ملكه، فسمِّي وارثًا، والله - تبارك وتعالى- وارث الخلائق، قسَّم من ملكه بين عباده، ففرَّقه عليهم ثم ضمه إليه في آخر يوم من أيام الدنيا، فهو وارثُ الخلائق، وهو خير الوارثين.

وقال رسول الله ﷺ: «إنَّا معشر الأنبياء لا نورث ما تركنا صدقة»[1]؛ لأن الأنبياء خِزان الله، ليس لهم من المال الذي في أيديهم إلا الخزانة، يمسكونه لله، لنوائب الحق لا لنوائب النفس، وما كان لله فهو غير متفرِّق، وإنما التفرُّق ما كان للشهوات والنفس، وما كان لله فهو مجتمعٌ بيد الخازن، فإذا مات لم يكن لأحد أن يأخذ ذلك فيضمَّه إلى نفسه نحو القرابة؛ لأنه لم يكن للميت أن يأخذه لنفسه، إنما كان يأخذه لحق الله فكل مَن ضمَّ شيئاً مِن تِركة ميت إلى نفسه دِينًا كان او دُنيا [فهو ميراثه].

الا ترى قوله: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ﴾ [النمل:16]، فإنما ورثه المُلك والعلم والنبوَّة، فجمع فيه الدين والدنيا.

والى قول زكريا حيث قال: ﴿ فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ

---

(1) رواه النسائي في السنن الكبرى، ذكر مواريث الأنبياء، حديث رقم (6309) [64/4] والطبراني في الأوسط، من اسمه عدنان، حديث رقم (4578) [26/5] ورواه غيرهما.

يَعْقُوبَ ﴾ [مريم:5، 6] فإنما ورث من آل يعقوب النبوة، فكل شيء ضمَّه إلى نفسه من مُلكٍ آخر دينًا أو دنيا، فهو ميراثه.

وقوله: «لا نورث ما تركنا صدقة»[1] أي لا نورث كما يرث الناس بعضهم بعضًا؛ لأنَّا لا نملك الأشياء كما يملكون، إنما نملكه لله، وليس للنفس فيه دعوى.

(1) رواه البخاري في صحيحه في أبواب عدة منها: باب أبواب الخمس..، حديث رقم (2926) [1126/3] ورواه مسلم في صحيحه في أبواب عدة منها: باب حكم الفيء، حديث رقم (1757) [1377/3] ورواه غيرهما.

المستدركات

المستدرك الأول

«باب في شأن النية»

حدَّثنا صالح بن عبد الله، حدَّثنا يوسف بن عطية عن ثابت عن أنس أن رسول الله ﷺ قال يومًا: «هل تدرون مَن المؤمن» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**المؤمن مَن لا يموت حتى يملأ الله مسامعه مما يحب، ولو أن عبدًا اتَّقى الله في جوف بيتٍ إلى سبعين بيتًا، على كل بيتٍ بابٌ من حديد، ألبسه الله رداء عمله، حتى تتحدث الناس به ويزيدون**» قالوا: وكيف يزيدون يا رسول الله؟ قال: «**إن اتَّقى، لو استطاع أن يزيد في برِّه لزاد، وكذلك الكافر يتحدَّث الناس بفجوره ويزيدون، لو استطاع أن يزيد في فجوره لزاد**»[1].

وكان ثابت إذا حدَّث بهذا الحديث يقول: فبلغني أن رسول الله ﷺ كان يقول: «**نيَّة المؤمن أبلغ من عمله**»[2].

حدَّثنا عمر بن أبي عمر عن نعيم بن حماد عن عبد الوهاب بن همام الحميري قال: سمعت وهبًا يحدِّث عن ابن عباس أن رجلاً قال: يا رسول الله ما أفضل الأعمال؟ قال ﷺ: «**النية الصادقة**»[3].

وحدَّثنا عمر بن عمرو الربعي عن ابن جريج قال: قلت لعطاء: لم نية المؤمن خير من عمله؟ قال: نية المؤمن لا يكون فيها رياء فيهدرها».

وحدَّثنا عمر عن فهد بن مالك بن دينار قال: رأيت رجلاً بمكة يقول: اللهم قبلت حجَّاتي الأربع، فاقبل هذه الحجة فتعجبت منه، وقلت: كيف علمت أن الله

---

(1) رواه البيهقي في شعب الإيمان، الباب الخامس والأربعون من شعب الإيمان..، حديث رقم (6943) [359/5].

(2) رواه البيهقي في شعب الإيمان، الباب الخامس والأربعون..، حديث رقم (6859) [342/5] والقضاعي في مسند الشهاب، حديث رقم (147) [119/1].

(3) أورده المناوي في فيض القدير، حرف الهمزة [44/2] ورواه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد عن ابن عباس بلفظ: «النية الصادقة معلقة بالعرش فإذا صدق العبد نيته تحرك العرش فيغفر له». باب القاف، حديث رقم (6926) [448/12].

قبلها منك؟ قال: أربع سنين كنت أنوي كل سنة أن أحج، وعلم من نيتي، وحججتُ من عامي هذا وأنا خائف أن لا يتقبَّل مني، فيؤمئذ علمت أن النية أفضل من العمل.

قال أبو عبد الله- رحمه الله-: وجدنا من طريق الاعتبار عندما مثلنا بين النية والعمل أن العمل منقطع، والنية دائمة.

وتصديقه في حديث ثابت عن أنس: «**العمل علانية والنية سرٌّ**»[1].

وتصديقه في حديث عطاء: «**أعمال السر مضاعفة**[2]، **والعمل سعي الأركان إلى الله- تعالى- والنية سعي القلوب إلى الله، والقلب مَلِك، والأركان جنوده، ولا يستوي سعي الملك وسعي جنوده، والعمل يوضع في الخزائن والنية عنده**» لأنه الذكر الخفي، والعمل موقوف علي نهايته والنية لا تحصي نهايتها، والعمل بتحقيق الإيمان، والنية فرع الإيمان، بمنزلة الشجرة فيه منصوبة، فبظهور ورقها هي شجرة وليس للورق نمو، وإنما هي زينة الشجرة، والثمر من الفرع، والفرع سقياه من الأصل.

وذلك قول الله- تبارك وتعالى- في كتابه: ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [إبراهيم:24] فالأصل هو الإيمان الذي في القلب، والنية هي فرعها الذي في السماء والعمل هو للأكل.

قال تعالى: ﴿ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ ﴾ [إبراهيم:25] والعمل موكُل به الحفظة، والنية لم تطلع عليها الحفظة، والعمل في ديوان الملائكة، والنية في ديوان الله.

ألا ترى إلى قوله- تباك وتعالى-: «**أنتم حفظة على عبدي، وأنا رقيبٌ على ما في نفسه**»[3]، والعمل الواحد لا يعدو نفس ذلك العمل ولا ينتظم غيره، والنية تنتظم الأعمال، والعمل ثوابه من الجنة، والنية ثوابها من منازل القربة، والعمل أجناس لا يشبه بعضها بعضًا ولا يقدر العبد أن العمل عملاً تنتظم به جميع الأعمال، والنية تشهد الأشياء، وذلك إذا نوى بلوغ مرضاته، فمرضاته جميع الطاعات فهو في ذلك الوقت

---

(1) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(2) أورده المناوي في فيض القدير، حرف الهمزة [45/2].

(3) رواه أبـــو الشيخ في العظمة، حديث رقم (519) [999/3] وابن المبارك في الزهد، باب ذم الرياء..، حديث رقم (452) [153/1].

كأنه أخذ بعروة الطاعات كلها فهو كالعامل بجميع الطاعات، وهذه النية كلها للصادقين من أعمال الله يحتاجون إلى نية في كل أمر؛ لأن قلوبهم مع الأشياء فيحتاجون أن ينووا إلى الله- تبارك وتعالى- عند مبتدإ كل أمرٍ.

وذلك ما جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إنما الأعمال بالنيات**»[1].

وقال: «**لا عمل لمن لا نية له، ولا أجر لمن لا حسنة له**»[2].

وأصل النية من طريق الإعراب واللغة هو النهوض، تقول: ناء ينوء: أي نهض ينهض، وتفسير النية نهوض القلب بعقله ومعرفته إلى الله بقدر العقل، والمعرفة بقدر القلب على السعي والطيران إلى الله، والنيات على قدر طهارة القلوب وسعيها إلى ربها إلى تلك المراتب، فإذا كان القلب في حبس النفس، فإنه يحتاج إلي النهوض إلى الله عند مبتدإ كل أمر وهو الإرادة والقصد إليه، فإذا نابت العبد نائبة كائنًا ما كان فنواه وقصده وجد ذلك الغوث فيه موجودًا، وإنما يناله العبد على قدر مرتبته، وإذا تخلّى العبد من حصار النفس، فسار إلى الله، وتعلّق به وحيي به فمحال أن يقال: نهض؛ لأنه عبده ولا يحتاج إلى نيته، فهو في كل أموره عند ربه، فقد سقط عنه هذا النظر، وهذا عنده محال بعد أن استقام قلبه لله عبودة، وقام بين يديه.

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب بدء الوحي، حديث رقم (1) [3/1] ورواه أبو داود في سننه، باب فيما عنى به الطلاق والنيات، حديث رقم (2201) [262/2].

(2) رواه البيهقي في السنن الكبرى، باب الاستياك بالأصابع، حديث رقم (179) [41/1]. وأورده السيوطي في الدر المنثور وعزاه إلى ابن أبي الدنيا [533/1].

المستدرك الثاني

باب في تفسير قول رسول الله ﷺ:

«إني تاركٌ فيكم الثقلين: كتاب الله، وعترتي»[1]

قال أبو عبد الله- رحمه الله-: وسألتم عن قول رسول الله ﷺ: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي».

فهذا حديث الكوفيين، رواه معروف بن جربود عن أبي الطفيل عن حذيفة بن أسد الغفاري عن رسول الله ﷺ في حجة الوداع في خطبته: «يا أيُّها الناس إني سائلكم عن الثقلين حين يردون علي الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فهما الثقل الأكبر: كتاب الله سبب طرفه بيد الله، وطرف بأيديكم، فاستمسكوا به، ولا تضلُّوا ولا تبدلوا، وعترتي أهل بيتي، فإن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض»[2].

ورواه عبد الملك بن سليمان عن عطية العوني عن أبي سعيد الخدري ﷺ عن رسول الله ﷺ بنحو من ذلك، فهذا حديث أهل الكوفة، وجمهور الناس من أهل الكوفة متَّهمون في هذه الأشياء إلا الأئمة الأدلة مثل سفيان ومسعر، ومثل الشعبي وإبراهيم ومَن قبلهما ومثل علقمة والأسود، فهؤلاء الذين لا يعرفون الأشياء مستورون وهم ليسوا بالأئمة ولا أدلة، فليسوا ممن تقبل منهم؛ لأنهم قومٌ مفترون فبثُّوا به، ثم جدلوا وفتنوا بوُلْدهم، ثم خذلهم، فليسوا بمكان يقبل منهم هذه الأحاديث.

وقد فتَّشنا عن أحاديثهم فوجدنا غير المستورين منهم أحاديث عامتهم مختلفة، وعن المفرطين منهم كثيرًا قد روَّجوها على الغنم وأهل الفتنة.

ومنها: إن النبي ﷺ دعا لعلي ﷺ حتى عادت الشمس بعد المغرب لمكانها من العصر، حتى صلَّى علي ﷺ العصر ثم غابت، رواه فضيل بن مرزوق عن إبراهيم عن الحسن، فمثل فضيل وأشباهه، وإن كانوا قد رُوي عنهم فليسوا من الذين بمكان يقبل منهم أصول الدين وعقودها.

---

(1) وتتمته: «ولم يتفرقا حتى يردا على الحوض» رواه الطبراني في الأوسط، من اسمه حمدان، حديث رقم (3542) [33/4] ورواه غيره بألفاظ أخرى متقاربة.

(2) رواه باختلاف يسير في لفظه الطبراني في الكبير برقم (2681 و2683) [3/6 ـ 67].

وكذلك قولهم في النبيذ، وما رووا فيه من الأحاديث عن رسول الله ﷺ، وعن عمر ﷺ في شرب النبيذ الشديد، حتى رووا عن ابن عمر- ﷺ-: إنه سقاه شربةً من نبيذ، فما كدت أبصر أذني راحلتي، وما كدت أهتدي إلي راحلتي.

وهذا ابن عمر أشد الناس في الأشربة، يقول:

«**كل مسكرٍ خمر، وكل خمرٍ حرام**»[1]، ينبئك أن الخمر أصناف، ولولا ذلك لما قال: «كل»، وإنما يقبل من فضيل عن علي ﷺ ما جاء به أهل الحجاز وأهل الشام.

حدَّثنا الجارود، حدَّثنا بكار بن عبد الله الزيدي، حدثني موسى بن عبيدة، أخبرني عبد الله بن دينار عن ابن عمر- ﷺ- قال: خطبنا رسول الله ﷺ في حجة الوداع فقال: «**إني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله فاعتصموا به**»[2]، فليس في الحديث ذكر العترة ولا أهل البيت، فهو أقرُّ وأقرب إلى الصدق من قول معروف بن خربوذ وعطية العوفي.

وقد جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إذا جاءكم عني حديث تعرفونه ولا تنكرونه، قلته أو لم أقله فصدِّقوا به، فإني أقول ما يعرف ولا ينكر، وإذا حدَّثتم عني حديثًا ولا تعرفونه، فكذِّبوا به فإني لا أقول ما ينكر ولا ما يعرف**»[3].

حدَّثنا بذلك الحسن بن علي العجلي، حدَّثنا يحيي بن آدم، حدَّثنا ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ.

فكيف يجوز أن يدل رسول الله ﷺ أمته على أن يتمسَّكوا بكتاب الله وبعترته في الاقتداء، وكتاب الله عهده وكلامه، وخرج رسول الله ﷺ من الدنيا وعترته من أبناء خمس وست، ففي أي وقت وجب الاقتداء بهم؟!

وهذا علي بن الحسين من أجلِّ أولاده، يختلف إلى التابعين، فيتعلم منهم ثم يلوم نفسه في تقصيره في ذلك، ثم من بعده، وأبو جعفر محمد بن علي، والأئمة في وقت

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب بيان أن كل مسكر خمر..، حديث رقم (2003) [1587/3].

(2) رواه باختلاف يسير في لفظه عبد الرزاق في المصنف، بدء مرض رسول الله ﷺ، حديث رقم (9756) [437/5].

(3) رواه الدارقطني في سننه، كتاب عمر ﷺ الى أبي موسى الأشعري، حديث رقم (19) [208/4]. والحكيم الترمذي في نوادر الأصول، الأصل الرابع والأربعون، في ما يعدونه صدق الحديث [233/1].

أصحاب رسول الله ﷺ كانوا مشهورين ممن يؤخذ عنهم العلم.

منهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وزيد بن ثابت، والضحَّاك، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد، وأُبي بن كعب، وأبو عبيدة، ومعاذ بن جبل، وعبد الله بن مسعود، وأبو موسى الأشعري- رضوان الله عليهم أجمعين.

ثم في التابعين: علقمة، والأسود، وإبراهيم، وشريح، وعبيدة، والحسن، وابن سيرين، ثم من دونهم: أبو حنيفة، وسفيان، والأوزاعي، ومالك.

فاجتمعت الأمة على أخذ العلم من هؤلاء، واشتهروا بالإصابة، فكيف تركت الأمة معدن العلم لو وجد عند عترته؟.

أوَ لم يقل رسول الله ﷺ: **«اقتدوا بالذين من بعدي: أبو بكر وعمر»**[1].

ثم قال في حديث آخر: **«أقضى أمتي عليٌ، وأعلمها بالحلال والحرام: معاذ، وأفرضها: زيد، وأقرؤها: أُبي»**[2].

فإن كان هذا الحديث في الأصل محفوظًا، فتأويله عندنا- والله أعلم-: أن أوصي بحفظهم، ورعاية حقوقهم، فإنهم ذرية طاهرة طيبة، من صلب نقي، ولله فيهم خبايا، ورسول الله ﷺ محفوظٌ بينهم، وله حُرمة عظيمة، فمن كان بهذه الصفة فحقيق أن يعظم حتى لا يتفرَّقوا عن كتاب الله.

«فيضلوا» تأويله عندنا: أن لا يقعوا في الأهواء حتى لا يمرقوا من الدين فإنه ذكر: **«إن بني إسرائيل افترقوا على ثنتين وسبعين فرقة»**[3].

---

(1) وتتمته: «واهتدوا بهدي عمار وتمسكوا بعهد ابن أم عبد». رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، برقم (1 ــ 4452) [79/3] والترمذي في سننه، باب مناقب عمار بن ياسر ﷺ، حديث رقم (3799) [668/5] وفي باب مناقب أبي بكر وعمر ﷺ، حديث رقم (2 - 3663) [609/5].

(2) رواه الحاكم في المستدرك، ذكر عبد الله بن عباس..، حديث رقم (6281) ونصه كاملاً: عن ابن عمر ﷺ قال قال رسول الله ﷺ إن أرأف أمتي بها أبو بكر وإن أصلبها في أمر الله عمر وإن أشدها حياء عثمان وإن أقرأها أبي بن كعب وإن أفرضها زيد بن ثابت وإن أقضاها علي بن أبي طالب وإن أعلمها بالحلال والحرام معاذ بن جبل وإن أصدقها لهجة أبو ذر وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح، وإن حبر هذه الأمة لعبد الله بن عباس.

(3) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الإيمان، حديث رقم (10) [47/1] ورواه الترمذي في السنن، باب ما جاء في افتراق هذ الأمة، حديث رقم (2640) [25/5] ورواه غيرهما.

فاعلم أن كتاب الله وعترتي لن يتفرقا حتى يردا علي الحوض، بأن يعصمهم الله حتى لا يقعوا في الأهواء فيتفرَّقوا ويكونوا شيعًا، وهذه النعمة- بحمد الله- ظاهرة عليهم إلى يومنا هذا، إنهم أينما كانوا من بلدان المسلمين تراهم المتقدِّمين على الخلق خُلقًا وأدبًا وسماحةً وتديُّنًا ونزاهةً، وكل مكرمة وخُلق من معاني الأخلاق موجودة فيهم على السبيل والسنَّة في ظاهر الشريعة، ففضلهم ظاهرٌ بَيِّن، وحفظ رعايتهم على المسلمين واجبة.

وأما التفقُّه في الدين، والدخول في نوازل الناس وفُتيَاهُم فإنهم بمعزلٍ، فرأى أمر الأمة في هذا، إنما يدور على مَن سمَّينا من الصحابة والتابعين، وقد ذهب بتأويل هذا الحديث إن كان محفوظًا، قومٌ من هؤلاء فهم يتولُون بزعمهم عترته، ويجعلون طاعتهم مفترضة، وهم إلى أعناقهم في الريبة والمعاصي والفساد، ويجعلون الطاعة بعد رسول الله ﷺ مفترضة لولد بعد ولد، ويجعلونها كالميراث الواحد بعد واحد من أن يكون له في ذلك أثر عن رسول الله ﷺ بتسميته أحد، وإنما هو يخبر الرجال بأهوائهم، فلو أحدث أحد منهم بإقامة هذا القول لوجدته يتكلم كلام أهل العتاهة؛ لأنه مرة يذهب إلى الصحة والديانة، فيجعل الحق له في الطاعة، ومرة إلى السنَّة، وهذه أهواءٌ وزيغ.

واحتجُوا بقول الله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ [النساء:59]، فقالوا: أولوا الأمر بعد الرسول ﷺ علي ﷺ، ثم من بعده ابنه الحسين، ثم من بعده علي ابنه ابن الحسين، وبعده محمد بن علي، ثم من بعده جعفر بن محمد، فإنما افترضت طاعتهم بكتاب، فهؤلاء الزائغون المفتونون يطيعون عليّ جميع أمة محمد ﷺ من الصحابة والتابعين وجميع علماء المسلمين.

وهذا علي بن الحسين يجاثي العلماء بركبتيه من التابعين، ويتعلَّم منهم، وقيل: الحسين ابن علي- ﷺ- وعلي ابنه فتى صغير، فمتى صارت طاعته مفترضة، وأجمعت الأمة على أبي بكر ﷺ واستخلفوه، فأين كان عليّ ﷺ ولم يتابعهم على ذلك؟ وكيف قارهم على هذا الجور وترك حقه؟ وكيف قام بذلك في زمان معاوية، وتركه في زمان أبي بكر وعمر- ﷺ- وعن جميع أصحاب رسول الله ﷺ؟ فهؤلاء المفتونون كلامهم كالهذيان، لا يرجعون إلى كلام فنسميه كلام الأصحاء.

المستدرك الثالث

«باب في تفاوت المعرفة والإيمان والتوحيد وما يشبه ذلك».

قال أبو عبد الله- رحمه الله-: فالمعرفة إذا عرف الله بقلبه واطمأن إليه فاستقر قلبه، فهي معرفة، ومبدؤها من الله- تبارك اسمه والموحِّدون استوجبوا اسم العارف، إلا أنهم تفاوتوا في تصديقه بالعمل والخدمة، فأكثر وفاء بها أوفرهم حظًا منها، وأخلصهم في ذلك أصدقهم.

وأمَّا كمال المعرفة، فإذا زالت المعرفة لم يبقَ معه شيء والخائف على نفسه محمود؛ لأن النفاق عزل الإيمان.

ورد: «والغيلان سحرة الجن»[1]، فكما أن الغيلان يسحرون الآدميين حتى يضلوهم عن الطريق في المفاوز، فكذلك النفاق يدخل من حيث بصائر الهدى حتى يضله، والسرور للمذنب والمطيع غرور؛ لأن المذنب لم يتكشف له الغطاء عن حكم الله ﷻ فيه، والمطيع لم ينكشف له عاقبته، فالسرور على ماذا؟ هذا على الأغلب، وقد يكون أن يعتريه في بعض الحالات ما يرى من تدبير الله فيُسرُّ به، وإن كانت نفسه معه فقيرٌ مأمون في السرور.

وأمَّا ما ذكرت من حقائق الخصال التي ذكرت من الإيمان والتوحيد والاستغفار والحمد وما أشبه ذلك، فإنما يعرف حقائق هذه الأشياء أهلها، فإذا وصلوا إليها شهدت العقول لهم بتلك الحقائق، وعلامة حسن الاستماع أن يُفرغ فؤاده لقول القائل، وأن الله- تبارك وتعالى اسمه- صنع للموحِّدين صنعًا جميلاً أن قيَّد نفوسهم بحسن تخوُّف العقوبة وخوف العاقبة، فالمدبِر والمطيع لن يخلوا من ذنبٍ واحدٍ قد اقترفاه، فاستوجبا بذلك الذنب الواحد عقوبة، فطوي عنه خبر العقوبة في هذه الدار.

هكذا قيَّدوا بهم وعليهم العاقبة، حتى إذا أرادت النفس أن تنفسح في الأمل والرجاء للموحِّدين قيَّدها باتهام العاقبة، فالخوف أصلح للنفس، فإذا جمع الله لعبد الخوف والآخرين؛ فقد صانه وربط الأسد الذي في جوفه، فالصادقون في هذا المحل منه، والصدِّيقون كذلك خَوفهم أشد وأحزانهم أدوم، ثم إن لله خاصة من عبيده أعلى من الصدِّيقين، وهم أقل في أرضه من عدد الأصابع، قد احتشت قلوبهم منه وبه، فهم

(1) رواه عبد البر في التمهيد من كلام أبي عمرو بن العلاء، [18/ 310].

أُسارى في قبضته، ولولا ذلك لهاموا، فهو يعللهم في قبضته بقصر الأمل.

وهو قول رسول الله ﷺ: «**إني لأرفع، فما أظن أن شفري يلتقيان حتى أقبض**»[1].

فهذا إنما يقصر أمله في القبضة، ولا يقدر على هذا إلا هذه الطبقة، فهم أهل السرور بالله، وأهل تربية القبضة، يغدوهم بلطفه.

وهو قول رسول الله ﷺ: «**إن لله عبادًا تحسبهم في عافية، وتمسيهم في عافية، وتغدوهم رحمته، نصرهم عن الأسقام والأمراض، وينأى بهم عن الذبح، كما ينأى أحدكم بكريمة إبله عن الذبح، يقبضهم على فراشه، ويقسم لهم أجور الشهداء**»[2].

---

(1) رواه الديلمي في الفردوس بلفظ: «والذي نفسي بيده ما طرفت عيناي فظننت أن شفري يلتقيان حتى أقبض» حديث رقم (7087) [374/4] ورواه غيره بألفاظ أخرى متقاربة.

(2) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

المستدرك الرابع

«باب آخر في الصفات»

قال أبو عبد الله- رحمه الله-: وسألتم عن قوله ﷺ: «العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، والرحمة قميصي»[1]، فليس بالله حاجة إلى الإزار والقميص، إنما هذا منة العباد، فبالعظمة امتلأت الأشياء وتمت ووفرت، وبالكبرياء نال العباد عفوه، وبالقميص اتَّسع العباد في رحمته، وسألتم عن قول رسول الله ﷺ: «ينزل إلى السماء الدنيا»[2].

فإن مقاتلاً- رحمه الله-: حدَّثنا عن [......][3] عن عبد الصمد بن سليمان عن إبراهيم بن مقسم عن هلال الراسي عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: إذا كان عشية عرفة تعالى جد ربنا هبوطه إلى الشيء إقباله عليه، ومَن لا شغل الأماكن كينونيته، ولا توصف كيفيته في النزول والهبوط، فيرد له ظهور.

فقد ظهر على العرش ظهور الربوبية، ثم ذكر دنوه وتدليه على سدرة المنتهى، وما غشي السدرة.

فرُوي في الخبر قال: «غشيها نور الخالق»[4]، هذا سبيل نزوله إلى سماء الدنيا، وقد تاه قومٌ في هذا حتى عطَّلوا هذه الروايات ونفوها، وحملوها على تأويلات متناقضة، فحرموا بركة هذه الأشياء.

وهذا وجود الله- جلَّ ذكره- وعطفه على المؤمنين أن جعل لهم من الحظ من نفسه أن ظهر لهم على عرشه، وظهر لهم في سمائه، وظهر لهم في منامهم، فالظهور على العرش في القلوب، والظهور في المنام للنفوس التي يتوفَّى في منامها، فتخرج فتعاين ما يظهر لها من جلاله وعظمته، فهو غير محتاج إلى العرش.

---

(1) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه، ما ذكر في الكبر، حديث رقم (26578) [329/5] والقضاعي في مسند الشهاب، حديث رقم (1464) [331/2] وليس فيه عبارة [والرحمة قميصي].

(2) جزء من حديث رواه ابن حبان في صحيحه، ذكر وصف بعض السجود..، حديث رقم (1887) [5/5 ــ 6 ــ 207] ورواه الطبراني في الكبير برقم (8373) [54/9] وبرقم (13566) [425/12] ورواه غيرهما.

(3) بياض في الأصل.

(4) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

والقلوب مظهر لقلوب العباد السائرة إليه، المتخلِّصة من حجب الشهوات، والنفوس إذا توفيت في منامها، فتخلَّصت من الشهوات، أمكنها [حينئذ] من الظهور فترى.

وقد جرت الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ملكتني عيني فنمت فرأيت ربي تبارك وتعالى**»[1]، فهذا حديثٌ مروي من غير وجه، رُوي عن معاذ بن جبل، وثوبان، وعبد الرحمن ابن عباس الحضرمي عن رسول الله ﷺ.

وفي الرؤية في المنام أخبار كثيرة لا يحيد عنها إلا كل جبارٍ عنيد، ظن المسكين أنه ينزهه ويعظمه بالتنزيه، فإذا هو قد عطَّل مدائحه وجوده وكرمه وعطفه على عباده.

وسألتم عن قوله: «**إن الله يضحك إلى عبده**»[2]، فهذا داخل فيما قلناه وفسرناه، وإنما أريد بهذه الكلمة إعلام العباد فَرح الرب بذلك العبد، وبذلك الفعل منه.

والضحك في اللغة انفتاح الشيء وانكشافه، تقول: هذا زرع يضحك أزهر

---

(1) جزء من حديث طويل رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء.، حديث رقم (1913) [702/1] ورواه الطبراني في الكبير، حديث رقم (290) [141/20] ونص رواية الطبراني عن معاذ بن جبل قال أبطأ علينا النبي ﷺ لصلاة الفجر حتى كادت أن تدركنا الشمس ثم خرج فصلى بنا فخفف في صلاته ثم انصرف وأقبل علينا بوجهه فقال على مكانكم أخبركم ما بطأني عنكم اليوم في هذه الصلاة إني صليت في ليلتي هذه ما شاء الله ثم ملكني عيني فرأيت ربي عز وجل في أحسن صورة وأجملها فقال يا محمد فقلت لبيك يا رب قال فيم يختصم الملأ الأعلى قلت لا أدري فوضع كفه بين كتفي فوجدت برد أنامله بين ثديي فعلمت من كل شيء وبصرته ثم قال يا محمد قلت لبيك يا رب قال فيما يختصم الملأ الأعلى قلت في الكفارات قال وما هن قلت المشي على الأقدام إلى الجمعات وإسباغ الوضوء في السبرات والدرجات قال وما هو قلت إطعام الطعام ولين الكلام والصلاة بالليل والناس نيام قال سل قلت اللهم إني أسألك الحسنات وترك المنكرات وحب المساكين وأن تغفر لي وترحمني وإذا أردت فتنة خلقك فنجني إليك غير مفتون وأسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل يقربني إلى حبك».

(2) رواه عبد الرزاق في المصنف، باب من يضحك الله إليه، حديث رقم (20283) [186/11] ونصه: عن إسماعيل بن أمية قال قال رسول الله ﷺ إن الله عز وجل يضحك منكم أو لين يقول مايس لعوب العيب منكم قال فقال رجل من باهلة إن الله يضحك قال النبي ﷺ نعم قال فوالله لا عندما الخير من رب يضحك». رواه نحوه غيره.

واخضر، ومن قوله: ﴿ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ ﴾ [هود: 71]، وهو انفتاح الرحم، فكذلك قال المفسرون: «ضحكت»: حاضت ومرجعه إلى ما قلت، والضاحك لا يخلو من انفتاح فيه.

فمثل هذه الصفات لا يعقلها من ربنا ﷻ إلا أهل المعرفة وبها يتلذذون، خرجوا بمعرفتهم من المشيئة والتعطيل، وأدوا إلى المعرفة حقّها، فإن حقّها قبولها، فليس بالله حاجة إلى النزول ولا إلى الضحك، إنما هذا كرمه وجوده جاد به على الأحباب، فبهذا يعيشون في سجن الدنيا حتى يصيروا إليه يوم القيامة، فتصير هذه الأشياء كلها معاينة، ويخسر المبطلون، ويعضُّون على أيديهم ندمًا وحسرةً، والمفتونون المشبهون الزائغون عن الله- تعالى- أولئك الغنمُ البهمُ.

المستدرك الخامس

باب في قول الله - تبارك وتعالى -:

«مَن رجا غير فضلي، وخاف غير عدلي، فليطلب ربًّا سواي»[1]

قال أبو عبد الله - رحمه الله -: وسألتم عن قوله ﷻ: «مَن رجا غير فضلي، وخاف غير عدلي، فليطلب ربًّا سواي»، والموحِّدون كلهم لا يرجون إلا فضله، ولا يخافون إلا عدله، هذا في عقد إيمانهم، وهذا في تسبيحهم لربهم، حيث يقولون: سبحان مَن لا يرجى إلا فضله، ولا يخاف إلا عدله، ولكن لا يتراءى إلا لأهل الانتباه واليقظة، وأهل الشهوات قد حجبتهم شهواتهم عن رؤية هذه الأشياء، وكلهم يقتضيهم إيمانهم الرجوع إلى هذه الكلمة في حاصل توحيدهم، ومَن تعرَّى من الشهوات، وانفلت من علائق الأسباب قلبه، فأيس من المخلوقين وتعلَّق بالخالق، فهناك يبدو له أن لا يرجو إلا فضله، ولا يخاف إلا عدله.

ورُوي عن سفيان بن عيينة ﷺ أنه قال: قال الله - تبارك وتعالى - لداود صلوات الله عليه -: هل تخافني؟ قال: نعم يا رب، قال: فهل تخاف من غيري؟ قال: نعم يا رب، أخاف مَن لا يخافك أن تسلِّطه عليَّ فلا يستبقي عليَّ شيئًا.

فهذا خوف العدل، فالمنتبه إنما يخاف من هذا الطريق، والمفتونون الذين لم ينكشف لهم الغطاء من الموحِّدين، يخاف أحدهم الخلق وهو راجع بقلبه إلا أنه لا يملك أحد ضرًّا ولا نفعًا إلا الله، ولكنه قد تولَّته الغفلة عن رؤية العدل ورؤية التسليط، فصاحب هذا مفتونٌ بالأسباب، إن رأى فضلاً فمن أيدي الأسباب، وإن رأى عدلاً فمن أيدي الأسباب؛ فهو باقٍ جميع عمره مع الأسباب، منها ما يرجو ومنها ما يخاف.

ورُوي عن ابن عمر - ﷺ - ما حدَّثنا به - أبي رحمه الله - حدَّثنا الحكم ابن المبارك، أخبرنا عبد الله بن الوليد عن بكير بن حذام الأسدي، حدثني وهب بن أبان عن ابن عمر إنه خرج في سفر له، فإذا جماعة على الطريق، فقال: ما هذه الجماعة؟، قالوا: أسدٌ قطع الطريق، قال: فنزل، فمشى إليه حتى قعَّده، ونحاه عن الطريق، ثم

---

(1) أورده بنحوه البستي في المجروحين، باب الباء برقم (407) [327/1] وأورده المناوي في فيض القدير حرف السين [470/4] بنحوه أيضاً.

قال: ما كذب عليك رسول الله ﷺ، قال: «**إنما يسلَّط على ابن آدم مَن خافه ابن آدم، ولو أن ابن آدم لم يخف غير الله لم يسلِّط الله عليه غيره، وإنما وكِّل ابن آدم بمن رجا، ولو أن ابن آدم لم يرجُ إلا الله لم يكله الله إلى غيره**»[1].

قال أبو عبد الله رحمه الله: فالخلق كلهم محتاجون مضطرون، عيالٌ بعضهم على بعض في نوائبهم، فلا يستغني أحدٌ عن أحدٍ، وكذلك خلقهم أخوة وأولياء.

فقال ﷻ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات:10] حتى يكون أحسبه في الأمور.

قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة: 71] حتى يتولى بعضهم نصرة بعض.

وكذلك أوعد فقال: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝ ﴾ [الماعون:4، 5، 6، 7] في لغة العرب مأخوذٌ من المؤنة والرفد، أوله الزكاة ثم ما يتّبعه من الرفد والعَواري التي تمتهن.

فهذه كلها علائق الأبدان، والمحمود من علائق الأبدان بلا علاقة من القلب، فهذا لم يرجُ أحد سواه، ولم يخف أحدًا سواه.

ورُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ألا إن إعطاء هذا المال فتنة، وإمساكه فتنة**»[2]، فتكلم جمع.

ثم قال: لا تسألوني عن مقالتي هذه. كأنه يريد أن يفهمهم، وكانوا يهابون أن يسألوه عن كل شيء، فقالوا: بلى يا رسول الله، قال: الرجل يأتيه الرجل فيسأله فيعطيه، فيرجع من عنده، فيقول: فلان أعطاني كذا وكذا، فتصير فتنة عليه، ثم يأتيه من العام الثاني فيمنعه، فيرجع من عنده يذمه، فيقول: منعني، فتصير عليه، والله أعطاه

---

(1) رواه الحكـيم الترمذي في نوادر الأصول، الأصل الرابع والعشرون والمائتان في قوة الإيمان...، [77/3] وأورده المناوي في فيض القدير، حرف الهمزة، [7/3].

(2) رواه القـضاعي في مسند الشهاب (647) إن إعطاء هذا المال فتنة، حديث رقم (999) [2/114] وأبو بكر الشيباني في الآحاد والمثاني برقم (2910) [344/5].

والله منعه[1].

فهذه الفتنة إنما تحل بأهل الغفلة عن الله، فأمَّا مَن انكشف له الغطاء فإنه يقول: فلان أعطاني، وفلان منعني، وبقلبه يرى العطاء والمنع من الله على يده، فلا يضره قوله ذلك، إنما الضرر على مَن قال هذا وقلبه غافل عن الله، فيصير قلبه فتنة.

ورُوي عن أبي عبيدة بن الجراح ﷺ أنه أتاه سائل فأعطاه درهمًا، ثم أتاه أخرى فمنعه فقال ﷺ: «الله أعطاك، والله منعك»[2].

(1) هذا الأثر لم أجده بلفظه فيما لدي من مصادر ومراجع.

(2) هذا الأثر لم أجده بلفظه فيما لدي من مصادر ومراجع.

المستدرك السادس

«باب في لذة الطاعة من أي شيء تتشعب»

قال أبو عبد الله رحمه الله: وسألتم عن لذة العبادة من أي شيء تتشعب، فلذّة العبادة على وجهين: منه ثواب في العاجل لصاحبها؛ لأن الطاعة متصلة بالنية، ونية العمل دائمًا باقية في القلب، ولا يكاد يجد أحدًا العمل بطاعته، فإذا قطعها يعزم على أن لا يعود إلى هذه الطاعة، ثم موجود في قلبه الدوام عليه والرضى به؛ لأنه خَفي على العامة ذلك لما ما في صدورهم من الاشتغال ودخان الشهوات، فلا يكاد يستبين هذا إلا عند أهل النور والطهارة من الاشتغال، فالعامل بالطاعة يعمل بالطاعة، ويقطعها بحركة الأبدان، والأصل الذي منه بدت هذه الحركات باقٍ في القلب، فإذا خرجت الحركات إلى الله، ورفعت إلى محل العرض، فإذا قبلها الله نظر إليها، وإذا نظر إليها اشتعلت نورًا بنظرته إليها، فنادى ذلك الاشتعال إلى قلب هذا العامل بذلك، فازداد قوةً ونورًا بمنزلة شجرة عَلت فروعها في السماء فأصابت فروعها صاعقة، فمرَّ الحريق إلى أسفلها.

وذلك قوله تبارك اسمه: ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ [إبراهيم:24، 25] فالأكل كالثمرة والطعام، ولهذه الآية غور بعيد، وشرح عجيب، لو أضيئت له جملة.

فلذّة المطيعين من أعمالهم تلك راجعة إلى قلوبهم، إلى الأصول التي بدت منها تلك الفروع المشتعلة، ووجهٌ آخر هو أعظم، وهو لمن انكشف له الغطاء، فالتدبُّر لربِّه المعبود بهذا العمل، وهذا لمن تراءى لقلبه محل عبودة المعبود في مقامه ذلك في العمل.

وهو قول رسول الله ﷺ حيث سأله جبريل صلوات الله عليه وسلامه قال: «ما الإحسان[1]؟، قال: أن تعبد الله كأنك تراه، قال: صدقت».

---

(1) رواه البخاري في صحيحه في بابين أحدهما باب سؤال جبريل النبي ﷺ..، حديث رقم (50) [27/1] ورواه مسلم في صحيحه في بابين أحدهما باب بيان الإيمان والإسلام..، حديث رقم (9) [39/1] ورواه غيرهما.

المستدرك السابع

«باب في تفسير حب الدنيا»

قال أبو عبد الله رحمه الله: وسألت عن قول عيسى صلوات الله وسلامه عليه: «حب الدنيا رأس كل خطيئة»[1]، فإن الله تبارك وتعالى خلق الدنيا مرفقًا للعباد في مقدار هذه المدة التي أحلَت لهم، ويمضون إلى الله إلى دار القرار، فيتنعَّمون في جِواره بقرَّة العيون، فإنما لهم من دنياهم هذا الذي وصفنا، فما لهم ولحبها، إنما الخالق خلقهم، وأعطاهم هاتين الدارين على هذه الصفة، هذه ممرٌّ، وتلك مقرٌّ، هذه ممزوجة بالآفات والأخطار والعسر والنكد والضيق ومزاحمة الشيطان، وتلك محشوَّة بالأفراح والحبور والسرور، فالعدل أن تحب خالقها وتقبلها منه على سبيل ما وصفنا لك، فمَن حاد عن هذا العدل فقد بخس بحظِّه، واستعمل حبه فيما يلهف عليه غدًا، فمن أقبل على نفسه فأحبَّها افتتن، والمفتون بالآخرة هو محمودٌ على ذلك، وحقٌّ له أن يُفتن بها؛ لأنها دار الله وفيها يَلقى ربَّه، ومفتونٌ بالدنيا، وهو مذمومٌ ملوم على ذلك؛ لأنها دار الحرب، ومحل الابتلاء، ومباض الشياطين ومعدنهم.

أولاً يستحي المؤمن أن يتعمَّل حبه من المزابل ومساكن الشياطين، وشهوات بالية زائلة.

وقال الله تبارك اسمه: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ ﴾ [آل عمران:14]، فذهب هذا الكيِّس، فصرفه حبه إلى خالق الشهوات، حتى وجدت النفس لذَّة هذا الحب، فأفقدت لذة الشهوات فسلم منها، فإن تناول الشهوات بالله يتناولها، وإذا هو قد سَلمَ من آفات الدنيا، وتضاعفت اللذَّة جزاء من أقبل على الله، وأعرض عن نفسه، وهداها بوِدَاد الله.

ولذلك قال: يا داود عادِ نفسك، ووِدَّني بعداوتها، فالمودَّة إذا رسخت وامتلأت النفس منها، وهدت عن كل شيء سواه، وعرفت هذه اللذَّات في تلك اللذات.

---

(1) رواه البيهقي في كتاب الزهد الكبير، فصل في ترك الدنيا..، حديث رقم (247) [134/2].

المستدرك الثامن

«باب في حقيقة بسم الله»

قال أبو عبد الله رحمه الله: وسألتم عن حقيقة: بسم الله، فإن الدنيا لها سُم؛ لأنها شهوات ملهيّة عن الله، فبـ «بسم الله» يؤخذ السُم حتى لا يضر، وهو ترياق الدنيا وبازهرها، وبـ «الحمد لله» يخرج العبد إلى الله من وبالها، فقد خفف الله عن العباد، فيخرج إليه من وبالها، وإنما حقيقتها لمن وصل إلى الألوهة.

ورُوي لنا في الخبر: إن آدم - صلوات الله عليه - لما نزل عليه «بسم الله الرحمن الرحيم» قال: باسم ولدي من العذاب.

فإنما هذا لمن وصل إلى حقيقة الألوهة، ولم تنزل إلى أحدٍ بعده إلى وقت سليمان - صلوات الله عليه - ثم لم تنزل على أحدٍ بعد ذلك إلا على رسولنا صلوات الله وسلامه عليه.

فأمّا سليمان - صلوات الله عليه - فإنه مَلكَ الدنيا، فأُعطي «بسم الله الرحمن الرحيم» ليضبط ملكها، وأعطي رسولنا صلوات الله وسلامه عليه المُلك والنبوّة، وبُعث إلى الخلق كافة، فأُعطي ذلك ليقوى عليها.

ورُوي عن خالد بن الوليد ﷺ أنه وضع السُم على كفّه ثم قال: بسم الله الرحمن الرحيم، فشربه.

ورُوي عن سليمان التيمي نحوٌ من ذلك، وذلك أنه كانت له جارية سقته السُم، فقال: بسم الله وشربه، وقال: اذهبي فأنت حرة.

فحقيقة «بسم الله» لمن وصل إلى الألوهة، وحقيقة الحمد لمن وصل إلى عُشر الحمد بين يديه، إلى حمده الذي حمد به نفسه من قبل أن يحمده أحدٌ من خلقه.

المستدرك التاسع

«باب في الحمد»

قال أبو عبد الله رحمه الله: قوله: «الحمد» كلمة وافرة إذا قالها منتبهًا متيقظًا، وذلك أن هذه الكلمة خرجت مخرجِ المعرفة، ولو كانت نكرة لكان يقال: «حمدًا لله»، فلما ألحق بها الألف واللام، دلَّ كأنه يشير إلى شيء متقدِّم معلوم، فنظرنا إلى أول مَن سبق إلى هذا القول.

فوجدنا في الخبر أن آدم صلوات الله عليه لما عطس قال: «الحمد لله»، فهو أول كلمة نطق بها، فكان الذي نطق به على المعرفة لا على النكرة، كأنه يشير إلى حمدٍ متقدِّم.

فنقول ذلك الحمد، فنظرنا فإذا هو: «الحمد لله» الذي حمد ربنا نفسه قبل أن يخلق خلقه، فذلك الحمد الوافر الكامل.

فأصل الانتباه إذا قالوا: «الحمد لله»، والألف بالألف، فإنما يشيرون بقلوبهم إلى ذلك الحمد الذي حمد به نفسه، لوفارة النور وكمال النطق، يقولون: ذلك الحمد لله.

فلهذا جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«سبحان الله نصف الميزان، والحمد لله تملأ الميزان»[1]، فإنما تملأ الميزان من كلمة إذا قالها على ما وصفت، يشير بقلبه إلى ذلك.

---

(1) رواه أحمد في المسند، من حديث سلمة بن نعيم ﷺ، برقم (18313) [360/4]. وتتمة الحديث: «والله أكبر تملأ ما بين السماء والأرض، والطهور نصف الإيمان والصوم نصف الصبر».

المستدرك العاشر

«باب في السواد الأعظم»

قال أبو عبد الله رحمه الله: وسألت عن قوله: «إذا اختلف الناس فعليكم بالسواد الأعظم»[1]، فالسواد الأعظم من أجاب داعي الله في الصلوات الخمس والجُمع والأعياد، وصام شهر رمضان، وحجَّ البيت، وأدَّى الزكاة، ومرَّ في الشريعة مع العامة؛ فهذا السواد الأعظم.

وسألتم عن الجنة والنار هل يفنيان؟ فهما وعاءان للرحمة والسلطان، فكيف يفنى الرحمة والسلطان، وهما خلقان للثواب والعقاب، يتجددان في جديد كل يوم لتجدد حركات العباد ومقاصدهم، ويتلونان بألوان النعمة والعذاب، على تلون العباد هاهنا، فكيف يجوز الفناء ؟.

فإن قلت: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص:88]، فالهلاك عين الفناء، وليس بداخل هذا في ذاك.

وسَألتم عن الخير والشر، فهو من الله ربوبية، ومن العباد حركات، فأهل الحق توقوا أن يضربوا إحداهما بالأخرى، إن الله - تبارك اسمه - غير منقطع ربوبيته، والعباد غير منقطع حركاتهم ما داموا أحياء، والله غير مطلوب بالربوبية، والعبيد مطلوبون بحركاتهم، ولله المبالغة عليهم في ذلك.

وسألت عن طغيان العالم، فإنما يطغى؛ لأنه يعجب بنفسه في عمله، ولا يراه منَّة من الله عليه، والطغيان من الغنى.

قال الله ﷻ: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝ ﴾ [العلق:6، 7]، والاستغناء من الإعجاب بعلمه، وكفران النعمة، وفقد رؤية المنَّة.

---

(1) رواه أحمد في المسند، من حديث أسامة بن شريك ﷺ حديث رقم (18473) [278/4] وحديث رقم (19370) [375/4].

وسألت عن قوله: «طوبى للغرباء»[1].

فهم الفرّارون بدينهم، فإذا كان الزمان آخره يرى المنكر معروفًا والمعروف منكرًا، فأهل التقوى فرّارون بدينهم، وهم غرباء بين الخلق.

وسألتم عن الرجل متى يكون موحدًا، واعلموا - رحمكم الله - أن لكل فعل درجات، فأدناها أن توحِّده بقلبك، وتعترف بتوحيده بلسانك، وأعلاها أن لا تركن لأحد سواه.

(1) رواه أحمد في المسند، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، حديث رقم (6650) [177/2] ورواه الطبراني في الأوسط، من اسمه مقدام، حديث رقم (8985) [14/9] ورواه غيرهما.

المستدرك الحادي عشر

باب في صفة المؤمن

قال أبو عبد الله- رحمه الله -: وإن ابن آدم مطبوعٌ على سبع وهي: الغفلة، والشك، والشرك فهو يعلم ربه يقينًا، وينفي عنه الشرك، وزال عنه الشك، ثم لما جاءت الشهوة، فأظلمت الصدر بدخانها وفورانها، ذهب ضوء علمه واستنارته، وتحيَّر في أمر ربِّه كالشاك، وظهر شرك الأسباب، وكلما ازداد العبد معرفةً وعلمًا بربِّه، استنار قلبه وصدره، واستيقظ من الغفلة، ومن هذه الخصال السبع كلها حتى يمتلئ صدره من عظمة الله وجلاله، فعندما كشف الغطاء، وصار يقينًا، وزايله شرك الأسباب، وماتت الشهوة، وذهب الغضب، وذهبت الرغبة والرهبة، فلا يرغب إلا إلى الله تعالى، ولا يرهب إلا منه، ولا يغضب إلا في ذات الله تعالى، ولله تعالى، ولا يستعمل شهوة إلا بذكر الله.

تمّ بحمد الله، وصلواته على سيدنا محمد، وآله الطيبين الطاهرين، وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين، وحسبنا الله ونعم الوكيل.





إثبات العِلل الشرعيّة

تأليف

الحكيم الترمذي

أبي عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن بشر

المتوفى ٣٢٠هـ

ضبطه وصححه وعلّق عليه

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين ولي الحمد وأهله.

أمَّا بعد...

فإنك سألتني عما اختلف الناس فيه من إثبات العلل في الأمر والنهي.

فقال قائلون: هذا تعبُّد من ربنا، خلقهم فتعبدهم للأمر والنهي، وليس لأمره علة، وإنما هو امتحان وابتلاء.

وقال آخرون: هو ابتلاء وامتحان تعبدهم به، وليس يدفع هذا أحدٌ مِنَّا، ولكن عللها قائمة علمها مَن علمها، وجهلها مَن جهلها.

وسألتني أن أشرحها بمبلغ علمي، فاعلم أن الله - تعالى - خلق الخلق عبيدًا ليعبدوه فيثيبهم على العبودة، ويعاقبهم على تركها.

فإن عبدوه فهم اليوم عبيدٌ أحرار أخيار كرام، وغدًا أحرار وملوك في دار السلام، وإن رفضوا العبودة فهم اليوم عبيد أُبَّاق سفلة لئام، وغدًا عبيد أعداء في السجون بين أطباق النيران.

فأول ما اقتضى العبيد معرفته ثم توحيده اعترافًا به وقبولاً للعبودة وهي الأمر والنهي، ثم اقتضاهم الوفاء بذلك إلى يوم الممات، فمَن وفي له بذلك سقط عنه الوزنُ والحسابُ، ودخل دار السلام.

ومَن عَرف واعترف بما عَرف، وهو القول به، وقبل العبودة، ثم وفَى ببعض العُبودة وضيع بعضًا، وقع في الوزن والحساب، واحتبس عن دار السلام في موضع الوزن والحساب على قدر الوفاء والتضييع.

فيقال لهذا الذي نفى العلة، وقال: هو ابتلاء وامتحان، فهذا الابتلاء لاستخراج سرائرِ العباد، فإنهم قد نطقوا بالتوحيد.

والذي انضمر عليه العباد لا يعلمه إلا علاَّم الغيوب، فامتحنهم بالأمر والنهي؛ ليظهر مـــا في القلـــوب، فـــإذا أثاب وعاقب وقدَّم في الثواب وأخَّر، وكان عذره ظاهرًا في عَرْصَـــة القـــيامة، فلم يتحير الخلق في قضائه وعدله، يوم يجمع الله الملائكة والرسل وسائر الجنود الذين لا يُحصوَن.

ورد في الخبر: «ولا أحد أحب إليه المدح من الله[1] - تعالى - ولا أحد أحب إليه العذر من الله»[2].

وكذلك رُوي في الخبر عن رسول الله ﷺ حديثًا بذلك [عن] الجارودُ بن معاذ، حدثني أبو معاوية عن الأعمش عن شقيق عن عبد الله عن رسول الله ﷺ: «ومَن أحب المدح أحب أن يكون أمره ظاهرًا يعرفه الجميع لئلا يتحير الخلق في مدحه»[3].

فإن قال قائل: هذا علة ابتلاء وامتحان، فقد أثبت العلة في الأمر والنهي. وإن قال: إن هذا ابتلاء وامتحان.

قلنا: فإن عاقبة الامتحان ما ذكرناه فقد ناقض قوله، إلا أن يكون الابتلاء أيضًا عنده غير معلول فقد تهول.

وإن قال: ابتلاهم ليستخرج ضمائرهم وسرَّهم فيكون عذره غدًا في الثواب والعقاب ظاهرًا، فقد أثبت العلة.

وإن قال: ابتلاهم لا لعلة، فقد أكذبه التنزيل، حيث يقول الله - تعالى -: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ [البقرة:123].

وقال ﷻ: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد:31]. وقال ﷻ: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب قول النبي ﷺ لا شخص أغير من الله، حديث رقم (6980) [2698/6] ورواه مسلم في صحيحه باب غيرة الله تعالى..، حديث رقم (2760) [2114] ورواه غيرهما ونصه: عن المغيرة قال قال سعد بن عبادة لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال تعجبون من غيرة سعد والله لأنا أغير منه والله أغير مني ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا أحد أحب إليه العذر من الله ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين ولا أحد أحب إليه المدحة من الله ومن أجل ذلك وعد الله الجنة».

(2) نفس المرجع السابق

(3) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

﴾ [العنكبوت:2]. وقال ﷻ: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء:35]. وقال ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ ﴾ [العنكبوت:3]. وقال ﷻ: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ [المدثر:31].

ويقال للذي نفى العلة: يؤخَّر في مخاطبتك بمسألة، فإن خرجت منها وإلا فقد كُفينا أمرك.

حدِّثنا عن الله – تبارك وتعالى- أنه أمر العباد بما أمر ونهاهم عما نهىَ جُزَافًا أم من الحكمة؟

فإن قال: جُزافًا، فقد أهمل وعطل الأمر نسبة إلى اللعب.

وإن قال: من الحكمة خرج الأمر والنهي إلى العباد، قيل له: فهات تلك الحكمة ما هي؟ فهل أنت إلا عاجز عن الحكمة وعن دركها؟

الا أنك مسلوب نور الحكمةِ، وصدرك مشحون بدخان الشهوات، فإن حريقها يُدخِّن الصدر ويظلمه.

فإن أتيت من هذا قال له قائلٌ: اشرح لي هذا الباب.

قال: نعم إن الله – تعالى – فضَّل العلماء بهذا العلم، فمَن رعاه حق رعايته أتاه ظاهر العلم وباطنه، وظاهره على اللسان، وهو حُجة الله على خلقه، وباطنه في القلوب.

فذلك العلم النافع: وهو قول رسول الله ﷺ «**العلم علمان: فعلم في القلب فذلك العلم النافع، وعلم على اللسان فذلك حجة الله على ابن آدم**»[(1)].

والحكمة ما بطن من العلم، والباطن هو لُباب الشيء، والظاهر هو قشر الشيء والانتفاع باللُباب لا بالقشر، والعلم وديعة الله – تعالى – في الصدور، والوديعة أمانة فمَن خان الأمانة حرم لبابه، وإنما يُبقي معه قشره؛ فمثله كمثل جوزة عفنة، أو بيضة مدرة باطنها ميتة وظاهرها طيبة؛ وكمثل الفتيلة تحرق نفسها وتضيء لغيرها فلمَّا تركوا رعايتها خانوا الأمانة. قال له قائل: وما

---

(1) رواه الدارمي في السنن، باب التوبيخ لمن يطلب العلم لغير الله، حديث رقم (364) [114/1] والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، حديث رقم (2179) [346/4].

رعايتها؟

قال: إن العلم نور به يُهتدى إلى الله - تعالى - في منازل القربة في دار السلام حتى يبلُغ درجات الوسائل، فهو في القلب، وتدبيره في الصدر، وانصدار عمله من الصدر إلى الجوارح.

والنفس ذات شهوة وهي جاهلة لاشتغالها بلذاتها وعماها بظلمة دخانها، فذهب هذا الذي حُبِيَ وأكرم بهذا النور، فتعزز به وافتخر وتكبَّر على عباد الله - تعالى - وَرَائى، وطلب به الجاه عند خلقه حتى خرج إلى أن اكتسب به أحوال النفس مِن العزِّ والثناء والمدحة والاستقصَاء في طلب الرئاسة حتى يحسدَ ويبغي ويحقِد ويُعادي ويَلهو ويُماري ويُكاثر ويُباهي ويُفاخر ويحرص على الجمع مِن غير وجهه حتى يؤديه إلى منع الخوف والتبذير والإنفاق من غير وجهه، ويلهيه عن مواعظ الله - سبحانه - والوعد والوعيد والموت الذي يُعاينه في نظرائه، وشأن البلى في البرزخ والحشر والحساب، وأهوال يوم القيامة، والعرض على الله - تعالى - وتضييع العبودية، وحل الوثاق، ونقض الميثاق بموت قلبه، وتهمل جوارحه عن جميع الورع، ولحياته مع هذا كله العلم.

فإن حياته بقيت حتى لم يأتها، وكيف يطمع هذا في لُبابِ العلم؟! وقد علم الله - تعالى -: أنه لمَّا نال قشر الجوز اكتفي به عن اللباب.

فهل القشر إلا للنار؟! وإن له عبادًا لمَّا نالوا اللُباب بعد تقويمهم أنفسهم ولزومهم الاستقامة التفتوا إلى أنفسهم فرأوها، رأوا أنهم لما اكتفوا به عن القيام بحقها صرخوا إلى الله - تعالى - كصراخ أهل الكبائر، ورأوا أنهم في نفاق لِما قد فقدوا الوفاق من إهمالهم بعلومهم، فإن العلم صاف، والنفس كدرة، والعمل مخرجه من النفس،وممره من الصدر عليها. فمِن هاهنا قال علقمة حين قيل له: أتؤمن؟ قال: أرجو.

وقال الحسن البصري: الإيمان قول وعمل. وقال: ليس الإيمان بالتحلي والتمني؛ ولكن الإيمان ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال.

فالحكمة إنما ينالها مَن راضَ نفسه رياضة أقامها على جميع حقوقه وأوامره حتى يخلي صدره من الشهوات، وصار كمفازة لا أنيس فيها، وصار قلبه أجردًا

أزهرًا كما وصف رسول الله ﷺ فقال: **«قلب المؤمن أجرد أزهر»**[1].

إنما صار أجرد حين تجرد وتخلى مِن شهوات النفسِ الأمَّارةِ بالسوءِ، وإنما صار أزهر لمَّا أشرق إيمانه حين خرج من سحائب الشهوات ومناها بمنزلة شمس خرجت مِن كسوفها. فالإيمان شمس القلب، وكسوفه إذا غشية دخان الشهوات وفورانها.

ورُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«إن لله – تعالى – أواني في الأرض ألا وهي القلوب، فخيرها أصفاها وأرأفها وأصلبها : فأصفاها من كدورة الأخلاق، وأرقها للمؤمنين، وأصلبها في ذات – الله – تعالى»**[2].

ولهذا شَرحٌ طويلٌ قد ذكرناه في كتاب «صفة القلوب ومنازلها».

رُوي عن رسول الله ﷺ: أنه سُئل أي المؤمنين أفضل؟ فقال: **«كل مخموم القلب صدوق اللسان»**.

قيل: ما مخموم القلب؟ قال: **«النقي التقي الذي لا إثم فيه ولا بغي ولا غل ولا حسد»**[3].

معناه عندنا: تقي مِن الإثم والبغي، نقي من الغلِّ والحسد.

قال أبو عبد الرحمن – رحمة الله عليه –: عُدنا إلى ما ذكرناه بدءًا.

قلنا: وإذا راضَ نفسه، وتخلى عن الشهوات خلا صدره، فإذا كان كذلك شرحه الله بنوره وامتلأ صدره من النور، فبنوره تلاحظ الحكمة في محلها، فينال بملاحظته منها علل الأمر والنهي، ويلاحظ المقادير في محلها؛ فينال منها ملاحظته علل أعمال العُمَّال.

كيف لطف ربنا ﷻ في قسمتها بين خلقه؟ وكيف حسن تدبيره فيها؟

ويلاحظ أمر الكتاب في محله، فينال منها بملاحظته علل ما يمحو أو يكتب فيها بمشيئته، ويلاحظ مجرى القضاء في ملك الجبروت؛ فتُحكم له هذه اللحظات

---

(1) أورده الحكيم الترمذي في نوادر الأصول، في فضيلة صوم شهر رمضان، [188/3].

(2) نفس المرجع السابق.

(3) رواه ابـــن ماجه في سننه، باب الورع والتقوى، حديث رقم (4216) ورواه الطبراني في مسند الشاميين، حديث رقم (1218) [217/2] ورواه غيرهما.

كلها. فإنما ينال هذا كله بنوره الذي يشرق على قلبه من صدره. وهو قوله ﷻ: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ [الزمر:22].

وفي هذا الباب كلام كثير إنما يخاطب به أهله، عجزت العامة عن درك ذلك فهمًا فطويناه عنهم لئلا تظلم الحكمة.

فإن عيسى عليه السلام قام خطيبًا في قومه فيما رُوي عن نبينا محمد ﷺ عن عيسى - عليه السلام - أنه قال: يا بني إسرائيل لا تظلموا الحكمة، فتضعوها في غير أهلها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم. فلو قلنا للعامة: قال الله - تعالى -: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ [الزمر:22]. أي نور هذا؟ لعجزت عن جوابه، ولو هديتها لم يهتدوا ولا قدرت على احتماله.

فمَن طلب علل هذه الأشياء من الحكمة، فإنه لم يطلبها على وجه المخاصمة والمنازعة والمجادلة والمماراة؛ بل قبلها مِن ربه أحسن قبول ثم طلب عللها من الوجه الذي ذكرنا، وبذلك النور لاحظ واستبان له حمد الله، وكان علم ذلك له على القيام به أعون؛ لأن الصدر منشرح له، والقلب مشرق، وإنما يحرم طلب هذا مِن جاهل يجادل في قانون الحق، وهذا قول ملحد نازع الله - تعالى - في العبودية لزيغ قلبه، فأمَّا مَن قبل وتَدبَّر سلم نفسه لله تسليمًا فيما عقل العلة وفيما لم يعقل، ثم أُوتي حكمتها فنطق بها؛ ليشرح الله - تعالى - صدره به وعلى لسانه صدورًا مظلمة؛ فتستبين وتستنير على قلوبهم فهذا محمود مغبوط؛ ومثل ذلك كمثل رجل في يده جوهرة وهو ممَن يعرف الجوهر إلا ما ظهر على عينه منه فوشيكًا أن يخدع عنه، والذي يبصر الجوهر لا يخدع عنه ولا يغبن، فكمْ من رجل من العمال يؤثر مداني الأعمال على معاليها لجهله أو لقلة معرفته لجواهرها، فهل أُوتي ذلك إلا من حرمان الحكمة؟!

قال الله - تعالى -: ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾ [البقرة: 269]. فأهل اللُبُّ فهموا هذه الأشياء. وقال تعالى: ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [آل عمران:48]. فالكتاب علم الظاهر، والحكمة باطنه. ومن هاهنا قول رسول الله ﷺ : «ما من آية إلا ولها ظهر

وبطن»[1].

وقيل له: **«يا رسول الله، إننا نجد لقراءتك لذة ما نجدها لقراءة غيرك، قال: لأنكم تقرؤونه لظهر، وأنا أقرؤه لبطن»**[2].

معناه عندنا: إنه كان يقرأ ويُطالع الحكمة، فيلذُّ المستمع لقراءته؛ لأن تلك قراءة كسوتها نور الحكمة.

فمَن عجز عن هذا فإنما قراءته در، والكلام عابر بلا كِسوة، وكذلك مَن عمل أعمال البرِّ بلا نور ينشرح به صدره، فإنما هي قوالب خالية، فمَن له زق من الشراب أهديته إلى ملك، وفي أسفله من الشراب شيء قليل، وقد نفخت فيه نغامته ريح، وهو في رأي العين ممتلئ فلما حلَّ الوكاء بين يدي الملك، خرجت الريح، وبقيت الجلدة ساقطة وفي أسفلها شيء يسير، فهكذا صفة مَن عَمِل من أعمال البرِّ على غفلة، وإنما عملها على العادة والسائد يؤذي. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ [لقمان: 12].

فالحكم لخاصة - الله - تعالى، وإنما صاروا خاصته؛ لأنهم جاهدوا نفوسهم في الله حق جهاده، فأخلوا صدروهم من حب النفس وشهواتها فاستوجبوا الرحمة، وأُمدُّوا بالنور فلما أشرق النور في صدورهم طالعوا الحكمة بعيون القلوب.

وهو قول رسول الله ﷺ: **«إذا قُذف النور في قلب عبد انفسح وانشرح قيل: يا رسول الله، هل لذلك من علامة يُعرف بها؟ قال: نعم، الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار غرور،والاستعداد للموت قبل نزول الموت»**[3].

ثم قرأ: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ [الزمر: 22] **قال له قائل: قد ذكرت أنه يؤثر مداني الأعمال على معاليها، فما هذه الأثرة؟**

---

(1) رواه عبد الرزاق في المصنف بلفظ: «عن الحسن قال لا تتوسدوا القرآن فوالذي نفسي بيده أشد تفصياً من الإبل المعلقة أو قال المعقولة إلى عطنها، والذي نفسي بيده ما منه آية إلا ولها ظهر وبطن وما فيه حرف إلا وله حد ولكل حد مطلع» حديث رقم (5965) [358/3] ورواه غيره بألفاظ أخرى متقاربة.

(2) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(3) رواه بنحوه البيهقي في الزهد الكبير، حديث رقم (974) [356/2] وأبو محمد الأنصاري في طبقات المحدثين، برقم (76) [452/1].

ومثل ماذا؟ قال: مثل قوله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾ [النساء:1]. **ثم قال:** ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ [النساء:1]. **وقال:** ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: 131].

فلو وقف أحد من العمال على هذه الأربع، هل يقدر أن يُخرج منها علمًا، أو يُميز بين هذه الأربع؟ ثم يتقي الرب، وبِمَ يتقي الله؟ وبِمَ يتقي اليوم؟ وبِمَ يتقي النار؟

فإذا لم يجد عنده علم هذا، علمت أنه يجهل أن يعبد ربه، والجاهل لا يُحسن أن يعبد ربه.

ومثل قوله ﷺ حيث قيل له: **أي الأعمال أفضل؟ قال: «إدخال السرور على قلب المؤمن»**[1].

فهل يقصد العمال لهذا الأفضل؟ !

ومنه قوله ﷺ: **«أنا وكافل اليتيم يوم القيامة كهاتين، وأشار بأصبعيه»**[2].

فأي بقعة أشرف وأنور وأروَح وآمن وأسلم من تلك العرصة من البقعة التي يقف عليها رسول الله ﷺ فهل يقصد لهذا أحد؟!.

ومثل قوله ﷻ: ﴿ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾ [الشورى:40].

فصير أجره ضمانًا ووعدًا، وقال ﷺ: **«أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا والطفهم بأهله»**[3].

فهل نجد أحدًا مع أهله يميل إلى مثل هذه الأشياء؟

إنما عامتهم تميل إلى عمل أهل الخداع صلاة وصومًا وحجًّا وجهادًا مع تخليط، ورياءٍ وصلفٍ وتيهٍ وتكبرٍ وتصنعٍ وإعجاب.

فلو برأت صدروهم من هذه الأسقام، إذًا لذهب سُقم إيمانهم، وطالعوا الحكمة

---

(1) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء عن ابن عمر ﷺ، [348/6].

(2) أورده بلفظـه ابن حجر العسقلاني، حرف الذال المعجمة، برقم (12010) [202/8] وروى نحـوه الـبخاري في صحيحه، باب اللعان، حديث رقم (4998) [2032/5] وروى نحوه الترمذي في صحيحه، باب ما جاء في رحمة اليتيم، حديث رقم (1918) [321/4]. وروى نحوه غيرهما.

(3) رواه الحـاكم في المستدرك، كتاب الإيمان، حديث رقم (173) [119/1] وروى نحوه ابن حبان في صحيحه، ذكر البيان.. (479) [227/2].

فقصدوا الأمور على حسب جواهرها، وهم في العبادة إذا أخلصوا لا في العبودية وإن لم يخلصوا فهم في بطالة، وسنكشف لكم عن بعض هذه العلل، إن شاء - الله - تعالى.

ومع هذا يستيقن أنه لم يكن في المقادير شيء يجري على العباد إلا بحكمة، ولم يخرج إلى العباد من وجه من الأمر والنهي إلا لحُجة.

وعن الحسن قال: إن الله - تعالى - لم يوصل إليه دون حجبه غير ثلاثة: الرحمة عن يمينه، وأم الكتاب عن يده الأخرى، والحكمة بين يديه يدبر فيها أمور عباده، ثم قرأ:

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ﴾ [القصص: 68].

قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [الإسراء:30].

وعن الحسن - رحمه الله - قال: ما أدركنا من هذه العلل من طريق الحكمة تكلمنا فيه وبيَّناه تأويلاً للحكمة لا حكمًا على الله في غيبه، وما خفي علينا سلَّمنا له، والعبودة لله منَّا فيه قائمة.

وعن عيينة قال: جاء رجل الى علي بن أبي طالب ﷺ، فقال: يا أمير المؤمنين، ما الإيمان؟

قال: الإيمان على أربع دعائم: على الصبر، واليقين، والعدل، والجهاد.

والصبر منها على أربع شعب: على الشوق، والتشفق، والزهادة والترقب.

فمَن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات، ومَن أشفق من النار رجع عن الحرمات، ومَن زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات، ومَن ارتقب الموت سارع إلى الخيرات.

واليقين على أربع شعب: على تبصرة الفطنة، وتأويل الحكمة، وموعظة العبرة وسُنة الأولين.

فمَن تبصَّر الفطنة تأوَّل الحكمة، ومَن تأوَّل الحكمة عرف العبرة، ومَن عرف العبرة فكأنما كان في الأولين.

والعدل على أربع شعب: على غامض الفهم، وزهرة العلم، وشرائع الحكم، وروضة الحكم، فمَن فهم فسَّر جميل العلم، ومن علم عرف شرائع الحكم، ومَن حلم لم يفرط في أمره وعاش في الناس محمودًا.

والجهاد على أربع شعب : على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصدق في المواطن، وشنآن الفاسقين.

فمَن أمر بالمعروف شدَّ ظهر المؤمن، ومَن نهى عن المنكر رغِم أنف المنافق، ومَن صدق في المواطن قضى ما عليه، ومَن شنأ الفاسق، ومن غضب الله - تعالى - غَضِب الله - سبحانه - له، فقام رجل فقبّل رأسه.

فقوله: مَن تبصر الفطنة تأوَّل الحكمة، ومَن تأوَّل الحكمة عرف العبرة.

فهو تحقيق ما وصفنا بدءًا.

وكذلك قوله: مَن فهم فسَّر جميل العلم، ومَن علم عرف شرائع الحكمة.

تحقيق ما قلنا؛ فإن الله - سبحانه - شرَّع لكلِّ رسولٍ شريعة الأمر والنهي من الحكمة البالغة، فمَن علم ذلك فقد عرف الشرائع، فهذا صِنف.

والصِنف الآخر: هم أهل الفهم لهذا العلم، فإنما يُفسِّرون جميل العلم، فإن للعلم جمالاً وجماله في باطنه.



ذكر علَّة الإقرار بالتوحيد

فأول ما نبدأ بذكر علة الإقرار: التوحيد.

فنقول: إن الله - تعالى - اقتضانا المعرفة، والمعرفة بالقلب، واقتضانا الإقرار به نطقًا.

فمَن لم يفهم علته زاغ عن القصد وانتظم في الجور، وزعم أن المعرفة تجزئ عن الإقرار، وإنما حمله على ذلك القياس.

فقال: إن القلب مجمع الأركان ومَلِكها، فإذا عرفه بقلبه، وعقد الولاية والتسليم إليه، فالأركان تبعٌ له، وقد اكتفى به.

وإنما الإقرار عمل اللسان وهي جارحة من الجوارح، وسائر الأعمال كذلك، فأُنزل تارك الإقرار منزلة تارك الأعمال، فلو عرف علَّة الإقرار الذي اقتضى إبداله عَوار.

قوله: ومَن خفيت عليه العلَّة من أهل الحق والصواب لم يكن عنده أكثر من أن يفزع إلى الآية محتجًا بها. من قوله سبحانه: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا ﴾ [البقرة : 136]. فاحتجَّ بها على مخالفه، ولم يكن عنده وراء هذا شيء.

فالمخالف يتأوَّل عليه في هذه الآية ما يحيرُه ويشبه عليه، فيقول: هذه ندبة، وقد ندب إليها.

ألا ترى أنه يقول في إثرها: ﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ ﴾ [البقرة: 137]، ولم يقل: فإن قالوا بمثل ما قلتم به فقد اهتدوا، فإذا كانت الآية وحكمة الآية إلا كأخذٍ بالنفس كافية باليقين؛ لأن الله - تعالى - دعا الخلق إلى أن يعرفوه فيوحدوه قلبًا، فلو اكتفى منهم بذلك ولم يقتضهم الإقرار به؛ فكان إذا عرفوه ووحدوه؛ حرُمت دماؤهم وأموالهم وأعراضهم وصاروا أحباء في ذمته، كان ذلك سرًّا فيما بينهم وبينه.

فمتى كانت تقوم حجة الله - سبحانه - على مَن تناول منًّا دمًا أو عِرضًا أو مالاً، فيقتصُّ لهم في الدنيا، ويُنتقم لهم في الآخرة؟!

فمَن تناولهم؛ فالله - تعالى - يقاصُّهم في تلك العرصة يوم القيامة، ويمدُّ ذلك اليوم طولاً؛ ليبرز عدله على الجميع؛ فيهلك في عدله مَن هلك، ثم يُهطل فضله على أهل رحمته حتى لا ينجو أحد ممَن نجا إلا بفضله وبرحمته، فإذا لم تقمْ الحُجة في دار الامتحان كيف يُقدِّر عدله هناك عنده!

فإن سأله: ما حملك على سفك دم عبدي وعلى تناول عرضه أو ماله وهو في ذمتي وذمة الإسلام الذي قَبِله منِّي؟

قال: لم أعلم أنه في ذمتك، ولا علمت ما في قلبه لك من المعرفة والجهل والتوحيد والشرك، فاقتضى الله العباد الإقرار بالإيمان؛ لتكون حُجة - الله - تعالى قائمة، كما بعث الله الرسل ليبين لهم؛ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل أن يقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير.

فهذه علة الإقرار، صيَّر الله - تبارك وتعالى - اسمه هذه الكلمة عصمة للمؤمنين في الدنيا والآخرة.

فأمَّا في الدنيا: فحرمة الدم والعرض والمال.

وأمَّا في الآخرة: فإن كان مُسيئًا فمرَّ على حدِّ النقمة؛ فنالته ألسنة النار وشرورها ولهبها، نُوديت النار: أن لا سبيل لك على لسانه الذي كان مَدرجه توحيدي.

ولذلك قال رسول الله ﷺ: «أُمرت أن أُقاتل النَّاس حتى يقولوا: لا إله إلا

الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله»(1).

فقد بان في الحديث علة الإقرار لما ينبغي من الخلق.

وما رُوي عن أسامة بن زيد: حيث حَمل على رجل في القتال، فقال الرجل: لا إله إلا الله فقتله، فبلغ الخبر رسول الله ﷺ فقال لأسامة: «أقتلته وهو يقول: لا إله إلا الله ؟ فقال: يا رسول الله إنما قالها تعوذًا من القتل، فقال: فهلاً شققت عن قلبه، قال: وما قلبه إلا بضعة من لحم، فقال رسول الله ﷺ: فلا ما في قلبه علمت، ولا لسانه صدقت! أقتلته وهو يقول: لا إله إلا الله؟! فما زال يرددها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت إلا يومئذ»(2).



ذكر علّة الأعمال

وأمّا علة الأعمال، فإنهم لما عرفوه قلبًا، واعترفوا به نطقًا، وأظهروا هذه الكلمة، اقتضاهم الوفاء بها وهي الأعمال، فلو لم يدعهم إلى عمل الأركان، وقدموا عليه يوم القيامة ما كان لهم محل.

ومنهم: مَن اعترف باللسان وهو منافق. ومنهم: مَن اعترف وعرف بقلبه، ثم زاغ ببعض الأهواء. ومنهم: مَن عرفه بقلبه واعترف به، ثم قصر في أمره ونهيه. فهل كان ذلك التقصير إلا مِن سُقْم في إيمانه ومعرفته؟ فمتى كان يظهر عند الجمع من الملائكة والرسل؟

وجنود ربك يومئذٍ في تلك العرصة، شأن أهل الثواب والعقاب، وكانوا لا يرون من ربهم شيئًا إلاّ أن يأمر بواحد إلى الجنة، وبواحد إلى النار، وبواحد إلى أعالي درجات الجنان، وبواحد إلى أدانيها.

---

(1) رواه البخاري في صحيحه في أبواب عدة منها: باب «فإن تابوا وأقاموا الصلاة..) حديث رقم (25) [17/1] ورواه مسلم في صحيحه في بابين أحدهما: باب الأمر بقتال الناس..، حديث رقم (20 — 21 — 22) [1/1 — 2 — 53] ورواه غيرهما.

(2) رواه النسائي في السنن الكبرى، (12 قول المشرك لا إله إلا الله) حديث رقم (8594) [5/ 176] ورواه الطبراني في الكبير، عن شهر بن حوشب بن جندب، حديث رقم (1732) ورواه غيرهما.

وكان أهل الجمع يومئذٍ في حيرة عظيمة في شأن الرب ﷻ مع العباد.

ومتى كان يظهر عدله عندهم في قسمة دار الثواب؟!

ومتى كان يظهر قوله: ﴿ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة:30]؟

حين قال للملائكة: ﴿ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ ﴾ [البقرة:30].

فقالت الملائكة: ﴿ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا ﴾ .

ومتى كان يظهر عذره في منعه الملائكة الجنة حين سألته، فقالت: **«نحن الملائكة المقرَّبون، ونحن الصافون، ونحن المسبحون، ومنّا الكرام الكاتبون، أُعطيت بني آدم الدنيا، فاجعل لنا الآخرة، فقال: لن أفعل، فسألوه ثانية فأبي عليهم، فسألوه ثالثة فقال ﷻ: لن أفعل، لن أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له: كن فكان؟ هم عبادي المقربون»**.

ويقول رسول الله ﷺ: **«لا أحد أحب إليه المدح من الله، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، فمَن أحب أن يكون ممدوحًا أحب أن يكون معذورًا؛ لئلا ينكس مدحه عند خلقه»**[1].

فاقتضى الله العباد إظهار ما في قلوبهم له بأعمال الجوارح؛ لكي يكون شنآنه في الثواب والعقاب والتقديم والتأخير مكشوفًا، فكلٌ إنما يقدم بنور عمله وسيِّما جوارحه من الخير والشر.

ألا ترى أن هذه الأمة عُرفت من بين الأمم بأنهم: غرٌّ من آثار السجود، ومحجَّلون من آثار الوضوء.

وكذلك قوله: ﴿ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ﴾ [الفتح:29].

ورُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«إني لأعرف أمتي يوم القيامة، فإنهم يأتون غُرًّا من آثار السجود، ومحجّلين من آثار الوضوء»**[2].

فإذا أمر بأحدهم إلى الدرجات العُلى علم الجميع بم نال هذا.

---

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

(2) روى نحـوه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، حديث رقم (136) [63/1] وروى نحوه مسلم في صحيحه، باب استحباب إطالة الغرة، حديث رقم (249) [218/1] وروى نحوه غيرهما.

وقالت الملائكة بأجمعها من سماء طي رب العالمين بعَلّي الأصوات: بمَنِّ الله وفضله لا بعملك، وإذا أمر بأحدهم إلى النار قالت الملائكة بأجمعها: بذنبك، وما الله بظلاَّمٍ للعبيد.

فيفعل الأعمال إبراز ما في الضمائر لله - تعالى -، والله غني عن خلقه وعن أعمالهم.

ألا ترى إلى قول رسول الله ﷺ: «مَن أحب أن يعلم ما منزلته عند الله - سبحانه - فلينظر ما لله عنده من المنزلة، فإن الله - تعالى - ينزل العبد من نفسه حيث أنزله العبد من نفسه»(1).

فهل يعرف العباد بعضهم من بعض ما في ضمائرهم لله - تعالى-؟ وما في قلوبهم من العلم بالله - سبحانه؟

والمعرفة لله - سبحانه وتعالى - إلا بما يظهر على ألسنتهم من نشر آلائه وكرمه ومِنَنِهِ وأفضاله على عباده، وبما يظهر على أخلاقهم من الإخلاص والتخليط والصفاء والكدورة، وعلى أعمالهم من الوفاء والتضييع، والأمانة والخيانة، والإقبال والإدبار، والتوجه والإعراض، والقرب والبعد والانكماش في الجد والتراخي والكسل.

وقد قال ﷻ: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [محمد: 31].

أي: نستخرج ضمائركم مَن يجاهد نفسه في ذاتي، ومَن يصبر على تجرُّع مرارات رد الشهوات من أجلي.

وقال الله - تعالى -: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: 35].

فالعين حريق، والشهوات حريق؛ وإنما هي كجمرة موضوعة في جوف الآدمي فإذا جاءه من تدبير الله وقضائه ما يجب ثار حريق الشهوة قبل ترَحٍ؛ وإنما هي جمرة واحدة تثور بوجود محبوبها، تثور بفقد محبوبها.

فالعبد بين فرحٍ وترَحٍ، والمؤمن جعل فرحه شُكرًا، وتَرَحه صبرًا، إن جاءه ما يفرح به علم أنه من ربه، فقال: الحمد لله، وانكمش في الطاعة، وإن جاءه ما

(1) أورده الحكيم الترمذي في نوادر الأصول في سر العمل وعلانيته [79/4].

يكره؛ علم أنه من تقدير ربه وحكمه عليه، فانقاد له وتذلَّل.

والكافر جعل فرحه أشرًا وبطرًا، وتوثُّب في محارمه، وجعل ترَحه جزعًا وسخطًا على ربه بجهله بالله - سبحانه وتعالى -.

فإذ قدموا على ربهم جاء المؤمن بنور شكره ونور صبره، وجاء الكافر بظلمة بَطَرِه وظلمة جزعه، ثم يبين للمؤمن تفاوت وتفاضل في النورين، فكلٌ إنما يجيء من النور بقدر شكره وصبره، فإنما يشكر العبد ويصبر على قدر يقينه وعلمه بالله وثقته به وتوكله عليه ورضائه عنه وتفويضه إليه وقربه منه، فلو لم يظهر هذا بالأعمال متى كان يظهر تفاوتهم وتفاضلهم، فأول ما ابتلانا به من الأعمال الوضوء.



ذكر علَّة الوضوء

وأمَّا علَّة الوضوء فإن الوضوء: من موضع الحدث من بلة أو ريح يخرج من الجسد، وذلك أن آدم - صلوات الله عليه - كان منزهًا معصومًا من أن يجد الشيطان إلى جوفه سبيلاً؛ إذ هو في الجنة، فلما افتتن آدم - صلوات الله وسلامه عليه - بالتناول من الشجرة ولم يؤذن له، فإنما تناولها بخدع الشيطان، فوجد إلى جوفه سبيلاً مع تلك الأكلة التي نهاه الله - سبحانه - عنها، فاستقرت المعدة في موضع الفضول، فأنتن ذلك الموضع باستقرار هذا الرجس النجس هاهنا، فصار ذلك وراثة في ولده.

فهناك مستقرة في جوف الآدمي، فإذا خرج ريح الفضول أو بلة؛ فإنما يخرج من مستقره، وإن طريق إبليس من مواضع الحدث؛ فلذلك صار موضع الحدث؛ لأنه طريقة وليس له سبيل من قبل مخرج التوحيد والقرآن، فصار ذلك الطريق موضع حدث، فما خرج منها لزمها التطهير؛ لأنه ينجِّس بنجاسة الشيطان وكفره.

ولذلك قال أهل المدينة في الدم: إنه لا يجب فيه الوضوء، ولا في الرعاف ولا في القيء، من هاهنا أخذوه.

وقال أهل الفقه من أهل الكوفة: هذا كله نجس من طريق، فمن طريق النجاسة التزموه، ومن أجل هذه العلة صار نجسًا.

ألا ترى أن ما خرج من النصف الأعلى، والقيء إذا كان من الفمِّ من النخامة والقيء والبلغم ليس بنجس، والدم والعذرة والبول هو من مستقرِّه ومحله وهو نجس بنجاسته، فأينما خرج الدم فهو حدث، ولا يُنظر من أين خرج؟ إنما ينظر إلى نفس الشيء من أين جرى؟ هذا قول أهل الكوفة، وهو أشبه عندنا وأليق، فهذه علَّة الوضوء.



ذكر علَّة مواضع الوضوء

وأمَّا علَّة مواضع الوضوء التي أمر بغسلها فإنما هي: أطرافه؛ فطرف منها الوجه لما فيه من الرأس، والسمع، والبصر، والكلام الذي يجري بالخير والشر، وطرف منها الجناحان، وطرف منها وهما قدماه.

فهذه الأطراف كأنها قوالب الطاعة والمعصية؛ وإنما أمر أن يغسل بالماء من أطرافه جانبي الطول وجانبي العرض.

فأما جانبي الطول: فالرأس والقدمان.

وأما جانبي العرض: فاليدان إلى المرفقين.

فلما لم يوصل إلى تطهير الجوف؛ أُمر أن يطهِّر أطرافه وجوانبه، ومنه اشتق اسمه.

فقيل: توضأ من التوضية.

يقال: هذا وجه وضيء، وقد نجد مثل هذا في الخُفِّ والنعل يصيبهما قذر، وقد نشر باندواته، فأمر بغسل ما ظهر منه، فيكون مُجزيًا عمَّا بطن منه، وكذلك المسح على الخُفِّ يجزي عن غسل القدم.



ذكر علَّة الغُسل من الجَنابة

فأمَّا الغسل من الجَنابة: فإنه يجب ذلك بخروج الماء منه، وذلك ما قد جاور سائر مياه الأعداء في ظهر آدم - صلوات الله وسلامه عليه - وأصابته زهومة مائهم، فقد استقر في هذا المؤمن، وهو قوله: ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ [الأنعام: 98].

فإذا جرى فإنما يجري من جميع جسده، ومن أجل ذلك يلتذ جميع جسده.

ألا ترى إلى قول رسول الله ﷺ: «**تحت كل شعرة جنابة**».

فإذا جرى هذا الماء الذي قد أصابته زهومة مياه المشركين وأدناسها؛ أُمر بغسْل جميع جسده حتى يصل الماء إلى أصل كل شعرة جرى منها الماء، وأصل هذا الماء ومستقره في الصلب.

ألا ترى أنه إذا جرى فإنما يستمر من جميع الجسد؟

ومما يدل على تحقيق ما قلناه وجود اللذة بجميع الجسد من قرنه إلى قدمه، فكانت هذه النطفة مع النطف التي أخذ الله - سبحانه - ميثاقها يوم الميثاق، ثم ردَّها إلى صلب آدم عليه السلام.

فكانت النطف لها أطباق في ظهر آدم - صلوات الله عليه - ومحمد ﷺ في الطبق الأعلى فوق ذلك كله، فكل نطفة خَلق منها خَلقًا؛ فهي النطفة التي أحسن الله - تبارك اسمه - ميثاقها، ثم لمَّا أنشأها أُستمدت تلك النطفة من التربية والغذاء، وكان مستقرها في الظهر، فلم تزل تنمو وتستمد، حتى إذا أدرك الإنسان مدرك الرجال، وامتلأ الصلب فجرت بوجود اللذة.

فإذا مات الإنسان جرى ما كان من التربية والغذاء، فخرج من إحليله؛ فلذلك غسَّلوه بعد الموت.

فقد رُوي في الأخبار: «إنه ليس من ميت يموت إلا يجنب عند الموت»[1].

وذلك بجري ذلك الماء؛ ولذلك يجري الماء عليه.

فأمَّا أصل الماء الذي كان خرج من أبيه ومنه خلق؛ فإنه تلك الزبدة والمجة التي يمجها على شدقيه عند خروج الروح والنفس منه.

❖❖❖

ذكر علَّة الصلاة

وأمَّا علة الصلاة: فإن القيام تسليم النفس إلى الله - تعالى -؛ لأنه لمَّا أغفل جواره انتشرت في شهواتها ومُناها بما لم يؤذَن لها فيه، فجاء بها ليجدِّد تسليمًا؛ لأن الإسلام هو قبول العبد من ربه - تعالى - العبودية، وتسليم النفس إليه طواعية له فيما أمر به حفظ العبودية.

وهي ميثاقه الذي واثقه به، وواثق به جوارحه السبع وهي: السمع، والبصر،

(1) هذا الأثر لم أجد فيما لدي من مصادر ومراجع.

واللسان، والبطن، والفرج، واليد، والرِّجل؛ ولذلك سمي نبذة بالأعجمي؛ لأنه أوثقه عمَّا حرُم عليه، وأمره مع ذلك بأداء الفرائض.

فلما قبل العقد هذا من ربه، كان قد سلم نفسه إليه: فهو الإسلام، ثم اقتصاه الوفاء بذلك إلى انقضاء أجله، فلمَّا مرَّ في شهواته فيما لا يُحل له؛ احتاج إلى أن يجدِّد التسليم، كما أنه لو نقض الأصل فارتد إلى شهوة عبادة الأوثان؛ احتاج إلى أن يجدِّد الإسلام، فكذلك لمَّا ارتدَّ إلى شهوة المعاصي؛ احتاج إلى أن يجدِّد تسليم النفس طواعية له، فجاء مصليًا، والتصلية تذل النفس.

وانتصاب العبد بين يديه، فجاء فوقف بين يديه ممسكًا عن جميع الشهوات جامعًا لهذه الجوارح بين يديه؛ كهيئة العبد الذي يريد أن يفي بما ضمن من التسليم، وأن يتدارك ما فُرط منه فلمَّا فُرط منه ما فُرط مضى على تسلميه قلبًا وفعلاً؛ ولكنه لمَّا فرَّط في الوفاء؛ احتاج إلى أن يقف بين يديه معتذرًا ممَّا فرَّط مُسلِّمًا نفسه إليه.

ألا ترى إلى قول رسول الله ﷺ: «جدِّدوا إيمانكم قالوا: بماذا يا رسول الله؟ قال: بلا إله إلا الله»(1).

وعنه قال ﷺ: «قال ربكم الأعلى: لو أن عبادي أطاعوني لأمطرت عليهم بالليل ولأطلعت عليهم الشمس بالنهار ولم أسمعهم صوت الرعد»(2).

فإنما احتاجوا إلى تجديد الإيمان؛ لأنه قد خلق بِوَلَه القلوب إلى الأسباب؛ لأن من صدق الإيمان أن يكون ولَهُ القلوب إلى الله - تعالى - الذي أوله الخلق إليه، فإذا ولهت إلى شيء دونه ذهبت قوة الإيمان وطراوته فاحتيج إلى تجديده.

وقال رسول الله ﷺ: «الإيمان حُلو نزه فنزهوه»(3).

وكذلك قال رسول الله ﷺ لسلمان رضي الله عنه: «قل اللهمَّ إني أسألك صحة في

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك في كتاب التوبة...، حديث رقم (7657) [285/4] وعبد بن حميد في المسند، عن أبي هريرة برقم (1424) [417/1] ورواه غيرهما.

(2) رواه الحاكم في المستدرك، تفسير سورة الرعد، حديث رقم (3331) [380/2] والبيهقي في الزهد الكبير، حديث رقم (719) [281/2] ورواه غيرهما.

(3) أورده الحكيم الترمذي في نوادر الأصول، في أن القلب ملك...، [51/3].

إيمان، وإيمانًا في حسن خلق، ونجاحًا يتبعه فلاح، ومغفرة منك ورضوانًا»[1].

فلا يُسأل الصحة في الإيمان إلا من سُقم، فإذا تعلق القلب بأسباب دونه افتتن وتعلق بغير معلقه، وكان وله إلى غير مَن هو إليه صائر.

فإن قوله: لا إله إلا الله، هذه مقالة من قلب خلق وإيمان سقيم؛ فلذلك قال: «جدِّدوا إيمانكم»، وكذلك الإسلام.

كما أمر هاهنا بتجديد الإيمان قلبًا، كذلك أمر بتجديد الإسلام نفسًا في أن يقوم إليه معتذرًا، وقد جَمعت له جوارحك المنتشرة في شهواتك التي لم يؤذَن لك فيها فتجدِّد تسليمًا، ولم يكن انتشارك هذا نقضًا للعقدة: عقدة التسليم؛ ولكن كان نقضًا للوفاء: وفاء التسليم.

فإن هذه الجوارح السبع كانت عندك بأمانة وأُمرت بحفظهنَّ، فتوكلْت برعايتهنَّ، والراعي إذا أهمل غنمه؛ حوسب وعوقب وغرِم، فإذا أصبحت انتشرت كلُّ جارحة منك ترعى في واديها، فالسمع في وادي الاستماع للأصوات، والبصر في وادي النظر إلى الألوان، واللسان في وادي المنطق، وكذلك كلُّ جارحة.

وفي هذه الأودية سموم قاتلة من المراعي، وذئاب ضارية، وأجراف هاوية فعلى الراعي أن يحفظ غنمه حتى يخلصها من هذه الآفات، فاحتال لها بما يحتال بمثلها حتى يخلصها، وكذلك هذا الموكَّل بجوارحه يجنبها الآفات، فإن أصابته آفة عمل في تخليصها بالتوبة والاستغفار؛ كما عمل الراعي بأغنامه السبعة، فإن أصابها كسر جبَّر الكسر، وإن رعت في مراعي السموم سقاها البَادزهْر[2] والترياق، وإن وقع الذئب بها أرسل الكلاب في استلائها منه، وميَّز شربها من مرعاها؛ كيلا تعطش فتهلك.

فالمواعظ للنفوس كالشراب للأغنام؛ لأن العلم حياة القلب والنفس، كما أن الماء حياة البدن والروح، فإذا عطشت النفس عن التذكرة هلكت الجوارح،

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء..، حديث رقم (1919) [704/1] والنسائي في السنن الكبرى، (نوع آخر وهو سيد الاستغفار 9765)، حديث رقم (9849) [9/6] ورواه غيرهما.

(2) نبات في بلاد الهند يداوى به (تاج العروس للزبيدي).

والصلوات الخمس تكفّر السيئات.

ألا ترى إلى قوله - تعالى -: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [هود: 114، 115]. وقوله - سبحانه وتعالى -: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ [النساء: 31]. قيل: بالصلوات الخمس: ﴿ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ [النساء: 31]. قيل: الجنة، فهذه علتها.



ذكر علّة استقبال القبلة وقت الصلاة

وأمّا علة الاستقبال: فإن البيت مَعلَم الرَّب - سبحانه - في الأرض، والعرش منظره ومظهره في العُلو، واستقبال المنظر والمظهر والاستلقاء على القفا.

كذلك قيل في الروايات: «إن نوم الشياطين على اليسار، ونوم المؤمنين على اليمين، ونوم الكفار والمنافقين على الوجوه، ونوم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم على القفا».

فاستقبال المنظر: الاستلقاء، وهذا غير ممكن، فإذا قمت إليه معتذرًا مُسلِّمًا جوارحك إليه، أمرت باستقبال معلمه الذي منه ارتفع العرش إلى العُلو، وبقيت الزُّبدة على ظهر الماء: كالفضة البيضاء، فمُدَّت الأرض من تحتها.

وإنما سُميت الأرض أرضًا، لأنها رضيض سلطانه، وسميت السماء سماء؛ لأنها سَمَت إلى العُلو.

وذلك أن العرش كان على الماء فقال الجبَّار - جل جلاله - للريح: «اسرِ بعرشي فلما وقف العرش على حد الهواء، جاء سلطانه مع الريح، فضرب وجه الماء، فصار من الماء كهيئة الدخان، فارتفع ووقع دون العرش في الهواء بأمر الله حيث [.....][1] فقيل: سماء، ثم قال لما بقي من الماء: أخمد صاغرًا، فخمد، فصار تُرابًا كالرضيض من هول السلطان».

فلذلك قال: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ

(1) بياض في الأصل.

كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت: 11,12].

أي: أمضى تقديره فيهن، وفتقهنَّ في يومين.

فإذا توجهت إلى معلمه فإنما توجهت إليه بوجهك، وتوجهت بقلبك إلى منظره، وتوجهت إلى وجهه الكريم الدائم الباقي الذي كل شيء هالك إلا وجهه الكريم.

ألا ترى إلى قول داود، وقول نبينا محمد - صلاة الله وسلامه عليهم أجمعين -: «سجد وجهي لوجهك الكريم»[1].

وقال في حديث آخر: «سجد وجهي البالي الفاني لوجهك الكريم الباقي الدائم»[2].

وقول رسول الله ﷺ: «إذا قام الرجل إلى الصلاة أقبل الله عليه بوجهه»[3].

وقال: «إن المصلي تجاه ربه»[4].

وقول الله - تعالى -: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:115]؛ لأنك توجهت بقلبك إلى وجهه، ولوجهه نصبت شخصك.

فأمّا قولنا: البيت معلمه، ففيه كلام كثير قد شرحناه في «كتاب الحج»، وهو أمر جليل، وله شأن عظيم.

ومما يدلك على تحقيق ذلك ما قلناه: إنه رُوي عن الله - تبارك اسمه - أنه قال: «أنا الله ذو بكة»[5].

وقال: «ذو العرش»، ولم يقل: «ذو الكرسي، وذو السماوات»؛ فذو كلمة مَن

---

(1) رواه أبو نعيم في الحلية، حبيب الفارسي، [154/6] وعلي بن الحسن الشافعي في تاريخ مدينة دمشق، ذكر من اسمه حبيب، [58/12].

(2) أورده اللكنوي في الآثار المرفوعة..، ذكر صلوات وأدعية مخصوصة.

(3) رواه ابن أبي شيبة في المصنف، من كره الالتفات في الصلاة، حديث رقم (4540) [395/1] والبزار في المسند، عن حذيفة، حديث رقم (2889) [295/7] ورواه غيرهما.

(4) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(5) رواه ابن أبي شيبة، فيمن يهدم البيت من هو، حديث رقم (14103) وعبد الرزاق في المصنف في بابين أحدهما: باب المقام وذكر ما فيه..، حديث رقم (9219) [149/5] وحديث رقم (9220) و(9221) [150/5].

فهمها علم ما قلنا في شأن المعلم.



ذكر علّة التكبير

فأمَّا علّة التكبير: فإن الآدمي إنما عصاه للكبر الذي فيه، فلمَّا وقف معتذرًا مما كان منه، سلَّم الكبر إليه قولاً.

فقال: الله أكبر، تبرأ إليه نفسًا بوقوفه بين يديه على التسليم إليه، تبرأ إليه بلسانه قولاً فكبره تكبيرًا.

وقد أمر الله - تعالى - في تنزيله فقال: ﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ [الإسراء:111] :أي سلم الكبر إليه، فإن الكبر تاجه في العُلى والكبرياء رداؤه مبسوط في السماوات والأرض؛ ولذلك صار قول أبي يوسف عندنا أقوى من قول أبي حنيفه - رحمة الله عليهما - في قوله عند الافتتاح إذا قال: الله أعظم والله أجل والله أعز.

فقال أبو يوسف: لا يجزئ عنه حتى يأتي بالتكبير. وقال أبو حنيفة: يجزئ ذلك كله عنه مكان التكبير. فلو وقع لأبي حنيفة هذا الذي ذكرنا من علته، لرأيت أنه كان يمتنع من هذه المقالة؛ لأن قوله أعظم من العظمة وأجل من الجلال وأكبر من الكبَر، وإنما نازع العبد في الكبر، فيحتاج إلى تسليم ما نازع فيه.



ذكر علّة الثناء

وعلة الثناء فهو ترضٍّ وتملق وذلك من شأن الكبير أن تتوسل إليه بالمدائح والثناء ثم تعقُّب بسؤال الحاجة، أمَّا شرح الثناء فقد فسَّرناه في كتاب «علم الأولياء».

وذلك علم لا يحتمله عقول العامة من قوله: سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك وتعالى جَدُّك إلى آخره؛ لأن علماء العامة إنما يفقهون من ذلك على قدر علمهم بربهم ليس لهم من علم الصفات إلا حروف المعجم المؤلفة؛ وإنما سميت كلامًا لأنها تُكلم القلوب: أي تؤثر بتلك المعاني على القلوب في الصدر فتصور الأمور في الصدر ثم يتصدر من الصدر إلى الجوارح أعمالاً بحركات الجوارح والسعي فالمعاني مفقودة إلا عند العلماء الحكماء الذين هم

خاصة الله – تعالى – في أرضه وكل كلمة من هذا الثناء أعظم من السماوات السبع والأرضين السبع، وإنما خفت على القلوب لقلة علمهم بها.



ذكر علّة الاستعاذة

وأمّا الاستعاذة فمِن أجل القراءة؛ لأن العدو بمرصد فإذا قرأت من غير تعوذ بالله ألقى الشيطان في تلاوتك ما ليس فيها، فإذا تعوذت فقد صرت في معاذ من الله حفظ لسانك فأنطقه بالصواب.

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«إن الله عند لسان كل قائل، فلينظر قائل ما يقول»**[1].

وروي عن لقمان عليه السلام أنه قال: ألا إن يد الله على أفواه الحكماء، فلا ينطقون إلا بما هُيأ لهم[2].



ذكر علّة القراءة

فأمّا القراءة فمن أجل الاتعاظ بها ومن أجل قيام حجة الله – تعالى – عليك بها، وأول قبول الموعظة تلاوتها، فإذا تلوتها ثم خالفت إلى غيرها ثم تلوتها فإنها تجد قبولها.

كما ذكرنا بدءًا من تجديد الإيمان والإسلام، لأنك لما خالفت إلى غير ما ندبك إليه القرآن، فقد صيرته مهجورًا فأُمرت بتلاوته كالعائد إلى هجرته مهما تزداد بالتلاوة علمًا واتعاظًا.

وللقرآن حقان: حق التلاوة، وحق العمل به، وفي كل تلاوته تدبير، ولكل تدبير فائدة؛ لقوله – سبحانه وتعالى –: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص:29].

---

(1) رواه القضاعي في مسند الشهاب (710 إن الله عند...) حديث رقم (1118) [169/2] وأبو نعيم في الحلية، بشر بن الحارث [352/8].

(2) أورده السيوطي في الدر المنثور، قوله تعالى: «ولقد آتينا لقمان الحكمة» وعزاه إلى عبد الله في زوائده عن عبد الله بن زيد ﷺ [516/6].

وأيضًا علة أخرى: وهي قيام الحُجة على العبد وذلك أن القرآن في الصدر، والصدر ساحة القلب، والنفس خالية عن ذلك كله، فأمر بأن يخرجه من القلب والصدر إلى لسانه تلاوة؛ لتسمع أذنه فتؤدي إلى النفس الأمَّارة بالسوء تلك المواعظ فتلك والأخبار من طريق الإذن فتسمع فتقوم حجة الله – تعالى – عليه، ولولا ذلك لكانت النفس خالية عما في القلب والصدر من علم الآخرة؛ لئلا تقول النفس غدًا: إني كنت غافلة عن هذا.

وتصديق ذلك قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق:37].

والنفس لها علم ظاهر الحياة الدنيا، وهي عن علم الآخرة غافلة، والسمع والبصر والشم والذوق واللمس هذه حواس النفس والذهن مدبره فهذا علم النفس، فكل حاسة تؤدي إلى النفس خبرها على حالها.

وأمَّا علم القلب فمن الله – تعالى – لأنه خزانته، وفيه النور واليقين والحكمة وعليه يدبر العقل تدبيره، فالذهن مدبر النفس، والعقل مدبر القلب، والقلب يطلب ربه، والنفس تطلب لذتها وشهوتها، فأيهما غلب فالجوارح تبع له.

وقال الله – تبارك وتعالى اسمه – في تنزيله ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [يوسف: 53] ثم استثنى فقال: ﴿ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [يوسف:53].

فبالرحمة نال النبي ﷺ النبوة حتى تخلص من شر النفس، وبالرحمة نال الأولياء الولاية حتى تخلصوا من سوء النفس، وبالرحمة نال المتقون تقواهم حتى تخلصوا من بلاء أنفسهم، وبالرحمة نال الموحدون توحيده حتى تخلصوا من الشرك والشك، وهذا كله من فضل الله. قال الله – تعالى -: ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ ﴾ [الجمعة:4].

ثم عظم هذا الفضل وهذه الرحمة فقال: ﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الحديد: 21].

وقال تبارك اسمه في تنزيله: ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ ﴾ [القصص:86].

ولهذا زجر العلماء عن القراءة خلف الإمام فيما جهر الإمام فيه؛ لأن أصل

الصلاة إنما هو القيام والقعود والركوع والسجود والجلوس، والقراءة زيادة في الفرض؛ لأنه قد كانت صلاة ولم ينزل بعد شيء من القرآن.

وهو أول يوم أتاه جبريل عليه السلام بالرسالة وصلى به، فإنما جعلت القراءة في الصلاة من أجل النفس المحتاجة إلى الموعظة والقرآن في الصدر، وأمر أن يخرجه بلسانه حتى يُسمع أذنه فهم الكلام؛ فإن الأذن قمع النفس فيصل إلى النفس وعظ الله - تعالى - من طريق قمعه فتقوم الحجة عليها، من هاهنا أمر أن يستمع وينصت إذا قرئ فقال ﷻ: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ [الأعراف: 204]، فيكون أدعى لنفسك، وذلك أنك إذا اشتغلت بقراءتك لهت نفسك ويناني فهمك إدراك ما يقرأ الإمام فإذا اشتغلت النفس بالقراءة عجزت عن فهم ما فيه فإذا أنصت تفرغت النفس للوعي لما يقرأ الإمام؛ فلذلك اخترنا الإنصات خلفه في ما يجهر فيه فإذا كان الإمام لا يجهر فأحب إلينا أن يقرأ لتعطي النفس حظها من الوعظ، فإن كان مفكرًا مع القراءة فهو أجود له من أن يجرد الفكر له ويترك القراءة.

وقال بعض العلماء: كان ﷺ يجهر في الابتداء في جميع الصلوات فأمر أصحابه بالاستماع والإنصات ثم ترك الجهر في صلاتي النهار، فبقى سنة الإنصات.



ذكر علة الركوع

وأمَّا علة الركوع فإن العبد بين عيب وذنب؛ فأمَّا العيب: فغفلته عن الله - سبحانه وتعالى - فمن الغفلة جفا النعمة واستخف بها ولم يعظم منته فمَن تناول نعمة من نعمه بيد الغفلة عنه فقد جفا نعمته واستخف بها وهو عبث، وإنما أوتي ذلك من الأشر والبطر، فإن النفس إذا غفلت أشرَّت، والغفلة من ظلمه الشهوة فصارت كغلاف وإنما هي غلفة وغفلة؛ فالغلفة للكافر صارت ظلمة للكافر غلافًا لقلبه، والغفلة للمؤمن صارت ظلمة شهوات النفس غفلة لقلبه وكلاهما يؤديان إلى غلاف إلا أن تلك ظلمة الكفر، وهذه ظلمة الشهوة.

فقيل: لتلك غفلة لأنها قد أحاطت بالقلب، وقيل: لهذه غفلة لأنها قد انتصبت بين يدي القلب حجابًا، فإذا رفضها كانت بمنزله سحابة تقشعت وتبددت.

ومن هاهنا قول الله ﷻ: «أبعث في آخر الزمان عبدًا أميا أختن به قلوبًا

غلفًا وأفتح به آذانًا صمًا وأعينا كمها»[1].

فشبه القلوب الغلف بالأغلف الذي لم يختتن فإذا اختتن بدت الحشفة، فإذا بدا القلب عن غلافه علم الصواب.

وللقلب عينان فإذا أشرق النور في القلب فتح العينين، وذهب الكمه فأبصر العيب فمن أجل هذا العيب الذي ذكرناه في العبد من كبر النفس وتعظيمها حتى حقرت النعمة وجفتها وتناولتها بيد الغفلة أمر بأن تخضع فتركع لله وهذا مقام الحمد والبراءة من الكبر، والدليل على ما قلنا أنه يدخل في الركوع بالبراءة من التكبير ويخرج منه بقوله: سمع الله لمن حمده، اللهم ربنا لك الحمد؛ لأن هذا الركوع منه خضوع لله في جفاء النعمة كأنه يريد أن يتدارك بهذه الخضعة تلك الجفوة التي صار فيها كهيئة الكفور فيكون هذا منه كالحمد له، فلذلك يقول: سمع الله لمن حمده.

وكذلك روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«إذا قال الإمام: سمع الله لمن حمده، فقولوا: اللهم ربنا لك الحمد، يسمع الله لكم فإن الله - تعالى - قال على لسان نبيه: سمع الله لمن حمده»**[2].

وعن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول: **«اللهم ربنا لك الحمد»**[3].



ذكر علة التسبيح

فأمَّا علة التسبيح فأمر بأن يقول: سبحان ربي العظيم؛ لأنه لما جفا النعمة فتناولها على الغفلة ولم يعظمها؛ فأمر بأن ينزه ربه عن فعله، وأن ينسبه إلى

---

(1) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(2) روى نحوه البخاري في صحيحه، كتاب صفة الصلاة..، حديث رقم (699) [257/1] وروى نحوه مسلم في صحيحه، باب التشهد في الصلاة، حديث رقم (404) [303/1] وروى نحوه غيرهما.

(3) رواه البخاري في صحيحه، باب رفع اليدين إذا كبر..، حديث رقم (703) [258/1] ورواه مسلم في صحيحه، باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع، حديث رقم (476) [346/1] ورواه غيرهما.

العظمة؛ ليكون كفّارة لتصغير نعمته.



ذكر علّة السجود

وأمَّا علة السجود، فللذنب؛ لأنه تكبر وأشرً، فوثب على حق الله – تعالى –، فأُمر بالسجود خشوعًا له؛ لتكون هذه الخشعة بذل تلك الهفوة، فيتمثل له كهيئة التراب الذي منه خلقه، فهو يضع وجهه بالأرض، وتلك غاية الخشوع في الظاهر، فإن الله – سبحانه وتعالى – خلقه من الأرض، وهي أهون الأشياء وأضعفها تحت الأقدام، ثم وضع معرفته عنده بالأمانة فخان حين لبسه بظلم، فقال الله – تعالى – في تنزيله:﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ [الأنعام:82].

فلما لبس إيمانه بظلمهم فخان فوقعت التهمة، فصار نفورا من ربه تعالى، وبعد هاربًا على وجهه وانقطع المدد وصار في هزيمة العدو إلا أن ربقة الإسلام في عنقه ورأس الحبل بيد الله – تعالى –.

ولذلك قال رسول الله ﷺ «**مثل المؤمن كمثل الفرس في آخيته يجول ويجول ثم يرجع إلى آخيته**»[1].

فالمؤمن يسهو ثم يسهو، ثم يرجع إلى ربه، فأمر بالسجود ليتمثل له كهيئة الأرض استكانة وتواضعًا وإلقاءً باليدين.

ولذلك قال مسروق لسعيد بن جبير: يا سعيد ما بقي شيء نرغب فيه إلا أن نعفّر وجوهنا في هذا التراب له.



(1) نصه كاملاً: «عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال مثل المؤمن ومثل الإيمان كمثل الفرس في آخيته يجول ثم يرجع إلى آخيته وإن المؤمن يسهو ثم يرجع إلى الإيمان فأطعموا طعامكم الأتقياء وولوا معروفكم المؤمنين» رواه ابن حبان في صحيحه، ذكر الإخبار عما يجب على المرء..، حديث رقم (616) [381/2] ورواه أبو يعلى في المسند عن أبي سعيد الخدري، حديث رقم (332) [492/2] ورواه غيرهما.

ذكر علَّة التسبيح

فأمَّا علة التسبيح، فأُمر بأن يقول: سبحان ربي الأعلى إلا أن كل مطاع في اللغة يسمى ربًّا، وإنما أطاع هواه من قبل فينزه ربه الأعلى، والرب المالك.

وكان هواه قد ملكه فإذا سجد سبَّح ربه الأعلى، ونزَّهه عما كان يدعو إليه هواه الذي يدعي به الربوبية لنفسه ويسأله أن يطيعه في كل ما يدعو إليه وملكه وأوله قلبه: وهو في قوله – تعالى –: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ [الفرقان:43].

فكأنه يقول: سبحان ربي الملك الأعلى: أي له التنزه عن طاعتي لهذه النفس التي ملكتني واستزلَّتني عن طاعة مالكي الأعلى.

فالركوع للجفوة والسجود للهفوة، وإنما أمر بسجدتين؛ لأن الذنب يلزمه من وجهين إضاعة أمر فرض عليه ففرَّطه، وتهاونًا وارتكاب نهي زجر عنه فحملته شهوته حتى ركبه تهاونًا للعقوبة، فلما رأى الذنب من وجهين أُمر بسجدتين.



ذكر علَّة القعود

وأمَّا علة القعود، فللارتعاب وطلب العفو والنوال، وذلك أنك قضيت صلاتك بما مضى منك من القيام وبذل النفس تسليمًا والخضوع والخشوع، فإنما بقي سؤال الحاجة والاعتذار.

فقيل له: تمثل جاثيًا كهيئة الملقي نفسه بين يدي سيده ومولاه على الارتعاب والاعتذار، والاستعداء على النفس الأمَّارة بالسوء بمنزلة غريم لك ضمنت له عن آخر دينًا، وأنت به كفيل فأنت مطلوب بتلك الكفالة، وهذا المكفول عنه مطلوب، فأنت تستعدي عليه حتى تستخرج حق الغريم من هذا الغارم الذي ضمنت عنه.

والقلب شريك النفس في الخير والشر والثواب والعقاب والمحمدة واللائمة ثم النفس من شأنها الإباق وتضييع العبودية، وحقوق الله – تبارك وتعالى– في رقبتها والقلب مطلوب بذلك إذا كان شريكها والعقل مقتض فإذا لم يجد شكا إلى الله – سبحانه – فأمر بأن يقعد عند اقتضاء الصلاة مستعديًا على النفس معتذرًا إلى الله – تعالى – مما كان منهما، مرتعبًا في النوال.

فقال الله ﷻ: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝ ﴾ [الشرح: 7 - 8].

أي: تعرض لي منتصبًا تعرض المتعبدين المستعدين المفتقرين فارفع إليّ رغبتك والرغبة هي لب الطلب: وهو الذي يطلب من جوف قلبه ومجامع صدره من العقل والذهن بجد وعزم؛ لأنك قد فرغت: أي صرت فارغًا من البطالة والعيوب والذنوب؛ لأن هذه الجوارح تبطُلت في مرعاها، فالقيام بين يديه بإزاء البطالة وجفوة النعمة وحقريّتها.

والركوع خضوع بإزاء الجفاء، وتكبرت على الحق واستبددت، فهذا السجود خشوع بإزاء التكبر والاستبداد والتمادي في الذنوب بهواك فجمعت هذا كله في الصلاة الواحدة، ووقفت بجوارحك البطُالة في أوديته على مليكها متذللاً على الخلقة التي خلقت رميًا ببصرك حيث وقع فنزهت وأثنيت وتعوذت من العدو، وتلوتَ كلامه مُتَّعظًا واعتذرت ثم خضعت ثم خشعت ثم جثوت، فتملقت وارتعبت وافتقرت واستعديت على مَن رام الفساد بينك وبينه؛ فكان ذلك كله كفّارة: أي غطاء والكفر غطاء ومنه سمي الكفر، فكانت صورة صلاتك هذه على صورة أفعالك، وكان ذلك غطاء لما سلف منك.

وقال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ﴾ [هود: 114]. أي: الأفعال منك حسنات تذهب ما كان منك.

ثم قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ [هود:114] أي: توبة للتائبين، وعظة للمتعظين.



ذكر علَّة التَّشهُّد

وأمًّا علَّة التشهد، فإن تلك كلمات أتى بهن جبريل عليه السلام وحيًا فيما رُوي في الخبر، وهي خطبة الصلاة؛ وهي سنة الكلام، أي: هي بين يدي كل كلام ومسألة خطبة على المقدمة؛ لتكون تلك الخطبة وسيلة بينه وبين المسؤول، وشافعًا له إليه.

وكذلك رُوي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال:

«علمنا رسول الله ﷺ خطبة الصلاة وخطبة الحاجة، فذكر التشهد، فأمَّا خطبة الحاجة: فالحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونؤمن به ونتوكل عليه ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله، من يهدي الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ثم يتكلم بحاجته»(1).

وأمَّا خطبة التشهد: فهي الكلمات كلمات جوامع تنتظم الكلام الكثير ولها غور بعيد، ولنا في ذلك شرح طويل في كتاب «علم الأولياء»، وعلم ذلك لا يحتمله إلا الأولياء.

وكذلك قوله في أول الصلاة: «سبحانك اللهم وبحمدك..» (2) إلى آخره.

وقوله: آمين؛ فإن هذه كلمات خصت بهن هذه الأمة، فالعامة أعطيت حروفها واللفظ بها، والأولياء أعطيت معانيها، ورؤية المعاني أعطي خاص الأولياء وهي كلمات تطهِّر العباد وتقطع العلائق وتصفِّي الأرواح في سيرها إلى الله - تعالى -.

ورُوي في الخبر أن جبريل عليه السلام جاء بهن إلى النبي ﷺ فعلمهن إياه، ومن هاهنا قول رسول الله ﷺ لأبي موسى رضي الله عنه حين نظر إلى جبل أحُد فقال: «إن في أمتي رجالاً الحرف الواحد من تسبيحهم يعدل هذا الجبل»(3).

ومن ذلك قول ابن مسعود: إن في هذه الأمة من يكون عمل يومه أثقل من سبع سماوات. ويوافق ذلك ما جاء عن كعب أنه قال: فيما يُحكي قول موسى ﷺ:

رب إني أجد في الألواح قومًا على قلوبهم من النور أمثال الجبال، تكاد البهائم تخرّ لهم سُجدًا إذا نظرت إليهم. قال: تلك طوائف من أمة أحمد، قال: اللهم اجعلنا من أمته.



(1) روى نحوه ابن ماجه في السنن، باب خطبة النكاح، حديث رقم (1892) [609/1] والنسائي في السنن الكبرى، ما يستحب من الكلام..، حديث رقم (10323) [126/6] وروى نحوه غيرهما.

(2) سبق تخريجه.

(3) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

ذكر علة التحيات والتسليم

والعلة فيه أنه أمر بمخاطبة الملكين، وإن كان إماما فمخاطبة الملكين والآدميين؛ لأنه دخل فيها بمخاطبة ربِّه حين كبَّر في التحريم بمخاطبة الخالق والتحليل منها بمخاطبة المخلوقين.

وكذلك أمر في الحج أن يدخل فيه، فيحرم بمخاطبة ربه بالتلبية، ويحل منها بالحلق.

وأمَّا تفسير السلام؛ فهو مشروح مع التشهد في كتاب «علم الأولياء» وسنذكر بعض تلك المعاني التي تدركها العامة.

فأمَّا قوله: التحيات لله، فإن أهل الشرك بالله كانوا يحيون أصنامهم.

وعن الحسن قال: كان أهل الجاهلية لهم أصنام يحملونها معهم حيث ذهبوا وكانوا يخرجونها ويتمسحون بها ويقولون: لكُنَّ الحياة الباقية، فلمَّا جاء الإسلام، أُمروا أن يجعلوا تلك التحيات كلها لله - سبحانه - وهي تحية من العباد للحي الذي لا يموت، والتحية مأخوذة من الحياة.

وأمَّا قوله: والصلوات؛ فإنه لا يستحق أحد الصلوات إلا هو؛ لأنه مفزع للحاجات.

وأمَّا قوله: والطيبات؛ فهي الكلمات الخمس: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله وأكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

لا يستحق أحد هذه الكلمات إلا الله - سبحانه وتعالى -، وإنما صيِّرت طيبات لأنه لا يستحق أحد أن يشرك ولها فيهن فهي طيبات تطيبن قائلهن.

ففي قوله: سبحانه الله: خروج من العيب. وفي قوله: الحمد لله: خروج من الكفران.

وفي قوله: لا إله إلا الله: خروج من الشرك. وفي قوله: الله أكبر: خروج من الكبر. وفي قوله: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم: خروج من التملك والاقتدار والتجبر.

فما ظن العبد بحاله إذا اجتمعت فيه أدناس هذه الأشياء: دنس العيب، ودنس الكفر، ودنس الشرك شرك العلائق، ودنس الكبر، ودنس التجبر والاقتدار، وفاته التكلم بهذه الكلمات؟ ماذا يحل به خراب القلب؟

فحظر على المؤمن على لسان رسول الله ﷺ قراءة القرآن في حال الجنابة والحيض فيما روي، وأبيح له هذه الكلمات على كل حال لحاجته إليهن في كل وقت، وشرحه مذكور في كتاب «عرس العارفين».

وأمَّا قوله: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ فإن الله - تبارك وتعالى - سلم على عباده من اسمه السلام؛ لينيلهم دار السلام.

فإذا قلت: سلام عليكم بالألف واللام؛ فهذه علامة المعرفة فهي نكرة فإذا ألحقت علم المعرفة؛ فإنما تريد بذلك السلام الذي سلم رب العالمين.

وتقول بعد ذلك: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته.

الا ترى إلى ما قال ﷻ في تنزيله حين ذكر يحيي عليه السلام فأثنى عليه، ثم سلم عليه فقال: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ﴾ [مريم: 15].

فهذا سلام رب العالمين، ثم ذكر عيسي عليه السلام يحكي قوله في المهد صبيًّا: ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ۝ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ [مريم:30، 31].

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴾ [مريم :33].

فكان هذا السلام من عيسى - صلوات الله وسلامه عليه - على نفسه فأخرجه بالألف، وكأنه يشير إلى سلام متقدم، أي: ذلك السلام عليَّ هو سلام رب العالمين.

ولذلك قال عيسي - صلوات الله وسلامه عليه - فيما روي ليحيى: أنت خير مني سلم الله عليك، وسلمت على نفسي.

ولذلك كره من كره هذه اللفظة؛ قوله لأخيه: سلام الله عليك؛ لأن كل أحد لا يستحق هذه المنزلة، وفي هذا كلام كثير قد شرحناه في كتاب «علم الأولياء».

فإن قال قائل: فإن كان رب العالمين قد سلم فما حاجاتنا إلى السلام؟

قيل له: حتى تبلغ مبلغًا تعقل فيه السلام، فهناك فسَل عن هذا، أليس قد أخبرك في تنزيله فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب:56]. أليس قد ندبنا إلى الصلاة عليه

بعدما أخبرنا أنه ﷺ [........][1].

وقال تبارك وتعالى في آية أخرى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ۝ ﴾ [الأحزاب:41، 42]. افليس قد اخبرك أنه يصلي على المؤمنين ويسلم عليهم. فقال تعالى: ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۖ ﴾ [النمل: 59]. فهل عقلت ما الصلاة وما السلام؟ فإن قال: الصلاة هي الرحمة. فما قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ ﴾ [البقرة:157].

فقد ذكر ﷻ الرحمة وذكر الصلاة عليهم، وقد ندبنا إلى أن نصلي على الرسول ﷺ ونسأل له الرحمة والبركة.

وهو مصلى عليه ومرحوم ومبارك عليه؛ ليكون في ذلك إذا حق الأبوة والبنوة فإنه ﷺ نبينا وأبونا ونحن كالأولاد له، ربَّانا بالهدي الذي جاء به من عند الله - تعالى -.

فقد عرفت حقوق الآباء والأمهات في حقهم علينا، وعرفت رأفة الآباء والأمهات بنا في رأفتهم ورحمتهم إيانا.

الا ترى إلى قوله ﷻ: ﴿ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ [التوبة:128]؟ فانظر مَن يثني عليه بهذا رب العالمين.

وأمَّا قوله: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين؛ فإنما يسأل هذا الذي ذكرنا لنبيه ﷺ أولاً، ثم لنفسه، ثم لعبادة الصالحين. فرُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إذا قال العبد ذلك أصاب كل عبد صالح في السماء والأرض**»[2].

---

(1) بياض في الأصل.

(2) ونصه كاملاً: «عن الأعمش حدثني شقيق عن عبد الله قال كنا إذا كنا مع النبي ﷺ في الصلاة قلنا السلام على الله من عباده السلام على فلان وفلان فقال النبي ﷺ لا تقولوا السلام على الله فإن الله هو السلام ولكن قولوا التحيات لله والصلوات والطيبات السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فإنكم إذا قلتم أصاب كل عبد في السماء أو بين السماء والأرض أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ثم يتخير من الدعاء أعجبه إليه فيدعو» رواه البخاري في صحيحه، باب ما يتخير من الدعاء بعد التشهد..، حديث رقم (800) [287/1] وروى نحوه أبو عوانة في المسند 2، باب إيجاب اختيار الدعاء..، حديث رقم (2027) [542/1].

فالحمد لله الذي جعل القائلين بهذا كثيرًا؛ فينالُنا من أقوالهم سلام وتحية من الله مباركة طيبة، فمَن أراد أن يحتظي من هذا السلام الذي يسلم على الخلق في صلواتهم فليكن عبدًا صالحًا.

وأمَّا قوله: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله؛ فإنهما كلمتان جامعتان جعلهما كلمة شهادة واحدة.

فقد شهد الله ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ ﴾ [آل عمران:18].

ثم كتب على جبهة العرش: لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله، وجعلهما في مبتدإ اللوح.

فهذه منك شهادة تواطئ مبتدأ اللوح وما على جبهة العرش، وتوافق شهادة رب العالمين لنفسه.



ذكر علَّة رفع الأيدي ورمي البصر حيث يسجد

وأمَّا علة رفع الأيدي، فهو إشارة بالحواس الخمس؛ لأنك إنما وقعت في المعصية بهذه الحواس الخمس، وأظهرت الكبر من نفسك بهذه الخمس، فأشرت بالأصابع الخمس تبرئًا من جناية الحواس الخمس وتنزيها لله، ومَن تكبر من هذه الحواس؛ أن يكون منسوبًا إليها وإلى أن يشبه أحدًا من خلقه تعالى الله.

وأمَّا علة رمي البصر حيث يقع سجوده؛ فإن ذلك ترك التكليف والانتصاب بين يديه على الخلقة، فإذا وقف ورمي ببصره على الخلقة وقع في موضع مسجده، وإذا ركع وقع ببصره على الخلقة على موضع قدميه، وإذا سجد يقع على أنفه وإذا قعد للتشهد وقع بصره على فخذه.



ذكر علَّة عدد الركعات والسجدات

وأمَّا علة عدد الركعات والسجدات؛ فإن الركعة واحدة والسجدة ثنتان؛ لأن جفاء النعمة نوع واحد.

والذنب نوعان: تضييع الفريضة، والوثوب في الحرمات؛ لأنه أمر ونهي، فهما

نوعان: فالركوع للجفاء والسجدتان لتضييع الأمر والنهي.



ذكر علّة الركعتين

وأمّا علة الركعتين فإن كل صلاة ركعتان من أجل الرئيس في الجسد روح ونفس فالروح تأمر بالحسن، والنفس تأمر بالسوء، فإذا تطابقتا على المعصية فهما ربيبتان قد تطابقتا والجوارح تبع لهما دخولا فأمرت بركعتين ولكل ركعة سجدتان؛ لأن الرئيسين قد اجتمعا على نوعين: العيب نوع، والذنب نوع، فالعيب استصغار ما عظم الله - تعالى -، وذلك أن النعم إنما أبرزها الله - تعالى - من عظمته، والذنب استهانتك بأمر الله - تعالى -، فإنما صارت لك الصلاة على صورة أفعالك السيئة؛ لتكون هذه الصلاة أفعال حسنات تستر سيئاتك.



ذكر علّة عدد المفروضات

وأمّا علة عدد الركعات المفروضات؛ فإن الصلاة كانت في البدء ركعتين فلما ندبهم الله - سبحانه وتعالى - في الصلاة إلى إدبار السجود، فقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾ [الطور: 49].

وصلُّوا في إثر كل مفروضة ركعتين أخريين، فلما صبرت عليها نفوسهم، أوجبها الله - تعالى - عليهم في الظهر والعصر، فلمّا صاروا إلى المغرب أوجب عليهم ركعة مع الركعتين اللتين كانتا في البدء؛ لتكون وترًا؛ ليرفع الله - سبحانه وتعالى - إليه عمل النهار وترًا.

ورُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «فإن الله - تعالى - وِتر يحب الوِتر»[1]. وكذلك قال ابن عمر - رضي الله عنهما -: المغرب وِتر النهار. فلمّا صاروا إلى صلاة العشاء زيد فيها ركعتان مثل الظهر والعصر، ثم أُمروا بالوتر. فقال: «إن الله - تعالى -

(1) رواه الترمذي في سننه، باب ما جاء أن الوتر..، حديث رقم (453) [316/2] ورواه ابن ماجة في سننه، باب ما جاء في الوتر، حديث (رقم 1170) [370/1] ورواه غيرهما.

زادكم صلاة، وهي الوتر»[1]، فأوجبها عليهم بقوله: إن الله زادكم صلاة؛ ليرفع إليه عمل الليل وِترًا كما رفع إليه عمل النهار وِترًا.

فلمَّا صاروا إلى الفجر أُقرت على ما كانت ولم يزد فيها، وذلك أن تلك الصلاة تُطوَّل فيها القراءة، فأُقرت على الأصل ليلاً؛ كما أُقرت صلاة السفر على الأصل من أجل السفر لئلا تثقل على أهلها، كما أُقرت الجمعة على الأصل من أجل الخطبة لئلا تثقل على أهلها. قال تعالى: ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب: 43].

فلم يحب أن يحرج عباده فقال: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج: 78].

وقال تعالى : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة: 185].

فلم يجمع عليهم خُطبة وزيادة ركعتين، وسفرًا وزيادة ركعتين، وطول القراءة وزيادة ركعتين، وتُركت على الأصل الذي كان بدءًا، وهما تحقق ما قلنا: إن علة طول القراءة في الفجر هي العلة المتقدمة.

إن الله - تعالى - قال: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝ ﴾ [الإسراء: 78]

أي: أقم الصلاة لقرآن الفجر، وإنما انتصب قوله قرآنًا؛ لسقوط اللام.

ثم بيَّن منزلته فقال: ﴿ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [الإسراء: 78].

ورُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«إن - الله - تعالى ينزل في ثلاث ساعات بقين من الليل، فيفتح الذكر الذي لم يره أحد في الساعة الأولى فيمحو ما يشاء ويثبت وينزل في الساعة الثانية إلى جنة عدن، وهي داره التي لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر وهي مسكنه ليس معه من بني آدم غير ثلاثة: النبيين والصديقين والشهداء»**[2].

---

(1) رواه الطبراني في الكبير، عن ابن عباس، حديث رقم (11652) [353/11] ورواه أحمد في المسند عن عبد الله بن عمر، حديث رقم (6693) [180/2] ورواه غيرهما.

(2) رواه ابن أبي شيبة في العرش، حديث رقم (86) [93/1] وأورده الطبري في التفسير وعزاه إلى البزار [412/10].

ثم يقول ﷺ: «طوبى لمَن دخلك، ثم ينزل في الساعة الثالثة إلى سماء الدنيا بروحه وملائكته سبحانه؛ فتنتفض – يعني: السماء – فيقول: قومي بعزتي ثم يطلع على عباده، فيقول: هل من مستغفر يستغفرني فأغفر له؟ هل من سائل يسألني فأعطيه؟ هل من داع يدعوني فأجيبه؟ حتى تكون صلاة الفجر وشهدها الله – تعالى – وملائكته، ثم تلا: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: 78]».

وكذلك قال رسول الله ﷺ: «من صلى الصبح فهو في ذمة الله، فانظر ألا يطلبك الله بشيء من ذمته»[1].

وإنما خُصت صلاة الصبح من بين الصلوات بالذمة؛ لشهود الله – تعالى – تلك الصلاة، ولوقوع العبد بتلك الصلاة في قربه وشهوده، فإذا تفرَّغ العبد لتلك الصلاة صار في ذمته.

فهذه علَّة صلاة الصبح، وهذه علة الذمة؛ لتعلم أنه ليس شيء من هذه الأشياء إلا وله علة.

وكذلك ما جاء في الحديث: «إن الأرواح تردُّ إلى الأموات في ساعة الفجر، وفيها تقسَّم أرزاق الخلق والخليقة، وفيها يُسبِّح أهل المملكة من العرش إلى الثرى»[2].

فتلك أطيب ساعات الدنيا لإقبال الله – تعالى – على خلقه، فإذا أقبل عليهم وشهد صلاتهم، قال: «ألا هل من داعٍ فأجيبه؟ ألا هل من سائل فأعطيه؟ ألا هل من مستغفر فأغفر له؟ ألا هل من تائب فأتوب عليه؟»[3].

وإذا أقبل على خلقه استحب منهم تطويل القراءة فيها.

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب فضل صلاة العشاء..، حديث رقم (657) [454/1] ورواه الترمذي في سننه، باب ما جاء في فضل العشاء..، حديث رقم (222) [434/1] ورواه غيرهما.

(2) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(3) روى نحوه مسلم في صحيحه، باب الترغيب في الدعاء والذكر..، حديث رقم (758) [522/1] والنسائي في السنن الكبرى، الوقت الذي يستحب فيه الاستغفار، حديث رقم (10312 [123/6] وروى نحوه غيرهما.

ألا ترى إلى قول رسول الله ﷺ: «لله أشدُّ أذنًا إلى الرجل الحسنى الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته»[1].

وأيضا إن الأرواح تعرج إلى الله – تعالى – في منامها، فترجع بأطيب ما كانت فتقرأ القرآن في صلاة الفجر عن أطيب روح؛ لأنها سجدت تحت العرش فرجعت بطيب وطهارة.

ورُوي عن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – قال: تعرج الأرواح في منامها فما كان منها طاهرًا سجد تحت العرش، وما كان منها غير طاهر سجد قاصيًا.

ولذلك يستحب أن لا ينام الرجل إلا وهو طاهر.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: إذا نام الإنسان عرج بنفسه حتى يؤتى بها إلى العرش، فإن كان طاهرًا أذن لها بالسجود، وإن كان جنبًا لم يؤذن لها بالسجود.



ذكر علَّة الجمعة

وأمَّا علَّة الجمعة: فإن الأيام سبعة، الآدمي يحتاج إلى التذكرة في كل دور من الأيام، وذلك أنه عرف الله – تعالى –، وعرف الموت، وأيقن بالبعث والحساب ودار الثواب، ودار العقاب، فهذه أخبار تردع النفس عن التذُّرع في الشهوات والتخطِّي إلى الحُرمات التي زجر الله – تعالى – عنها، فإذا اختولته أشغال النفس غفل عمَّا ذكرنا من أمر الآخرة، فاحتاج إلى أن يذكر، فأمر العباد أن يحتشدوا في كل أسبوع مرة إلى المسجد الأعظم، ويذروا مساجدهم، وينتصب مذكِّرُهم فيذكرهم بأيام الله – تعالى – ومنته والموت والبعث والحساب، والصراط والممر على النار، وكل ما فيه متعظ.

ثم أُقرَّت تلك الصلاة على الأصل الذي كان في البدء، وهما ركعتان لئلا تثقل على العباد، وقد أراد بهم اليسر في دينهم، ورفَعَ عنهم الحرج، وإنما صار ذلك على أهل الأمصار دون أهل القُرى والخِيام؛ لأن أهل الأمصار يجمعهم المصر

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك، ذكر فضائل سورة وآي متفرقة، حديث رقم (2097) [760/1] وابن حبان في صحيحه، ذكر استماع الله إلى من ذكرنا نعته..، حديث رقم (754) [31/3] ورواه غيرهما.

فيؤديهم إلى الخطبة، وأهل القُرى مقيدون في زراعاتهم، وأهل الخيام في رعيهم.

قال - الله - تعالى: ﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ﴾ [الجمعة: 9].

فحرمه من أجل الخُطبة حتى يأخذوا بحظهم من الوعظ والذكر، وإنما تجب على مَن يضمهم النداء وهم: أهل المصر، فصار هذا اليوم عيدًا لهم.

عادوا إلى الله معتذرين تائبين، فعاد الله - تعالى - عليهم باللطف والرحمة والمغفرة.



ذكر علّة الجهر فيها والتخافت في سائرها

وأمَّا علة الجهر بالقراءة في الجمعة، والتخافت في سائر الأيام؛ فلأن رسول الله ﷺ كان يقرأ في المسجد الحرام جهرًا في صلاة الظهر والعصر، والمشركون جلوس في المسجد حلقًا حلقًا، فكان إذا جهر بالقرآن آذوه؛ لأنه كان يذكر في تلاوته آلهتهم، فأُمر بأن يخافت في الصلاتين كي لا يؤذوه، فلما صاروا إلى المغرب خلا لهم المسجد، فجهر في الصلوات الثلاث فلمَّا قدم المدينة أُقرت الصلاتان على المخافتة؛ ليبقى لهم رسم ذلك فتوارثه المسلمون إلى آخر الدهر.

وعلّة ذلك ما كان يلقى رسول الله ﷺ من الأذى في جنب الله - تعالى - حتى أقام الدين، ويعلموا رفق الله - تعالى - بالعباد، وبركة المدارة، فلمَّا صاروا إلى المدينة أمر حينئذ بصلاة الجمعة والخطبة للمؤمنين، ولم يكن هناك من يؤذي، فجهر بالقراءة على الأصل الذي كان بدءًا.

وعلّة القراءة فيها بالجمعة والمنافقين، فمن أجل اتعاظ المؤمنين بما فيهما من ذكرهما [.....][1]، وتوبيخ المنافقين خلفه بسورة المنافقين.



(1) بياض في الأصل.

ذكر علَّة القراءة بالسجدة

وهل أتى وعلَّة القراءة في صلاة الفجر يوم الجمعة بهاتين، فمن أجل أن السورتين فيهما ذِكر خلق آدم ﷺ، وإنما خُلق يوم الجمعة، وكأنه أحبَّ أن ينشر هذا الذكر في المصلين يوم الجمعة، وأيضًا فإن لله – تعالى – في كل غداة يوم جمعة ثناء يثني به على نفسه، ويمُنُّ به على الآدميين، فأحبَّ أن ينشر عن الله – سبحانه – في خلقه محاسن ما أتى إليهم في خلق آدم ﷺ وذريته.



ذكر علَّة أوقات الصلاة

وأمَّا علة أوقات الصلاة: فإن صلاة الصبح آية عظيمة، وهو مبتدأ الشمس فإذا ظهرت الآية فغيرت محقوق أن يستقر العباد قرارهم؛ كأنهم لا يعبؤون بالآية. ألا ترى أنها إذا انكسفت، كان مَن استخف بها ممقوتًا؟ !

فالانكساف تخويف وزوال: زوال النعمة وظهورها حين يبدو الطلوع للعالم نعمة من المنعم وآية من آياته، وَأَيَّةُ آية أعظم من خلق مَن خلق الله، يبدو فيطبق الآفاق في ساعة من النهار؟ !

وإنما سُمي نهارًا؛ لأنه ينهر ذلك البياض فيجري، ومنه سُمي النهر نهرًا.

وإنما سُمي الليل ليلاً؛ لأنه يلألئ، فينظر الناظر إلى الأشياء فتشتبه عليه حتى يقول: هو،هو، ثم يقول: لا لا، فقد لألأ الأشياء عليه؛ ولذلك سُمي اللؤلؤ؛ لأنه يلألئ.

وكذلك أصحاب الجوهر ليس من مرة يقع بصر أحدهم على اللؤلؤ، ثم رآه مرة أخرى.

ألا ترى أنه على غير هيئته الأولى، فيقبح بالعبد أن تظهر آية من آيات الله وهو مستقر قراره لا يرتاع لها ولا يشرئب، فأُمر في وقت ظهور الآية أن يقوم إليه معتذرًا، جنت يداه من نكث البيعة، وغفلته عن الله وعن حقوقه عليه في ليلته، ويستقبل الخير والبركة عند إقبال نهاره وإدباره، فتكون صلاته هذه في هذا الوقت كفارة من تقصير ليلته، وأساس خير في أول نهاره، وتكتب له في صدره كتابه، ثم مدَّ له في الوقت إلى طلوع الشمس.

❖❖❖

ذكر علَّة الظهر

وأمَّا علة الظهر: فإن زوال الشمس سجودها لله - تعالى - وهي مسخَّرة لك قد أدت ما أُمرت به، فإذا زالت للسجود فغير جائز ألا تقوم إلى الله معتذرًا مما أتيت راكعًا وساجدًا، وكيف تُحسن الغفلة ممَن سُخِّرت له وسُخرتها دوامها في العبادة.

ثم أتت في وقت الزوال من متوسط المسافة بعبادة محدثة خشوعًا وخضوعًا، وذلك أنها مادامت ترتفع فهي في علو.

ورُوي عن ابن مسعود أنه قال: «**لا تأتي ساعة من نهار في وقت طلوعها إلا فتح باب من أبواب النيران، فإذا زالت غلقت الأبواب وفتحت أبواب الرحمة**».

فهذا من أجل العباد لما طلعت عليهم كفروا بنعمة الله - تعالى - فعبدوها من دون الله ولا تأتي عليهم ساعة إلا فتحت عليهم سخطة لكفرانهم؛ لأنها كلما طلعت ازدادت الأرض ضياء وتهيئة لمعاش الآدميين، فكلما وفرت النعم على العباد فيها ازدادوا بها كفرانًا، وإذا زالت مالت للسجود فذلك منها بمنزلة الركوع، حتى إذا بلغت من متوسط القبة إلى موضع الانحدار انحدرت بعجلتها منحطة إلى الأرض بالسجود، وإنما سميت عصرًا؛ لأنها عصرت الانحطاط.

وإنما سميت ظهرًا؛ لأن تلك الصلاة في وقت استوائها على ظهر القبة، والعصر في وقت عصورها من محدور القبة، والمغرب من وقت غروبها، والعشاء من عشو الأبصار لغسق الليل، والفجر لانفجار الصبح من قميص الليل.

وكل صلاة منسوبة إلى صفة ذلك الوقت، فقد ذكرنا علة العصر في هذه الصفة.



ذكر علَّة المغرب

وأمَّا علة المغرب، فلظهور سلطان الليل: وهي آية عظيمة قد بدت وطبقت الأفق، ولف كل شيء وأدَّاه إلى مأواه. قال الله - تعالى -: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾ [الانشقاق: 17].

وذلك أن النفوس تتوحش لمجيئه وتفزع إلى المأوى، وكذلك كل دابة وكل

روحاني، فجعلها رحمة للعباد.

وقال تعالى في تنزيله: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾ [القصص:73] أي: في الليل.

وقال تعالى: ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [القصص:73] أي: بالنهار من معاشكم.

وقال ﷻ: ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [القصص:73] أي: على هذه النعمة والتربية في هذا المرفق.

فمبتدأ الآية ظهور السلطان عند المغرب، وآخرها إذا طبقت الأفق فأعشت الأبصار.

فهذه علة المغرب والعشاء، وهذه أوقات ظهور الآية، فغير جميل بالعبد ألا يعظم الآية وأعسر بملوك الدنيا، ولله المثل الأعلى، فما ظنك بملك قد جفوته وساءت رغبتك في معاملته، فأقبل إليك، ففي أول ما تقبل أوائل جيوشه تتأهب وتستعد للقيام إليه مبجلاً لمجيئه، معظمًا لإقباله وتتعجل في أخذ الزينة بكل ما تقدر عليه.

حتى إذا أقبل عليك فوجدك قد تزينت له وبادرت إقباله بالتهيؤ والاستعداد تعظيمًا له تكرم عليك وتفضل وأنالك نواله، وإن لم تفعل ذلك وتغافلت عن إقباله فأقبلت جيوشه وانفضت، وأقبل بنفسه بإزائك ليعترض جنوده فلم ترفع بإقباله رأسك اشتغالاً بنفسك، وزال على تلك الحالة تهاون بك وقصر بك عن المراتب، ورفع نواله عنك وجنَّبك من خيره ومعروفه فقير مسكين.

فظهر الآية هو أوائل جيوشه حتى إذا أقيمت الصلاة، فهو في وقت إقباله على عباده، وإطلاعه إليهم، ورفع الحجب فيما بينه وبينهم، وإهطال الرحمة عليهم، وشهود رغباتهم ورهباتهم.

ورُوي في الخبر: أن العبد إذا أقبل على صلاته، قال الله - تعالى -: «ارفعوا الحجب» فإذا التفت العبد، قال الله - تعالى -: «ارخو الحجب»[1] ثم يقول: «أين تلتفت عبدي؟! أنا خير لك ممن تلتفت إليه»[2].

(1) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(2) رواه ابن أبي شيبة في المصنف، من كره الالتفات في الصلاة، حديث رقم (4538) =

ورُوى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا أقبل العبد على صلاته، أقبل الله - تعالى - عليه بوجهه»[1].

ورُوى في الخبر عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال الله - تعالى - مقبلاً على العبد ما لم يلتفت، فإذا التفت صرف وجهه وانصرف عنه»[2].

وروى عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله - سبحانه وتعالى - قبل وجه أحدكم في صلاته»[3].

❖❖❖

ذكر علّة أول الوقت على آخره فضلاً

وأمّا علّة أول الوقت على آخره فضلا، فإنه إذا دخل الوقت توجه العباد إلى الله - تعالى - بوجوههم، وفي التوجه الإقبال على الله - تعالى -.

فإذا أقبلوا عليه، أقبل عليهم بالرأفة والرحمة، فجرت الرحمة كالسيل فليس من يتلقى أول السيل في قليل من العدد من الأمصار والأرضين، كمن يتلقى أواخره في عدد لا يُحصى.

ولذلك قيل: أول الوقت رضوان الله، فالرضوان غاية الرضا، فإنما تجلبها عليه أوائل الرحمة.

وللسيل من القوة ما يظهر المرابض، ويقلع البنيان، وكذلك سيل الرحمة يقلع بنيان أخلاق السوء، ويطهِّر القلب من الشهوات.

وأيضًا خَلة أخرى: ليس من يتلقى أمر سيده بالتعظيم والمسارعة والمسابقة

=

[395/1] ورواه غيرهما.

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

(2) هذا الحديث سبق تخريجه.

(3) رواه ابن خزيمة في الصحيح، باب الزجر عن بصق المصلي أمامه..، حديث رقم (922) [61/2] ورواه أحمد في المسند، عن عبد الله بن عمر بن الخطاب، حديث رقم (4509) [6/2] ونصه كاملاً: «عن ابن عمر أن النبي ﷺ رأى نخامة في قبلة المسجد فحكها أو قال فحتها بيده ثم أقبل على الناس فتغيظ عليهم وقال إن الله عز وجل قبل وجه أحدكم في صلاته فلا يتنخمن أحد قبل وجهه في صلاته.

كمن يتلقاه بالتراخي والتباطؤ، فالطالب لأول الوقت معظم متسارع متسابق، والتارك كالذي يعمل على ضرورةٍ أو مُكرهًا.

ولكل صلاةٍ ديوان يُرفع إلى الله - سبحانه وتعالى - ويريه لصاحبها، فليس من ينشر ديوانه في أوائل العرض كمن ينشر في آخره، وتخرج براءته في أول البراءات.

حدَّثنا بذلك عبد الكريم بن عبد الله قال: حدَّثنا بذلك الهيثم المكي عن الربيع بن بدر عن سوار بن شبيب عن وهب بن منبه عن عبد الله بن عباس قال: إن لله - تعالى - ملكًا يُسمَّى شمخايل، وهو من ملائكة الحجاب، يأخذ البراءة للمصلين عند كل صلاةٍ من رب العالمين، فإذا أصبح المؤمنون قاموا وتوضئوا، وصلوا صلاة الفجر، أخذوا من الله براءة فيها مكتوب بخط الله - تعالى -: «**أنا الأول الباقي، عبيدي وإمائي في حرزي، جعلتكم في ذمتي وحفظي، وتحت كنفي صيرتكم، وعزتي لا أخذلكم، مغفورة لكم ذنوبكم إلى الظهر**»[1].

فإذا كان وقت الظهر قاموا وتوضئوا وصلُّوا الظهر، وأخذوا من الله - تعالى - البراءة الثانية، مكتوبٌ فيها: «**عبيدي وإمائي؛ بدلت سيئاتكم حسنات، وغفرت لكم السيئات، وأدخلتكم برضائي دار الجلال**»[2].

فإذا كان وقت العصر قاموا وتوضئوا وصلُّوا، وأخذوا من الله - تعالى - البراءة الثالثة مكتوبٌ فيها: «**عبيدي وإمائي؛ حرمت أبدانكم على النار، وأسكنتكم مساكن الأبرار، ودفعت عنكم برحمتي الأشرار**»[3].

فإذا كان وقت المغرب، قاموا وتوضئوا وصلُّوا، وأخذوا من الله - تعالى - البراءة الرابعة مكتوبٌ فيها: «**عبيدي وإمائي، صعد إليَّ ملكان من عندكم**

---

(1) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(2) روى نحوه ابن أبي شيبة في المصنف، في ثواب ذكر الله عز وجل، حديث رقم (29477) [60/6] وأبو يعلى في المسند عن أنس ﷺ، حديث رقم (4141) [167/7] وروى نحوه غيرهما.

(3) روى نحوه البيهقي في شعب الإيمان، في ليلة العيد ويومها، حديث رقم (3717) [343/3].

بالرضا، فحقٌّ علي رضاكم، وأنا معط يوم القيامة منيتكم»[1].

فإذا كان وقت العشاء قاموا وتوضئوا وصلُّوا، وأخذوا من الله – سبحانه وتعالى – البراءة الخامسة مكتوبٌ فيها: «عبيدي وإمائي، في بيوتكم تطهرتم، وإلى بيوتي مشيتم، وفي ذكري خضتم، ودعائي أجبتم، وحقي عرفتم، وفرائضي أديتم، أشهدك يا شمخايل وسائر ملائكتي أني قد رضيت عنهم»[2].

فينادي شمخايل ثلاثة أصوات كل ليلة بعد صلاة العشاء الآخرة: يا ملائكة الله! إن الله – جلَّ جلاله – قد غفر للمصلين الموحدين، فلا يبقى ملكٌ في السماوات السبع إلا استغفر للمصلين، ودعا لهم بالمداومة عليها، فمن رزق منهم صلاة الليل، ما من عبدٍ ولا أمة قام لله تعالى مخلصًا، فتوضأ وضوءًا سابغًا، فصلَّى إلا جعل الله خلفه سبعة صفوف من الملائكة ما لا يحصي عددهم إلا الله – تعالى –، أحد طرفي الصف بالمشرق، والآخر بالمغرب، فإذا فرغ كتب الله – تعالى – له بعدد هؤلاء الملائكة حسنات، ومحا عنه بعددهم سيئات، ورفع له بعددهم درجات[3].



ذكر علَّة صلاة الجماعة والإمامة

وأمَّا علَّة صلاة الجماعة والإمامة، فلتفاوت الخلق في هذا الوفاء: وفاء الإسلام، فرب واحد أكثر من مائة ألف، فإذا اجتمعوا لإقامة الصلاة لم تخل تلك الجماعة من قوي يغرق في جنبه مائة ومائتان وألف، وأكثر من ذلك، وإنما تنزل تلك الرحمة على تلك الجماعة، فتقسم عليهم، فالضعيف يشارك القوي، ويسد خلله بما يناله من فضل قوة القوي.

ورُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مؤمنٌ قويٌّ ومؤمنٌ ضعيفٌ، فالمؤمن القوي أحب إلى – الله – تعالى من المؤمن الضعيف وكلاهما على خيرٍ»[4].

(1) نفس المرجع السابق

(2) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(3) نفس الهامش السابق

(4) روى نحـوه مسـلم في صحيحه، باب في الأمر بالقوة وترك العجز..، حديث رقم (2664)

فالمؤمن القوي هو الذي امتلأ قلبه من الإيمان، وامتلأ صدره من شعب الإيمان، وصدَّقه التوكل والحياء والرِّضا والقناعة والخوف والرجاء والشوق والمحبَّة والتعظيم والمهابة والجلال، ونحو ذلك من حقائق الإيمان، وبذل النفس والرحمة والسلامة من الآفات.

فإن تفاوت صلاة هذا وفضلها على غيره، فهذا القوي ينتصب بين يدي الله - تعالى - بقلبه، كما ينتصب في الظاهر بجوارحه، فقلبه يناجي وفؤاده يناغي، وبدنه يواجه، وليس لقلبه التفات؛ لأنه قد سلم صدره من الآفات، وتفرغ قلبه منها، ومثل من يقصد بعمل الأركان، ويهمل شأن القلب مثل قائد دعاه الملك فعمد إلى شاكريته وخدمه، فكساهم الرياط البيض، وثم غشاهم من فوق تلك الرياط الديباج والوشي، وعمد إلى خلقان دنسه، كأن أخذها من المزابل واكتساها، ثم لقي الملك وهو في هذه الحالة مع شاكريته وخدمه.

فكذلك من طهَّر أركانه من المعاصي فنقَّاها، ثم زيَّنها بألوان الطاعات، فأغفل شأن القلب وهو الملك، وفيه الغل، والحسد، والغش، والمكر، والحمية، والحقد، وطلب العلو، وحب الثناء، والشهوة، والغضب، والحرص، والشح، والبخل، والطمع، وحب العز، والرغبة، والتجبر، والقسوة، والفظاظة، والغلظة، والطيش، والحدة، والعجب، وطول الأمل، وأمن العاقبة، والفرح بما أُعطي من الدنيا، وقلة الرِّضا عنه، والصلف، واليأس، والتعلق بالمخلوقين، والسخط في الأحوال، والنظر في عيوب الخلق، وقلة الرحمة، وترك النصيحة، والتخلق بأخلاق الشياطين.

فإذا قام بين يدي الله - جلَّ جلاله - مع هذه الآفات، وقام آخر في خلو من هذه الآفات كلها، وممتلئ الصدر بشعلة الأنوار، يناجي ربه، ملقي بين يديه سلمًا وخضوعًا وخشوعًا بان تفاوت صلاتيهما، فإذا اجتمعا إلى صلاة فكانت صلاة واحدة، فعلى قدرها تنزل الرحمة، فنال الضعيف من ذلك.

ورُوي عن كعب أنه قال: أجد في التوراة أن الرجل من هذه الأمة ليخر

=

[2052/4] وابـــن ماجه في السنن، باب التوكل واليقين، حديث رقم (4168) [1395/2] وروى نحوه غيرهما.

ساجدًا، فيغفر لجميع من خلفه من الصفوف فضلاً عنه[1]، فكان كعب يتحرى الصف المؤخر رجاء أن يكون فيما تقدم من الصفوف واحد منهم[2].

ألا ترى إلى قوله ﷺ: **«إن سرَّكم أن تُقبل صلاتكم، فليؤمكم خياركم، فإنهم وفدكم فيما بينكم وبين ربكم»**[3].

ووجه آخر ليس من يحمل على المأموم بأوجهٍ كمن يحمل بواحد، وكلهم يرجو الرحمة، وليس رجاء واحد كرجاء الجميع، وليس اعتذار واحد كاعتذار الجميع، وإنما يعتذر كل واحد من الذنب، ويسأل كل واحد المغفرة والرحمة.

فإذا اجتمعوا على مسألةٍ واحدةٍ أُجيبوا، وكذلك قال ابن عمر: إن الله - تعالى - ليعجب من صلاة الجماعة.

ألا ترى إلى التدبير في شأن الملوك أنه إذا أكثرت الوجوه لذي المسألة استحيى منهم أن يردهم فيجيبهم، وإن لم يكونوا أهلاً لذلك، فإنما وضع هذا في العباد لكي يعرفوا ذلك منه فيرجوه.

ورُوى عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«قال الله - تعالى -: أستحيي من عبدي أن يرفع إلَيَّ يديه ثم أردهما صفرًا»**[4].

وقال: **«قال الله - تعالى -: لأنا أكرم وأعظم عفوًا أن يبسط العبد يده إلى ما عندي فأرده خاليًا، فقالت الملائكة: إلهنا! أليس لذلك بأهـــلٍ؟ فيقول الله - تعالى -: لكني أهل التقوى وأهل المغفرة، ولأنا أكرم وأعظم عفوًا من أن أستر على عبدي المسلم في الدُّنيا، ثم أفضحه بعد إذ سترته، فلا أزال أغفر لعبدي المسلم ما استغفرني، وإني لأستحيي من عبدي وامتي يشيبان في**

(1) أورده الحكيم الترمذي في نوادر اوصول، في حكمة قصر أعمال هذه الأمة [141/1].

(2) نفس المرجع السابق

(3) رواه الحاكم في المستدرك، ذكر مناقب مرثد بن أبي مرثد الغنوي، حديث رقم (4981) [3/ 246] ورواه الطـــبراني في الكبير عن مرثد بن أبي مرثد الغنوي، حديث رقم (777) [20/ 328].

(4) أورده الحكيم الترمذي في نوادر الأصول في أن العقوبة لا تثني في الآخرة [34/2]. ورواه أبو نعيم في الحلية من حديث ربيعة بن أبي عبد الرحمن، [263/3].

الإسلام، ثم أعذبهما بعد ذلك في النار... إلى آخر الحديث»[1].

❖❖❖

ذكر علّة الصف

وأمّا علة الصف فإن هذه خصلة لم تنلها أمة، وإنما خص الله - تعالى - بها هذه الأمة، ورُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن الله - تعالى - أعطاني خصالاً لم يعطها أحدًا قبلي: صف الصلاة، وتحية أهل الجنة السلام، وآمين، إلا ما كان من موسى وهارون**، قال النبي ﷺ: **قال موسى وهارون**: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [يونس:88]، **قال الله**: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس:89]، فإنما كان الداعي موسى وأمّ هارون»[2].

وقال رسول الله ﷺ: «**إن اليهود لم يحسدوكم على شيءٍ ما حسدوكم على آمين**»[3].

فالصفوف كانت للملائكة، فخصت بها هذه الأمة، والعلة في ذلك أن الاصطفاف هو الاتفاق على شيءٍ واحدٍ، وإنما أُعطيت الملائكة ذلك الاتفاق الظاهر والباطن، وذلك أنهم قد خلوا من الشهوات، فلما أُلقيت الصلاة إلى الآدميين، عجزت الأمم قبلنا عن الاتفاق، فكان باطنهم خلاف ظاهرهم للشهوات التي فيهم؛ لأن القيام بين يدي الله تسليم النفس إليهم عبودة.

والعبد لا مشيئة له، إنما ينظر ويراقب مشيئة مولاه، فلما خلت الملائكة من الشهوات، كان قيامهم في الظاهر كقيامهم في الباطن، ولما ابتلي الآدميون بالشهوات لم يمكنهم ذلك فقاموا بين يديه بأبدانهم، ومالت قلوبهم ونفوسهم عن الله إلى وساوسها، فهم يجاهدون في صلاتهم نفوسهم حتى يردوا القلب إلى الله - تعالى - إلى أهل اليقين منهم، فإنهم لما رفضوا الشهوات أخبتت قلوبهم لله

---

(1) أورده السيوطي في الدر المنثور، وعزاه إلى الحكيم الترمذي في نوادر الأصول [340/8] وأورده المناوي في الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية (61) [35/1].

(2) هذا الأثر لم أجده بلفظه فيما لدي من مصادر ومراجع.

(3) رواه عبد الرزاق في المصنف، باب آمين، حديث رقم (2649) [98/2] وأورده النووي في تهذيب الأسماء، حرف الألف [11/3].

- تعالى - وحييت، واطمأنت نفوسهم إلى الله - تعالى - أمكنهم أن يقوموا لله بدنًا، ويقوموا لله قلبًا، فإذا نظر الله - تعالى - إليهم وجدهم بالقلوب وقوفًا بين يدي عظمته وجلاله، ونفوسهم مطمئنة بربوبيته، وأبدانهم منتصبة بين يديه، وهم الذين يُدعون بهذا الاسم:

﴿ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝ ﴾ [الفجر:27، 28]، راضية عن الله - تعالى - مرضية، قد رضيها الله - تعالى - وقبلها.

قال رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر أما إن الملك سيقولها لك عند الموت»[1].

فالعامة عاجزة عن بلوغ هذه الخصلة، فلما كان العجز عن هذا ظاهرًا في الأمم قبلنا، لم تُعطَ صفوف الصلاة، فكانوا يقومون فرادى؛ لأنهم لو اصطفوا وباطن قلوبهم غير مصطفة بين يدي الله لكان هذا نفاقًا، يعطون الله - تعالى - من أبدانهم خلاف ما في قلوبهم من التسليم إليه، وكيف يكون تسليمًا واعتذارًا وأركانه بين يديه، ولسانه يناجيه على العادة، وقلبه في مزايد الدنيا، ومُناها وساوس النفس، ألا ترى إلى قول رسول الله ﷺ: «لا يقبل الله صلاة امرئ لا يشهد فيها قلبه ما يشهد بدنه»[2].

فقوله: لا يقبل الله منه؛ ليس على أنه لا تجزيه صلاته فيعيد، ولكن لا يقبلها منه كاملة بنورها وبراءتها، وميزانه الذي وضعه بين العباد، وما ظنك برجلٍ سمع أنه رُفع إلى الملك من خبره ما لا يحسن موقعه منه، فقصده معتذرًا، فأنفذ إليه شاكريته وخدمه؛ ليتقوموا مقام الاعتذار، وأقبل بنفسه على ما لا يعنيه من شهواته متشاغلاً، أليس محقوقًا بالردِّ والحرمان؟ أليس من قول الملك أن يقول: أبهذا القدر يا ليت من الخبر الذي رفع إليَّ، ومن وجدي عليك، وعنايتك من

---

(1) رواه الطـبري في التفسير [191/30]. وأورده السيوطي في الدر المنثور، تفسير قوله تعالى: «يا أيتها النفس المطمئنة» وعزاه إلى ابن أبي حاتم وابن مردويه والضياء في المختارة من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس [513/8]. وأورده الحكيم الترمذي في نوادر الأصول، في أن الحرص والاعتراض والعجلة شؤم [110/1].

(2) رواه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب عن رجل من آل الحكم بن أبي العاص برقم (4840) [278/3] ولفظه عنده: «كانت بنو إسرائيل إذا خرجت خشية الله من قلوبهم شهدت أبدانهم وغابت قلوبهم لا يقبل الله صلاة أحد لا يشهد القلب فيها ما يشهد البدن».

الاعتذار هذه العناية؟!

فلما أُيدت هذه الأمة بفضل اليقين، وخُصَّت أولياء هذه الأمة بأجزاء من النبوة، أُعطيت صفوف الصلاة؛ لأنه أمكنهم أن يقوموا لله بدنًا، ويقفوا عليه قلبًا، فاتفق الظاهر والباطن، فلم يكن قيامهم نفاقًا؛ لأن النفاق كل شيءٍ له وجهان، ومنه نافق اليربوع، فإن لها بابين، وإنما يعطي الشيء إذا أعطى خيار الأمة، ثم يكون سائر الأمم تبعًا لهم، وينالون الحظ من ذلك لحظوط خيارهم.

وقال رسول الله ﷺ: **«أعطيت هذه الأمة من اليقين ما لم تُعطَ أمة»**(1).

وهو قوله - تعالى -: ﴿ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ ﴾ [آل عمران: 73] الآية.

وكذلك قيل في الإنجيل: امة محمد ﷺ حكماء علماء، كأنهم من الفقه أنبياء، وإنما يُوصف خيارهم بذلك، ويكون الآخر تبعًا لهم.

وقيل في التوراة: أمة محمد ﷺ صفوة الرحمن، وإنما صفت نفوسهم من كدورة الأخلاق الترابية باليقين، حتى ذابت منها الترابية التي فيها، بمنزلة جوهر الفضة يُؤخذ من المعدن، فيُذاب حتى يزايله التراب، ثم يُذاب حتى يصفى، ويتخذ نُقرةً، ثم يُذاب ويصفى حتى يصلح للضرب فيكون ثمنًا للأشياء، وأمة محمد ﷺ حظوظهم من حظ رسولهم، فكما أن محمدًا ﷺ سيد الأنبياء، فكذلك أمته سيدة الأمم.

وقال رسول الله ﷺ: **«إن الله أعطاني خمسًا: جعل الأرض كلها لي مسجدًا، وترابها لي طهورًا، وأحل لي الغنائم، ونُصرت بالرعب من مسيرة شهر»**(2)، فورثت أمته صفة هذه الخصال منه، وذلك كله بفضل اليقين الذي أُعطوا.

---

(1) هذا الأثر لم أجده بلفظه فيما لدي من مصادر ومراجع.

(2) ورد بلفظ: «عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتي ادركته الصلاة فليصل وأحلت لي المغانم ولم تحل لأحد قبلي وأعطيت الشفاعة وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة». رواه البخاري في صحيحه، كتاب التيمم، حديث رقم (328) [128/1] وروى الحديث غير البخاري.

وشرح هذا الباب طويلٌ فاختصرناه.



ذكر علّة مَن صلَّى خلف الإمام وحده

وإنما قيل لمن صلَّى خلف الصف وحده بأن يعيد تأدبًا؛ لأنه رفض هدية الله – تعالى – التي خصَّه بها من بين الأمم، وترك التمثل بأهل الاتفاق، فإذا انفرد من كان بهذه الصفة فقد تشبَّه بالمخلوقين المرحومين المنحوسين حظهم.

وكذلك قال إبراهيم النخعي فيمن صلَّى خلف الصف وحده أنه قد ذهب فضله، فأما فرضه فقد قُضي.

وعن سعيد بن جبير أن النبي ﷺ إنما أمره أن يعيد تأديبًا.

وعن عمرو بن مرة أنه قال في حديث رابضة: إنما أمره النبي ﷺ أن يعيد تأديبًا، كانوا يرون هكذا.

وكان النبي ﷺ يأمر بتسوية الصفوف، ولا يكبر حتى يمشي في الصفوف، فيسوي مناكبهم ويقول: **«لا تختلفوا فتختلف قلوبكم»**(1).

ويقول: **«إن الله أعطاني من أمتي سبعين ألفًا يدخلون الجنة بغير حسابٍ [وجوههم كالقمر ليلة البدر] قلوبهم على قلب رجلٍ واحدٍ»**(2).

وعن زياد بن أبي حبيب قال: كانت قلوبهم على قلب رجل واحد، يعني: أصحاب رسول الله ﷺ، فأعلمهم أن اختلاف القلوب نقصٌ في صلاتهم، يحقق هذا القول ما قلنا من اختصاصهم بالصفوف من بين الأمم، إنما تصير القلوب أشتاتًا باختلاف النفوس في الشهوات، فإذا ماتت تخلصت القلوب من وساوسها، فصارت كقلب رجلٍ واحدٍ.



(1) جزء من حديث رواه الحاكم في المستدرك، ذكر فضائل سور وآي متفرقة، حديث رقم (2115) [766/1] ورواه أبو داود في السنن، تفريع أبواب الصفوف، حديث رقم (664) [178/1] ورواه غيرهما.

(2) رواه أبو يعلى في مسنده، حديث رقم (112) [104/1] والحكيم الترمذي في نوادر الأصول، في سجود الشكر، [302/1].

ذكر علَّة الصف الأول

وأما علَّة الصف الأول، فمن أجل أنهم هم الذين يتلقون الرحمة إذا نزلت، وهم حجاب الصف الثاني.

ورُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال لأصحابه: «**أي الشجرة أبعد من الحذف؟** قالوا: فروعها، **قال: فكذلك الصف الأول**»(1).

وعن ابن عباس ﷺ قال: الرحمة تنزل على الإمام، ثم تأخذ من خلفه ثم من عن يمينه، ثم من عن يساره.



ذكر علَّة الإمام

وأمَّا علَّة الإمام، فلما بيَّنا بدءًا من الاتفاق، فإن هذا تحقيق ما قلنا إنه ابتغى من الصف الاتفاق على العبودة، والتسليم له نفسًا وقلبًا؛ لأن الإمام يجمعهم على ذلك، ولو لم يكن لهم إمام كان بعضهم قيامًا، وبعضهم ركوعًا، وبعضهم سجودًا، واختلفت أحوالهم فصاروا فُرادى، فلذلك قيل: «الإمام ضامن»(2)؛ لأن صلاته ضمنت صلاة من خلفه، وتضمنت أفعاله أفعالهم، ينظرون إليه، ويقتدون به، ليكون قيام الجميع قيامًا واحدًا، وركوع الجميع ركوعًا واحدًا، وسجودهم كذلك، فكما حُظر عليهم أن يتفرقوا بأبدانهم، كذلك نُصب لهم إمام كي لا تتفرق أفعالهم.

وقال الله - تعالى - في تنزيله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝ ﴾ [الصف:4]، فالبنيان مستوٍ لا يتقدم بعضه بعضًا ولا يتأخر.

قال قتادة: وهما صفَّان: صف الصلاة، وصف العدو، وابتغى منهم تسوية

---

(1) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(2) ونصه كاملاً: «الإمام ضامن والمؤذن مؤتمن فأرشد الله الأئمة وغفر للمؤذنين» رواه ابن حبان في صحيحه، ذكر إثبات الغفران للمؤذن، حديث رقم (1672) [560/4] ورواه بنحوه ابن خـــزيمة في الصحيح، باب الرخصة في كلام الإمام...، حديث رقم (1528) [15/3] ورواه غيرهما.

القيام بين يديه كالبنيان المرصوص. وكذلك كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبهم ويسوي صفوفهم ويقول: «**لا تختلفوا فتختلف قلوبكم**»[1].

وكان عمر ﷺ يبعث رجالاً في تسوية الصفوف، ولا يكبر حتى يرجعوا من مؤخر المسجد، فيعلموه بذلك، وكانت المدة تطول فكان يعتمد على وتد في قبلة المسجد حتى يرجع إليه من يخبره بأن الصفوف قد استوت.

وروى عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «**إن الله وملائكته يصلون على الذين يَصِلُون الصفوف وعلى مسوي الصفوف**»[2].

وقال ﷺ: «**إن الشيطان إذا وجد ثلمة في الصف اعترض تلك الثلمة، فيقف هناك كي يفسد على أهله دينهم**»[3].

فذلك يستوجب من يصل الصف صلاة الرب - تبارك وتعالى - وملائكته.

❖❖❖

ذكر علَّة صلاة الوتر وعلَّة قراءة السور الثلاث فيها

وأمَّا علَّة صلاة الوتر فمن أجل أن العشاء أربع فأمروا بالوتر؛ ليرتفع إليه عمل الليل وترًا.

كما ورد في الخبر: «**فإنه وتر يحب الوتر**»[4].

كما أُمروا بالمغرب ثلاثا؛ ليرفع إليه عمل النهار وترًا، وأمَّا علَّة القراءة بالسور الثلاث من بين السور فمن أجل أن ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝ ﴾ [الأعلى: 1] هي سورة أبيه إبراهيم خليل الرحمن وسورة موسى - صلوات الله وسلامه عليهما -.

---

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

(2) رواه الحاكم في المستدرك، ومن كتاب الإمامة وصلاة الجماعة، حديث رقم (775) [334/1] وابن حبان في الصحيح، وذكر مغفرة الله..، حديث رقم (2163) [536/5] ورواه غيرهما.

(3) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(4) رواه مسلم في صحيحه، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها، حديث رقم (2677) [2063/4] رواه ابن ماجه في السنن، باب أسماء الله عز وجل، حديث رقم (3861) [2/ 1269] ورواه غيرهما.

ألا ترى إلى قوله ﷻ: ﴿ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ [الأعلى:19] وفي هذه السورة كنز لأمة محمد ﷺ.

وكان أبو جعفر محمد بن علي الباقر - عليهما السلام - يقول: لو يعلم الناس ما لهم في سورة: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ [الأعلى:1] ففي سائر القرآن أُمر العبد بأن يسبح الله - تعالى - ويحمده، وأُمر أن يسبح باسمه، وأمر هاهنا أن يسبح اسم الرب، وهذا من علم الأولياء لا تناله العامة، ولا تفهمه.

وأمَّا سورة: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [الكافرون:1] فهي براءة من الشرك محضًا.

وأمَّا سورة: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص:1] فهي الإخلاص بحتًا؛ فجمع هذه السور الثلاث في الوِتر.



ذكر علَّة القنوت

وأمَّا علَّة القنوت، فإن الصلاة قد رُفعت إلى الله - تعالى - وتلك آخر صلاة؛ فجعل القنوت في الركعة المختومة التي تُوتر ما تقدم من الصلاة، فنُدب إلى رفع الحوائج إلى الله - تعالى - والارتعاب إليه؛ لتلحق الرغبات تلك الصلوات المرفوعات إلى الله - تعالى - فيجاب.

وقد قال - الله - تعالى: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾ [الشرح:7، 8].



ذكر علَّة صلاة الفِطر وصدقته وصلاة الضُحى والأضحى

فأمَّا صلاة الفِطر فهي صلاة شكر، ألا ترى أنه في وقت الضحى افترض الله عليهم شهرًا سمَّاه: رمضان، فيرمض به ذنوبهم إرماضًا لوقارة الرحمة التي أودع الله - تعالى - ذلك الشهر وضمنه هذا.

فلما أكملوا العدة كبروا الله على ما هداهم ثم برزوا إلى الله في وقت الضحى بركعتين شكرًا له على ما أولاهم من الرحمة التي ضمنها الشهر.

وأمَّا صلاة يوم الأضحى فهي صلاة يومٍ سمحٍ للوافدين إلى بيته، بأن غفر لهم

السيئات وضمن عنهم التبعات فصاروا عُطُلاً من الذنوب والتبعات فأهل الأمصار يتلقون تلك الرحمة لبرزوهم إلى الله - سبحانه - تعرضًا لله ثم ينصرفون ويتقربون بنسكاتهم يفدون نفوسهم الخائنة بذلك الفداء كما فدي إبراهيم خليله ولده - صلوات الله عليهما - بما أمره الله - تعالى - من الكبش.

وأمَّا علَّة تقديم صدقة صلاة الفطر على الصلاة وعلَّة تأخير الأُضحية أمرها بالصدقة قبل البروز إلى الله - تعالى - وأمر يوم الأضحى بالبروز إلى الله - تعالى - ثم القربان لأن الصدقة هاهنا طهرةٌ للصائم من الرفَث في صومه واللغو والمراء والغضب واللحظ والطرفة وأشباه ذلك، مما خيف عليه النقص في صومه فأمر بأن يتطهر بالصوم والصدقة ليطهُّرَ الصومُ بدنَه ولتطهرَ الصدقةُ صومَه الذي قد أدخل فيه ما ليس منه من اللغو والرفث والمراء والغضب حتى برزوا إلى الله - سبحانه وتعالى - فقد جمعوا بين الطهارتين طهارة البدن بالصوم وطهارة الصوم بالصدقة، فيكون قد خرج مع الكمال والوفاء له بفرضه. وقد قال الله - تعالى -: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝ ﴾ [الأعلى: 14، 15]، فروي أنها نزلت في صدقة الفطر.

وأمَّا الأُضحية فأمر أن يؤخرها حتى يصلي ثم يقترب إلى الله - سبحانه - بالنسك؛ لأن هذا يوم فداء الله - تعالى - ولد إبراهيم خليله - صلوات الله وسلامه عليهما - من الذبح بهذه الذبيحة فبقي هذا الفداء وراثته في هذه الأمة عن إبراهيم الخليل عليه السلام لأن هذه الملة ملته الحنيفية فأمر بركعتين قبل الفداء والقربان؛ ليجدد إلى الله - سبحانه وتعالى - تسليم نفسه بركعتين.

فإن الصلاة تجديد تسليم إلى الله - تعالى - نفسه إسلامًا وعبودة كما ذكرناه بدءًا، فإذا سلم نفسه إليه تقرب إليه بالقربان، وكيف يتقرب إليه ولما يسلم؟! ألا ترى إلى قوله جل جلاله: ﴿ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾ [نوح: 10]. وقال تعالى: ﴿ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ﴾ [هود: 3].

فالتوبة: الرجوع وكيف يرجع إليه وهو عار؟! لأن العبد إذا أذنب تعرى من سنن الله فيسأل الله - تعالى - المغفرة وهو الستر، فإذا ستره رجع إليه مع الكسوة فكذلك هاهنا أمر بأن يفدي نفسه بالذبح؛ لأنه قد عمل ما استوجب به النار، وقد أهلك نفسه فأعطي الفداء ليفتدي به، فينبغي أن يسلم نفسه إليه ثم

يفتدي ويتقرب فإن الصلاة بذل النفس تسليمًا؛ لأنه لما أذنب ارتجع في تسليمه وأخل بمركزه عن مقام العبودة فلما رجع إلى الصلاة جدد تسليمه، ولذلك أمر هاهنا بالصلاة ليجدد تسلميه، فكذلك العبد الأبق يرجع من إباقه ثم يفتدي بالفداء من جنايته وكيف يقبل فداؤه. وهو في إباقه لم يسلم نفسه إلى مولاه؟!.

❖❖❖

ذكر علّة توالي التكبيرات فيهما

وأمّا علّة توالي التكبيرات فمن أجل أن الرسول ﷺ كان إذا خرج إلى المصلى شخصت إليه الأبصار لِما ركُب الله في خِلْقته من الحسن والجمال والنور والبهاء وحسن التقويم، وألبسه من المهابة والهيبة، وألبقه من الحلاوة والملاحة، وأعطاه من العز والشرف، فتشخص إليه الأبصار، فلا تكاد أن تشتفي من النظر إليه فثقل عليه أن تشخص أبصار أهل الغفلة إليه فتُشغل به قلوبهم عن الخالق، فكأنه رأى نفسه سببًا لشغل أهل الغفلة فركبته أهوال هذه الحالة، فلما صار إلى المصلّى فزع إلى الصلاة ثم والى بين التكبيرات؛ لأن التكبير هو تسليم الكِبر إلى الله - تعالى - يترضى بذلك مولاه عن عبديه من الغفلة فلا يزال يُكبِّر حتى يسكن ذلك الغبار على الهول عن صدره فهو ﷺ وإن كان عظيم القدر مستقيم القلب منتصبًا بين يدي الله في محل عظيم من ملكه وقربته ولا يلتفت قلبه إلى شخوص الأبصار فقد كان يخاف أن يصير مشغلة للخلق عن الله - تعالى - فكان يسكن ذلك الغبار: غبار الهول الهائج بتسليم الكبر إلى - الله - تعالى.

فلذلك عُدَّ تكبيره من تسع تكبيرات، ومرة إحدى عشرة، ومرة ثلاث عشرة، وقد أتت به الرواية عن فعله فإنما هذا على قدر بقاء الغبار وسكونه من صدر فلا يزال يكبِّر حتى ينجلي فإذا انجلى تخلّى له مقامه بين يديه بقلبه فسكن وأطمأن إلى مقامه.

فهذه علة توالي التكبيرات، وإنما صاروا إلى التكبير في كل ركعة؛ لأنه في حال القيام والانتصاب، وهو في حال الآدميين في نفي الكبر، فإذا ركع وسجد فتلك حال الخضوع والخشوع، فكان إذا قام أصابه الهول في حال القيام في الركعتين، فإذا ركع فذلك فعل خضوع وسكون.

ولذلك كان ابن عباس - ﷺ - يختار أن يبدأ بالتكبير في الركعة الثانية قبل

القراءة ولا يوالي بين القراءتين لما وصفناه وأن حال القيام خلاف حال الركوع وإنما أصابه الهول لرؤية الناس إياه؛ وإنما رأوه في حال القيام فإذا ركع وسجد فقد تحول إلى حال لايهتاج منه ذلك الهول والخوف.

والدليل على ما وصفناه بدءًا: أنه بدأ بالصلاة قبل الخطبة؛ لأنه لما تخلص من شخوص الأبصار إليه عند وصوله إلى المصلَّى فزع إلى الصلاة وكان في صلاة الجمعة يخرج من الحجرة فيرتقي المنبر، فيبدأ بالخطبة قبل الصلاة؛ ليشغلهم بالمواعظ الصافية من القلب الصافي الذي قد تنزّه والنفس التي قد صفت.

وروي عن جابر بن عبد الله أنه قال: «**كان رسول الله ﷺ إذا خطب أو جاءه الوحي فلكأنه نذير جيش حين صبحهم العدو**[1]**، فإذا سُرِيَّ عنه فأكثرهم تبسمًا،وربما كان يخطب فيزعزع أعواد المنبر تحت قدمهم حتى قال عمر: كنت أقول: [.....]**[2] **هو برسول الله ﷺ**» يعني: المنبر.

فكان يأخذ بتلك المواعظ قلوبهم فيشغلهم بها عن نفسه، وفي العيد كانت مسافة يحتاج إلى قطعها إلى المصلَّى والأبصار شاخصة إليه فهو وإن كان يقظان لا يضره ذلك فالخلق في الغفلة فخاف أن يكون سببًا لشغلهم.

ألا ترى أنه يُكتفى في الجمعة بتكبيرة واحدة ولا يُكتفى في العيد بواحدة حتى يوالي بالتكبيرات.

ألا ترى أن رسول الله ﷺ كان في مسيره يوم فتح مكة فرمى ببصره أمامه، فإذا الجيش قد ملأ ما بين يديه وعن يمينه وعن شماله من الأرض؛ فانحنى على رجله حتى مس غيبوبة مُقدَّم رجله فقال: «**لبيك إن العيش عيش الآخرة**»[3].

وهذه كلمة فزع فخاف وهاب ذلك الجمع؛ لأن الجمع لله، والجنود لله،

---

(1) روى نحـــوه ابن حبان في صحيحه، ذكر الإخبار عما يجب على المرء..، حديث رقم (10) [186/1] والنـــسائي في السنن الكبرى في بابين أحدهما باب التحول بالموعظة حديث رقم (5892) [449/3] وروى نحوه غيرهما.

(2) لم أقف عليه فيما لدي من مصادر ومراجع.

(3) رواه الـبخاري في صـــحيحه في بـــابين أحـــدهما باب التحريض على القتال..، حديث رقم (2679) [1043/3] ورواه مـــسلم في صـــحيحه، بـــاب غـــزوة الأحزاب، حديث رقم (1805) [1431/3] ورواه غيرهما.

والكبرياء لله، والعظمة لله، والخلق والأمر لله.

وكان يقول ﷺ في أدبار الصلوات: «اللهم بك أصول وبك أجول»[1] وبك أعوذ وبك ألوذ، فقيل له: أنك تواظب على هذه الكلمات فقال: «إن أخًا لي من الأنبياء نظر إلى قومه فأعجبه كثرتهم فأوحى الله – تعالى – إليه أن اختر قومك غزو سنة أو جوع ثلاث سنين أو موتًا ذريعًا، فاختار الموت فمات منهم في يومٍ واحدٍ سبعون ألفًا حتى ذهبت تلك الكثرة»[2]، فالأنبياء على أمر عظيم من ربهم لا يحتمل ذلك الأمر غبارًا.

ولذلك كبَّر رسول الله ﷺ وقال: «إني بعثت على طريق مثل حد السيف إن زغت عنه هلكت وهذا طريق القلب إلى الله – تعالى – فلا يحتمل من الميل رأس إبرة أن يميل عنه إلى خلفه بركون أو اعتماد»[3].

ألا ترى إلى لوط عليه السلام حين غابت عليه الملائكة قوله تعالى: ﴿ أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ﴾ [هود:80].

وإلى قول سارة حيث قالت : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ۝ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ ﴾ [هود:72، 73].

فالإســـلام واســـع لأنه بالأركان وطريق القلب مثل حد السيف فمن استقام فيه جـــاز علـــى مثل حد السيف يوم القيامة على النار، وهو الصراط، ومن توسع هاهنا ومال هكذا وهكذا عن الله عجز عن الجواز إلا بعد أمر عظيم يحل به.



ذكر علّة السنن

وأمَّا علَّة السنن المكتوبات فإن الصلاة إنما تتم بحفظ الأركان عند الحدود بإقامة المعالم عند العامة؛ لاستيلاء الغفلة على قلوبهم رفعت إلى الله – تعالى – صلواتهم غير وافرة فأمروا بالسنن توفيرًا للفرض؛ لأن حفظ الحدود في الصلاة

(1) روى نحـــوه الطـــبراني في الكـــبير برقم (11980) [349/11] وفي الأوسط برقم (1003) [300/1] وفي الدعاء برقم (664) [211/1].

(2) لم أقف عليه فيما لدي من مصادر ومراجع.

(3) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

فرض وإقامة المعالم فضل وإنما هي زينة الصلاة وجمالها وهي صلاة الأنبياء والأولياء المقربين وباليقين ينالون ذلك؛ لأن الأمور صارت لهم معاينة لكشف الغطاء عن قلوبهم باليقين الوارد على قلوبهم فصلى النبي ﷺ والولي هذه السنن لتقتدي العامة به، وقد وصفنا إقامة المعالم في كتاب الصلاة، ولكننا نذكرها هنا شيئًا من ذلك كي يعلم، فالمعالم في الصلاة فالمشاعر في المناسك وكل موضوع تقوم فيه وكل فعل من أفعال الحج فهو مشعرًا؛ وإنما سمي مشعرًا لشعور قلبك بربك في تلك الحال وأنك تعلمه كأنك تراه وتريه فعلك، فكذلك المعلم كل حال تتحول منها إلى حال في صلاتك يربك تلك الحالة ماذا يريد بها.

فلكل مشعر ومعلم صورة من ذلك الفعل للعبد فيه بغية وللرب فيه إجابة، فالقيام تسليم النفس بجميع الجوارح إليه، والثناء مناجاة، والقراءة موعظة النفس، والركوع خضوع، والسجود خشوع، والجلوس ارتعاب، فهذه معالم فإقامتك إياها أن تكون منتبهًا في وقت هذه الحالات، ذاكرًا لما وصفنا.



ذكر علَّة الصلاة على الجنائز وعلَّة التكبيرات

وأمَّا علَّة الصلاة على الجنائز فإن الميت لمَّا فارقته روحه، استقبله ما قدم من خير وشر واستقبله أهوال الآخرة فهو محتاج إلى الشفاعة ولهذا مثال موضوع من تدبير الله – تعالى – في الدنيا، فلو أن سلطانًا دعا بعض الرعية، وقد رُفعت هناك عند الأمير له مساوئ أفعاله يمشي معه إلى بابه أهل خزانته، يتقدَّمون إلى الأمير شُفَّعًا فأول ما يبدؤون بالثناء عليه يريدون بذلك إطفاء الثائرة ثم يشفعون له.

فإذا مات العبد فهو عبد مدعو إلى الجزاء مقبوض عن الدنيا قد حيل بينه وبين أعمال الأحياء فهو أحوج ما كان إلى الغياث في هذا الوقت.

وأمَّا عدد التكبيرات فإن التربيع في الأشياء إتمام، والتثليث منقوص، فاقتصر على أربع، وروي أن الملائكة كبرت على آدم عليه السلام أربعًا.

وأمَّا علَّة التكبير فإن هذا الآدمي إنما ترك الأمر ووثب في النهي استبدادًا بالكبر الذي فيه، وكل مَن سفه الحق فهو من الكبر فعل ذلك.

وسُئل رسول الله ﷺ عن الكبر فقال: «أن تسفه الحق وتغمض الناس»[1].

فإذا كبر يريد بذلك تسليم الكبر إلى ولي الكبر يترضّاه بذلك، ثم يترضّاه بالثناء، ثم يتقرّب إلى الله – تعالى – بالصلاة على النبي ﷺ، ثم يشفع للميت، ثم يسلم يخاطب بسلامه الملكين ومن معه من الآدميين.

وقال بعض الفقهاء: يكبر ويقرأ فاتحة الكتاب.

وقال آخرون: ليس في الجنازة قراءة، وهذا أعجب إلينا؛ لأن في فاتحة الكتاب ثناء، وفي آخرها دعاء لنفسه، فإذا أثنى ثم دعا لنفسه وأخر الدعاء للميت كان بمنزلة قوم شفعًا إلى أمير في مأخوذ لهم فأثنوا عليه ثم سألوه حوائجهم، ثم ثنُّوا بحاجة المأخوذ، فإذا فعلوا هذا كانوا قد رأوا من أنفسهم قلة المبالاة؛ لأنهم مشوا إليه من أجله ولغياثه فإذا بدءوا بحوائج أنفسهم فهذا تميز غير لائق بهم؛ لأنهم إذا اشتغلوا بحاجات أنفسهم فقد لهوا عن صاحبهم وخرجوا عن حد الشفقة.



ذكر علّة إمامة السلطان

أمّا ذكر علّة إمام السلطان فإن السلطان ظلُّ الله في الأرض، ولولا ذلك ما أطاعوه ولا تذلّلت نفوسهم له.

وقال رسول الله ﷺ «السلطان ظل الله في الأرض يأوي إليه كل مظلوم، فإن عدل فله الأجر وعليكم الشكر، وإن جار فعليه الإصر وعليكم الصبر»[2].

وقد وضع الله – تعالى – في أرضه أربعة من آثاره: القرآن، والكعبة، والمؤمن، والسلطان، فعلى القرآن بهاؤه، وعلى الكعبة وقاره، وعلى السلطان ظله، وعلى المؤمن نوره.

فبهذه الأشياء تدوم الأرض وتستقر، فإذا رُفع القرآن، وهُدمت الكعبة،

(1) رواه البزار في المسند عن عبد الله بن عمرو بن العاص برقم (2433) [408/6]

(2) رواه البيهقي في شعب الإيمان، فصل في فضل الإمام العادل..، حديث رقم (7369) والقضاعي في مسند الشهاب (219 السلطان ظل الله في الأرض..، حديث رقم (304) [201/1].

وذهب السلطان، ورُفع المؤمن؛ لم يبقَ بعدها لأهل الأرض قرار، فعندها تقوم الساعة، والسلطان إذا صلى على موتى المسلمين فبظله يصلي والعالم بعلمه، والمتقي بتقواه وكل إنما يُصلّى عليه بفضله الذي أوتي، ولا يلحق السلطان أحد؛ لأنه بظله يصلي إلا المؤمن الذي به تقوم الأرض؛ وهم أربعون[1]، فذلك أكبر من السلطان؛ لأنه بنور الله يصلي على الميت والسلطان بظله.

ومن هاهنا قدَّم الحسين بن علي - رضي الله عنهما - سعيد بن العاص على أخيه الحسن بن علي - رضي الله عنه - حتى صلى عليه. فقال له: تقدَّم فلولا أنها سُنةٌ ما قدمت، وإنما صارت سُنة إبراهيم فأخَّرهم لهذا المعنى عندنا، والله أعلم.

عن أبي حازم الأشجعي قال: سمعت الحسين يقول لسعيد بن العاص وهو على

---

(1) يشير قول النبي ﷺ: «البدلاء أربعون رجلاً اثنان وعشرون بالشام وثمانية عشر بالعراق، وكلما مات واحد بدل آخر، فإذا كان عند القيامة ماتوا كلهم». رواه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول، الأصل الحادي والخمسون، في بيان عدد الأبدال وصفاتهم [361/1]. وقال الشيخ عبد الرزاق القاشاني في كتابه اصطلاحات صوفية ورشح الزلال في شرح الألفاظ المتداولة بين أرباب الأذواق والأحوال:

والبدلاء: سبعة ومن سافر من القوم عن موضع وترك جسداً على صورته حتى لا يعرف أحد أنه فقد، فذلك هو البدل لا غير وهم على قلب إبراهيم عليه السلام.

وأما النقباء: فهم الذين استخرجوا خبايا النفوس، وهم ثلثمائة.

وأما النجباء: فهم أربعون وهم المشغولون بحمل أثقال الخلق، فلا يتصرفون إلا في حق الغير.

وأما الإمامان: فهما شخصان أحدهما عن يمين الغوث ونظره في الملكوت، والآخر عن يساره ونظره في الملك، وهو أعلى من صاحبه، وهو الذي يخلف الغوث.

وأما الأمناء: فهم الملامتية.

وأما الملامتية: فهم الذين لم يظهر على ظواهرهم مما في بواطنهم أثر البتة وهم أعلى الطائفة وتلامذتهم يتقلبون في أطوار الرجولية.

وأما الإفراد: فعبارة عن الرجال الخارجين عن نظر القطب.

وأما القطب وهو الغوث: فعبارة عن الواحد الذي هو موضع نظر الله من العالم في كل زمان، وهو على قلب إسرافيل عليه السلام.

وأما الأوتاد: فعبارة عن أربعة رجال منازلهم على منازل الأربعة الأركان من العالم شرق وغرب وشمال وجنوب مقام كل واحد منهم مقام تلك الجهة. (الكتاب مطبوع بالدار بتحقيقنا).

إمرة المدينة يوم مات الحسن بن علي - رضي الله عنهما -: تقدم، فلولا أنها سُنّةٌ ما قدمت فتقدم سعيد بن العاص فصلّى عليه، فلولا أن الحسين عرف المعنى في هذا وعلم أنها سُنة ما كان يترك الصلاة على أعز الخلق عليه ويولي أمير بني أمية.

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**السلطان ظلُّ الله في أرضه مَن نصحه اهتدى ومَن غشّه ضلّ**»[1]. وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ مثله.

❖❖❖

ذكر علّة خير الصفوف في الجنازة مؤخرها

أمّا علّة ما جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**خير صفوف الجنائز مؤخرها**»[2]. فمن أجل أن صلاة الجنازة صلاة شفاعة فأهل الانتباه يتأخرون عن أوائل الصفوف في حياء من ربهم، وازراء بأنفسهم فذلك مقام حياء.

وأمّا الصفوف في الصلاة المفروضة فأفضلها مقدمها؛ لأنه مقام اعتذار وتوبة وتوقع نزول الرحمة، فكلما كنت أقرب إلى الإمام فأنت أوفر حظًا من الرحمة إذا نزلت.



ذكر علّة قيام الإمام على الجنازة

أمّا علّة قيام الإمام من الرَّجل موضع الصدر، ومن المرأة موضع الوسط منها، فمن أجل أن المرأة في نعشها مستورة، والرجل غير مستور، فإذا وقف عند موضع الوسط لم يأمن وقوع بصره على موضع العورة منه ويتأمله ببصره فيتباعد منه إلى ما يلي الرأس.



ذكر علّة التسليم على الجنازة وفي الصلاة

أمّا علّة مَن رأى تسليمة واحدة في الجنازة فمن أجل أنه مقام شفاعة وإذا رجع من ربه إلى خلقه اكتفى بأن يُسلِّم على كاتب الحسنات فقط.

وصلاة المكتوبة والنافلة مقام اعتذار وتوبة فإذا فرغ منها رجع من ربه إلى

(1) رواه أحمد البرتي في فضيلة العادلين، حديث رقم (31) [140/1] وروى نحوه غيره.

(2) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

ملائكته بتسليمتين؛ لأن كاتب السيئات محتاج إلى أن يؤمِّنه بالسلام، فإن السلام أمان، وقد عاهد ربه في صلاته ألاَّ يعود، فإذا رجع منه إلى خلقه رجع بتسليمتين فأعطى كاتب السيئات ما أعطى كاتب الحسنات.

❖❖❖

ذكر علَّة المشي أمامها وخلفها

وأمَّا علَّة المشي أمامها فهو في الظاهر طلب التوفيق بالناس وأن يوسعوا على الخلق شأن العبودية، وكان رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر - رضي الله عنهما - يمشون أمامها.

ورُوي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: فضلُ المشي خلفها على المشي أمامها كفضلُ المكتوبة على النافلة.

وقال: إن أبا بكر وعمر سهلان مختاران يسيران في الناس سيرة سهلة وهذا في الظاهر هكذا، والمشي خلف الجنازة هو الأصل. ورُوي عن ابن عمر أنه قال: صدر الجنازة للملائكة، ومؤخرها لبني آدم. ومن هاهنا قال رسول الله ﷺ حيث رأى ركَّابًا في جنازة فقال: «**ألا تستحيون؟! إن ملائكة الله على أقدامهم، وأنتم على ظهور الدواب!**»[1].

فهذا يدل على أن الركبان كانوا أمام الجنازة وذلك أنه جاء عنه أنه قال: «**الراكب خلف الجنازة، والماشي حيث شاء**»[2].

فالراكب أمام الجنازة، والملائكة مشاة قبيح، والراكب خلفها بين مشاة بني آدم غير قبيح، كرم الله وجهه لما فضَّل المشي خلفها، إنما كلَّم أهل الظاهر من ظاهره فيُقدَّر هكذا كانوا يفعلون، ولو كلمهم من باطنه لتحيروا وعجزوا عن إدراكه وضاع الكلام.

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الجنائز، حديث رقم (1315) [508/1] والترمذي في السنن، (28 باب ما جاء في كراهية الركوب خلف الجنازة) حديث رقم (1012) [333/3].

(2) رواه النسائي في السنن الكبرى، (مكان الراكب من الجنازة) حديث رقم (2069) [1 - 633/2] والترمذي في سننه، باب ما جاء في الصلاة على الأطفال، حديث رقم (1031) [349/3] ورواه غيرهما.

ألا ترى أنه ذكر الفضل فقال: فضل هذا على ذلك، يكلمهم من طريق الثواب والحساب والميزان، لا من طريق المعرفة والدرجات، والتزيُّن لله - تعالى - بالأعمال عبودةً له.

فإذا حضرت جنازة فالناس فيها على ثلاث منازل، فأمَّا أهل الغفلة فإما يبغونها ابتغاء ثواب الله - تعالى - لما قد علموا أنها في الشريعة مسنونة، وأن مَن صلَّى على الجنازة فله كذا وكذا، ومن حثا في قبره فله كذا وكذا.

فهم أهل عَجْز فيه وتخليط، يعملون على العادة والسليقة: أي الطبيعة وعلى ذكر العقاب والثواب، يحُطُّون بها عن أنفسهم الذنوب، ويبنون بها المساكن في الجنان لأنفسهم تمنِّيًا.

وأمَّا أهل الورع والتقوى فهم المنتبهون عن الآخرة دارون، هذا عبد دعي وقد رُفع إلى السيِّد مساؤه ولا يدرون ما يصنع به، فراعهم ذلك فشيعوه إلى بابه ووضعوه بين يديه وتلقوا سلطانه بالثناء، ثم أمعنوا في الشفاعة له ضارعين، وإنما شيعوه، لأن المؤمن حين حضره الموت وأيقن به، بُشِّر فأحب لقاء الله - سبحانه - وألقى بيده سلمًا وسلَّم نفسه إلى الله - تعالى - وانقاد للذهاب له فأخرج روحه ونفسه طيبة بلقاء الله - تعالى -.

فأهل الانتباه قاموا مع جسده ليتابعوه على ذلك التسليم إلى ملحده بمنزلة أمير بعث إلى بعض من رفع إليه مساوءه ليأخذه لحبسه، فلما أُخذ انقاد واستسلم فشيعه أهل وده وأقرباؤه إلى باب الملك منتظرين ما يكون منه متابعة له في الانقياد والاستسلام.

وأمَّا العارفون المشيِّعون فإنهم يشيعونه على غير هذا الوجه، وذلك أنهم خاصة الله - تعالى - ورجاله في أرضه، وأهل ولايته وحميته وأنصاره، يغضبون لغضبه ويرضون لرضاه قد زايلتهم أهواء نفوسهم، فإذا حضروا جنازة فأبصروها تصور لهم كأن سيدهم بعث إلى بعض عبيده ليذهب به إليه، فإذا حملوا الجنازة كانوا أمامها يعملون لله - تعالى - عمله، كأنهم هم الذين يذهبون به إلى الله - تعالى - مع الملائكة.

ألا ترى أن الملائكة موضعها في الجنازة أمامها؛ لأنهم بعثوا أن يذهبوا بهذا العبد إليه، فرجال - الله - تعالى في أرضه وخاصته إنما يعملون لله تعالى، والعامة

إنما تعمل لأنفسها ابتغاء وجهه ترضيًا واستجلابًا لنواله، وكذلك تدبيره الذي وضعه لعباده في الدنيا، وذلك لو أن أمير المؤمنين بعث رسولاً إلى والي بعض (كور خراسان) ليذهب به إليه، فأزعجه بالعجلة فنهضا إليه فكُلّما مَرّ بكُوره مَرّ معه واليها وهم نظراؤه، شفقة وتحننا عليه؛ لأنهم لا يدرون ما يكون منه إليه، فهم يشيعونه على انقياده وذهابًا به إليه ويسيرون معه عطفًا عليه، وغياثًا له فإذا انتهى إلى أمير خراسان مر به الرسول الذي وجهه أمير المؤمنين انزعج معه أمير خراسان إلى أمير المؤمنين، فليس مصيره على مصير هؤلاء الآخرين الذين شيعوه؛ لأن هؤلاء أشكاله ونظراؤه وأمير خراسان هو رئيسهم وفوقهم، وهو من رجال أمير المؤمنين وخاصته، يعمل أعماله في مملكته، فهو يذهب به إلى أمير المؤمنين في صورة الأشكال للرسول الذاهب به، كأنه يجذبه إليه جذبًا.

فأهل المعرفة رجال الله - سبحانه - يمشون أمام الجنازة على هذا السبيل، كأنهم رأوا أن هذا عبد دعاه إلى الملك بسلطان عظيم فهاج ذلك منهم، فذهبوا به على هذه الصورة من فعلهم، فهم أبدًا على المقدمة وأهل المعرفة أبدًا في كل أحوالهم مفارقون لأهل الظاهر في صورة الأعمال فإنه يتصور للورعين المنتبهين عن الآخرة فضائلها وثوابها، ونوال النفوس هناك، فهم يقصدون لإخلاصها.

وأمّا العارفون المنتبهون عن الله، فإنه تصور لهم الأمور والأعمال على أساس التدبير وبنيَّة ما خرج من غيث المشيئة ورحمة للعباد وكذلك في الاسترجاع في المصيبه فأهل الانتباه عن الآخرة يسترجعون تسليمًا وانقيادًا لحكمه بقوله:﴿ إِنَّا لِلَّهِ ﴾ [البقرة:156].

ويذكر المرجع لنوال ما وعده من العِوض والثواب، وأهل الانتباه عن الله يقولون إنا لله ملكًا،وإنا إليه راجعون شوقًا، فبذكر الملك وبرؤيته يتلذذون، وبالشوق إليه يرتاحون عند ذكر المرجع؛ لأنهم ذاقوا طعم العبودة، فإذا قالوا: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ ﴾ [البقرة:156] تلذذوا بهذا القول، كقول العبد من عبيد الدنيا: أنا للأمير وأنا عبده، يباهي به سائر العبيد ويفخر عليهم ويصول بذلك: ﴿ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة:156]يتباشرون بالرجوع إليه، ويتلذذون بذكر المرجع من الشوق إليه، وكذلك في تشييع الجنازة.

❖❖❖

ذكر علَّة الصلاة على الطفل

وأمَّا علَّة الصلاة على الطفل فإن الطفل وإن لم يكن له سيئات يُعاقب عليها، فمحتاج أن يقرب من درجات الوسائل ونوال الكرامة، ومحتاج أن يخفف عنه أهوال يوم القيامة؛ فصلاة المؤمنين له غياث وزيادة كرامة.



ذكر علَّة تكفين الميت

وأمَّا علَّة تكفين الميت فلإقامة حُرمة جسده الطيب الذي قد طُلب بنور التوحيد فإذا قُبضت من الأجساد الأرواح، أُقيمت لها حُرمة بأن غُيِّبت في الثرى ليلاً، بتبدد تلك الأوصال والجوارح إذا جرت عليها حكومة الفناء والبلى وكانت هذه الأجساد قوالب لهذا النور فخرجت عارية منه، فلما صارت ذوات حُرمة لم تخرج من الدنيا إلى البرزخ عاريةً فتلك كسوة لا لمنفعة، ولكن لإقامة حُرمة.

وعلَّة أخرى: وذلك أن الميت تأتيه الملائكة في قبره زوارًا ومبشِّرين، ويأتيه القرآن وعاجل الثواب في البرزخ، فإذا زاره القرآن والملائكة ورسل الرحمن بالتحف والبشرى كان حقيقًا أن يكون مزيَّنًا مطيَّبًا مطهَّرًا.

و عن أبي الدرداء ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: **«إن أحب ما زرتم الله – تعالى – به في مصلاكم أو قبوركم البياض»**[1].



ذكر علَّة عَرض أعمال الأحياء على الأموات

أمَّا علَّة هذا العرض، فمن أجل أن الأحياء تصيبهم آفات الدنيا ومكروهات النفس، فتصل هذه الأخبار إليهم من عند مَن يموت، فيُسأل عند ذلك عشائرهم وأودَّاؤهم، فأحب الله – تعالى – أن يكون عُذره فيما ابتلاهم به ظاهرًا مكشوفًا، فتعرض أعمال الأحياء على عشائرهم من الموتى حتى يعلموا إذا صار إليهم أحد من الأحياء يوم الموت، فبلَّغهم الأخبار وأخبرهم بما يلقون في الدنيا

---

(1) رواه عبد الباقي بن قانع في معجم الصحابة، باب الفاء، حديث رقم (871) [331/2] ورواه ابن حجر العسقلاني في الإصابة في تمييز الصحابة، الفاء بعدها الضاد، حديث رقم (7049) [399/5].

أن هذا بما اقترفوا من الأعمال السيئات، فيكون عُذر الله - سبحانه وتعالى - في الأموات ظاهرًا وإن كانت أعمالاً حسنةً استبشروا بها، وفرحوا بها، يرجون لهم من الثواب مثل ما وجدوا ونالوا من ربهم من الكرامة.



ذكر علّة الصّوم

أمَّا علّة الصوم، فإن النفس مطبوعة معدودة بهذا الغداء والعشاء، وكذلك هذا لهم في الجنة، قال الله - تعالى -: ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ [مريم:62].

ورُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال له رجلٌ: في الجنة ليل؟ قال: وما هيجك على هذا؟ قال: سمعت - الله - تعالى يقول: ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ [مريم: 62] **فقال رسول الله ﷺ: «إنما الغدو الرواح على المقادير، فالنفس مطبوعة على أن تتغدى وتتعشى، فأمره بفطمها عن هذا، فأمَّا الأمم الماضية، فحظر عليهم الغداء ونزل عليهم العشاء؛ فذلك صومهم، وأمَّا هذه الأمة، فعطف الله - سبحانه وتعالى - عليها، وأكرمها بأن ترك عليهم الغداء والعشاء في صومهم إلا أنه حظر عليهم الغداء في وقته، وأطلق لهم تقديمه سحرًا، وسمَّاه رسول الله ﷺ: الغداء المبارك فسُمِّي هذا صومًا»**[1].

والصوم هو: الكفُّ عن عادة تعتادها، فإذا مُنعت النفس تلك العادة، اشتد عليها، فكان في ذلك تسليم الجسد إلى الله - تعالى - لأن النفس إذ مالت إلى الشهوات فقد مالت بأركانها عن الله - تعالى - إلى دنياها، فعلى قدر الميل عن - الله - تعالى والتباعد عنه تنقص البركة، وتنزوي عنه، وإذا انحلت البركة عن

---

(1) أورد نحوه السيوطي في الدر المنثور وعزاه إلى الحكيم الترمذي في نوادر الأصول، (التفسير بالمأثور، قوله تعالى: ولهم رزقهم فيها بكرة وعشية)، [529/5] ونص الحديث: وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول من طريق أبان عن الحسن وأبي قلابة قالا قل رجل يا رسول الله هل في الجنة من ليل قال وما هيجك على هذا قال سمعت الله يذكر في الكتاب (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشية) فقلت الليل من البكرة والعشي فقال رسول الله ﷺ ليس هناك ليل وإنما هو ضوء نور يريد الغدو على الرواح والرواح على الغدو وتأتيهم طرف الهدايا من الله لمواقيت الصلوات التي كانوا يصلون فيها في الدنيا وتسلم عليهم الملائكة.

شيء قلّت وذلّت، وصارت مدخولة، وإذا مالت إلى الله - سبحانه وتعالى - بمنعها عادتها وشهواتها ازدادت قربة إليه، وإذا ازدادت قربه إليه حلت بها البركة، فإذا حلت البركة زكَت وربَت، والزكاة: النمو، والاحتشاء من الخير والازدياد.

والآدمي خُلق أجوف، ووُضع في جوفه الإيمان، والعلم، والحكمة، والعقل، والفهم، والسكينة، والوقار؛ وهذه كلها جنود القلب، والرغبة، والرهبة، والشهوة، والغضب، والمكر، والحرص، والجبن، والبخل في ناحية؛ وهذه كلها جنود النفس، فإذا امتنع من عادة النفس، كان في ذلك بذل النفس لله - تعالى - والتسليم إليه، فإذا قبلها زكت بما أُعطيت من الإيمان، والعقل، والعمل، وما ذكرنا من الخيرات، ووفرت فصار هذا الصوم زكاة الجسد.

ألا ترى أن الصائمين كيف يجدون لذة العبادة، وكيف يجدون نفوسهم ساكنة هادئة، ومن هاهنا قال رسول الله ﷺ: **«إن لكل شيء زكاة وزكاة الجسد الصيام»**[1].

فإذا صام؛ حلّت البركة ونَمَا فيه كلُ شيء من الخير، واحتشى، وازداد فضلاً بحلول البركة، فإذا امتنعت البركة من هذه الأشياء؛ بقيت كلها معطّلة لا تعمل شيئًا وكأن الله - تعالى - جعل هذا الصوم سببًا لحلول البركة؛ فربَا وزكَا ونَمَا كل خير فيه، واحتشت النفس من الخير، وقد عظّم ربنا - تعالى - فعل هذا العبد حيث منع نفسه هذه العادة.

فرُوي لنا في الخبر أن رسول ﷺ قال: **«يقول - الله - تعالى: كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، عبدي يدع طعامه وشرابه وشهوته من أجلي، وللصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحه حين يلقى الله - تعالى -»**[2].

---

(1) رواه ابن ماجه في السنن، باب في الصوم زكاة الجسد، حديث رقم (1745) [555/1] وابن أبي شيبة في المصنف، من كان يكثر الصوم..، حديث رقم (8908) [274/2] ورواه غيرهما.

(2) روى نحوه البخاري في صحيحه، باب هل يقول إني صائم إذا شتم، حديث رقم (1805) [673/2]، ومسلم في صحيحه، باب فضل الصيام، حديث رقم (1151) [807/2] وروى نحوه غيرهما.

فهذا موافق لقوله ﷺ: «إن تقرَّب إليَّ عبدي شبرًا تقرَّبت منه ذراعًا»(1) شكرًا له هذا القدر حيث مال إليه وترك طعامه وشرابه ساعات من النهار حتى يحكي فعله في الملإ الأعلى، فيقول: «عبدي ترك طعامه وشرابه من أجلي»(2)، ثم يقول: «هذا لي وأنا أجزي به»(2) أي: لا أكل ثوابه إلى غيري.

وإنما صارت الأعمال له، وهذا لله؛ لأن نيَّته وإضماره على أن يمنع نفسه عادة اعتادها، وليس هو بفعل الأركان. ثم قال النبي: «للصائم فرحتان: فرحة عند فطره»(3).

فتلك فرحة حلول البركة، وزكاة الجسد، وذلك بحلول البركة بفرحه؛ لأنه قد زال عنه ثقل النفس. قال النبي ﷺ: «وفرحة عند لقاء ربه»(3) حين يرى ثوابه. فأُمر العبد أن يصوم شهرًا، ويصوم بعده ستة من شوال حتى يكون الدهر كله صائمًا؛ لأن الحسنة بعشر.

فثلاثون يوم بثلاثمائة سنة، وستة أيام بستين يومًا، فإذا كان محسوب عمره في الصوم على ما ذكرنا؛ كانت البركة حالة به جارية عليه، فمَن رغب في تلك السُّنة، فإنما طلب للنفس دوام هذه البركة؛ ليكون جسده بما فيه زاكيًا ناميًا.



ذكر علَّة صوم يوم عرفة وعاشوراء والاكتحال فيه

وأمَّا علَّة صوم يوم عرفة: ما ذُكر عن النبي ﷺ أنه قال: «كفَّارة سنتين سنة قبلها وسنة بعدها، وصوم يوم عاشوراء كفَّارة سنة»(4).

فإن الوفد قد برزوا إلى الله - تعالى - واقفين معتذرين إليه في ذلك المشهد العظيم، قد ألقوا إلى الله - سبحانه وتعالى - بأيديهم تسليمًا مسلِّمين نفوسهم

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب ذكر النبي ﷺ..، حديث رقم (8099) [2741/6] ومسلم في صحيحه، باب فضل الذكر..، حديث رقم (2675) [2067/4] وحديث رقم (2688) [2068/4] ورواه غيرهما.

(2) هذا الحديث سبق تخريجه.

(3) هذا الحديث سبق تخريجه.

(4) رواه النسائي في السنن الكبرى، صوم يوم عرفة..، حديث رقم (2802) [151/2] والبيهقي في السنن الكبرى، باب صوم يوم عرفة، حديث رقم (8165) ورواه غيرهما.

إليه، فمن صام يومئذٍ في سائر المواطن فقد تشبَّه بهم في البروز إليه مانعًا نفسه شهواتها، واهبًا نفسه لله - تعالى -.

ومن شأن الوفد أن يغفر الله لهم ما مضى، ويحفظهم فيما بقي، وكما أخذ هذا الصائم بحظ من هذا اليوم، فكذلك يُعطيه ويُكفِّر عنه بهذا الصوم سنةً قبله وسنةً بعده، والوافد يُكفَّر عنه بذلك الوقوف جميع السنين قبله، وجميع ما بقي من عمره.

وأمَّا علَّة الصوم يوم عاشوراء: فإن الدنيا كانت تقرضت من زمن نوح ﷺ، وهلكت بمَن فيها ولم يبقَ إلا سفينته ومَن فيها، وعلا فوق كل شيء أربعين ذراعًا من المشرق إلى المغرب، واستوت السفينة على الجودي يوم عاشوراء، وسلَّم الله - تعالى - على نوح ﷺ وعلى أممٍ ممَن معه في صلبه وهم: الموحِّدون، وبارك عليه وعليهم.

فقال ﷻ: ﴿ قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾ [هود: 48].

فاستثناهم من الكفار، ولم يقل: أمم معك، ولكن قال: ممن معك.

وردَّ عليهم الدنيا يومئذٍ مع البركة والسلام؛ لأنه أمره بالهبوط إلى الدنيا؛ ليتبوأ هناك مستقرًا، وينمِّي ذريته بتلك البركة، فصام نوح يومئذ وأمر مَن معه بذلك حتى الوحوش في السفينة، فمن ذلك اليوم يصوم الوحوش يوم عاشوراء.

وقد ذكرنا أن الصوم هو: امتناع من الشهوات، وهو الزُّهادة في الدنيا، واستقبل الله بردَّ الدنيا على أهلها استقبالاً، فتلقَّاه نوح ﷺ ومَن معه، بقبولها مع الزُّهادة فيها، وهو الصوم شكرًا لله ﷻ عليه، فإن من شكر الله أن يقبل نِعم الله - تعالى - لأنها نعم بلوى لا نعم ثواب، ولأنها نِعم دار الغرور لا نِعم دار السرور والقرار، ولأنها دار المقرِّ، فصام يوم عاشوراء زِهادةً في الدنيا، ففي كل يومٍ من الدنيا إذا جاء ذلك اليوم والغبار فيه شكرًا لله، ففي قَبول الدنيا من الله على الزِهادة فيها وعلى السلامة والبركة من الله.

ألا ترى إلى قول رسول الله ﷺ: «مَن وسَّع على عياله في يوم عاشوراء وسَّع

الله عليه في سائر سنته»[1].

فهنا من أجل أن هذا الموسِّع على عياله يومئذ هو مبوِّئ لنفسه وعياله في وطنه، فصار في هيئة نوح عليه السلام يومئذٍ فناله من تلك البركة؛ لأنه قيل له : اهبط لتبوِّئ لأهلك وعيالك في الأرض، فإنما هبط مع السلام والبركة.

فكل مَن أراد أن يحتظي من ذلك السلام والبركة فينبغي له أن يكون في ذلك اليوم في هيئة نوح عليه السلام من التبوئة لنفسه وعياله في مستقره، فإذا فعل ذلك احتظى من تلك البركة، ووسَّع عليه سائر السنة؛ لأنه وفّى بالزهادة حيث وسَّع وقدَّم صدقة.

ومن هاهنا قيل: مَن اكتحل يوم عاشوراء بإثمد لم تتجع عينه، وعوفي من الرمد تلك السنة؛ لأن الكحل مصلحة للعين، فقد بوأ البصيرة في عينه مستقرًا، فاحتظى من تلك البركة ما يوقي الرمد؛ لأنه قد أخذ بحظ من التبوئة، وبوأ لنوح عليه السلام لنفسه مع الزهادة فيها؛ وهو الصوم الذي صامه يومئذٍ، وأمر مَن معه بذلك، حتى الوحوش فقد ردَّ الله – سبحانه – عليهم مراعيهم وبراريهم.



ذكر علّة الزكاة

وأمَّا علة الزكاة فإنها: نمو المال، وذلك أن المال سُمِّي مالاً؛ لأنه مال بالنفوس عن الله – تبارك تعالى – ومالت النفوس عن الله – تعالى – لمّا أحست بمنافعه، وميلها إلى ذلك أورثها الحب لها حتى افتتن بها، أعني: المنافع، وقد علمت أن ذلك كله من المال فألهاها عن ذكر الله – تعالى –.

وقد حذَّر الله – تعالى – عباده، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ﴾ [المنافقون:9]. ثم قال: ﴿ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ [المنافقون:9]. وقال ﷻ: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ

(1) رواه الطبراني في الكبير، حديث رقم (1007) [77/10] والبيهقي في شعب الإيمان في الصحيح من حديث الليث وغيره عن نافع، حديث رقم (3792) [365/3] ورواه غيرهما.

ﭐلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ﴾ [آل عمران: 14].

فهذه أصناف الأموال مزيَّنة امتحانًا وبلوى، وشهواتها في نفوس بني آدم ثابت حبها، فدعاها إلى ما هو خير منها. فقال تعالى: ﴿۞ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [آل عمران: 15].

فمَن مال إلى مادُعي إليه من داره وجواره سعد، وكلما مالت النفوس إلى شهواتها فعن الله تميل فلا تزداد إلا بعدًا، وكلما ازدادت بعدًا انزوت البركة عنها، فأُمرت بالصدقة، وسُميت زكاة.

فأمَّا الصدقة فلأن إخراجها من ماله مع بخل النفوس عن محبوبها من صدق الإيمان؛ فسُميت صدقة، وسُميت زكاة؛ لأنه أدَّاها وحمل على نفسه أثقالاً بمفارقة ما اشتهته وأحبته، فنالت من الله -تعالى- قربةً، وإذا نالت قربةً حلَّت البركة بها، وانبسطت واتسع لها المال والخير الذي يحدث عن المال.

ألا ترى إلى قول رسول الله ﷺ : «**ما نقصت صدقة مالاً قط فتصدَّقوا**»[1].

لأن البركة حالَّةٌ به، وإذا حلَّت البركة فمحال أن تنقص، لأن أصل البركة في الجنة، وإنما صرف إلى الدنيا منها شيء يسير، فأهل الجنة يتناولونها أبدًا وهي لا تنقص، كلما تناولوا منها ثمرة عادت مكانها أخرى؛ فينكشف لهم هناك غطاء الفؤاد حتى يروه وهاهنا لا ينكشف؛ لأنهم في دار البلوى.

ورُوي لنا أن رسول الله ﷺ كان بين يديه قِدر من تمر، فجعل يقبض منه ويعطي مرة بعد مرة، فقال له قائل: يا رسول الله! أراك تعطي ولا ينقص، فقال رسول الله ﷺ: «**أما تقرأ قول الله** ﷻ: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: 39]».

ولكن لا ترون الخلف من قلة اليقين، قال ﷺ: «**فالبركة تورد الخلف في الأشياء حتى لا تنقص**».

فهذه النفوس خائنة لا تُوقن بوعد الله، ونهمتها تحرم صاحبها البركة.

---

(1) رواه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول في سر العمل وعلانيته، [88/4].

ألا ترى إلى قول رسول الله ﷺ في قصة هاجر حيث أظهر الله زمزم، فلما ظهر الماء اغترفت، فجعلت في الوعاء، فقال النبي ﷺ: «**لولا أنها اغترفت لكانت زمزم عينًا معينًا**».

يعني: ماءً جاريًا؛ فاغترافها من قِبل النفس، فأمسك الماء عن الجري، فهذا شأن النفس في كل شيء.

قال الله - تعالى -: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة: 103].

فالعبد قد آمن بالله - سبحانه - ثقةً به وتوكُلاً عليه، وأناله المال ليبلوه به، وينظر ثقته بالله وتوكُله عليه، أم ثقته بالمال وتوكُله عليه، فلما أُمتحن به ظهرت المحنة على العامة بأن النفس مائلة إلى المال متشبثة به، حتى صارت من شدة ميلها إليه إلى تضييع الفرائض، والوثوب في المحارم، ولهت عن ذكر الله - تعالى - وشُغلت عن النظر إلى نعمه ومننه، ودخلها النقص الكثير.

كما قال عيسى عليه السلام: في المال داء كثير قيل: ما داؤه يا روح الله؟ قال: يأخذه من غير حقه، قيل: فإن أخذه من حقه؟ قال: يضعه في غير حقه، قيل: فإن وضعه في حقه؟ قال: لا ينجو من الفخر والخيلاء، قيل: فإن نجا من الفخر والخيلاء؟ قال: يشغله إصلاحه عن ذكر الله، فيقال للمؤمن: هات صدق إيمانك بالله لتبين ثقتك بالله وتوكُلك عليه؛ لأن هذا المال لله لا لك، فإذا أعطى المقدار الذي قدره له من ذلك فقد أبرز صدق إيمانه من ذلك فقيل: صدقة، فسميت صدقة لذلك، وخرج من دنس الميل عن الله - تعالى - بالإعطاء، فظهر وفارق محبوبه وأليفه، وهو ذا المال، فحلّت البركة فيما بقي في يده، فنما ماله واحتشى بنفسه، وما فيه من العلم والعقل والخير زيادةً ونماء، فقيل: زكا: أي نما وزاد، فسُميت: زكاة.

قال تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة: 103]، دنس الميل ﴿ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ . قال تعالى: ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ ﴾ . لأنهم يفارقون محبوبًا، فإذا علموا أن دعاءك مقبولٌ ودعوت لهم سكنت نفوسهم إلى عظيم ما أعددت من الثواب

للمنفق.

وقال في آية أخرى: ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾ [البقرة:177] أي: ليس الصدق هذا الذي تفعلونه، لكن الصدق أن تؤمنوا بالله، إلى قوله: ﴿ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾.

ثم قال: ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾، فليس من محبوب إلا ونفسه مائلة إليه، وذلك عيب عظيم، ودنس كبير؛ لأن الميل إلى محبوب النفس إعراض عن الله - تعالى - وإقبال على شيء خسيس من خلقه، فإذا أعطى كان ذلك تطهيرًا له وإنما الباقي في يديه، وإنما ماله من العلم والعقل والحكمة والفهم والخيرات، وإذا منع ذلك نَقمته النفس وانزوت البركة عنه، فلا يكون في صدره نماء، ولا في يديه من المال، وزاغ قلبه. فهذه علة الزكاة.



ذكر علّة مقادير الزكاة

وأمّا علّة مقادير الزكاة، فمنها علل ظاهرة، ومنها خفية لطيفة فلا يدركها إلا عيون لاحظة إلى تدبير الله - تعالى - وقلوب طالعت الحكمة، فاستنبطت من ينبوعها الأكبر من قبل أن تُنقش في الينابيع التي هي فروع، فتلك علة عجزت عن فهمها العامة، وإن شرحت لهم يُحيروا فيها، ولم نكن نشرح لهم.

فأمّا العلل الظاهرة، فمنها: إن أفضل المال وأعلاه مرتبة هو الذهب، ثم الفضة؛ وهما أثمان الأشياء، فجُعل في كل أربعين مثقالاً مثقالٌ، وفي كل أربعين درهمًا درهمٌ، وفي كل أربعين من الإبل واحدٌ منها في سن ابنة لَبُون، وفي كل أربعين من البقر واحدةٌ منها، وفي كل أربعين شاةً شاةٌ، وذلك لأن الأربعين مقدار له عند الله شأن. ألا ترى أنك تجد ذكر هذا المقدار في مواضع كثيرة، فمن ذلك أن طينة آدم عليه السلام كانت موضوعة أربعين سنة، حتى نُفخ فيها الروح، ثم ذريته في الرحم نطفة أربعون يومًا ثم دمٌ أربعون يومًا ثم مضغةٌ أربعون يومًا، وبين النفختين في الصور أربعون.

قال تعالى: ﴿ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً ﴾ [الأعراف:142] إلى قوله ﴿ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ [الأعراف:142].

وبُعث النبي ﷺ لأربعين سنة من مولده، وقال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ [الأحقاف:15].

منتهى شباب الإنسان كماله في أربعين سنة ثم يأخذ في النقصان، والكبش الذي فُدي به الذبيح رعي في الجنة أربعين سنة، والفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء بأربعين سنة، وفقراء الكفار يدخلون النار بعد الأغنياء بأربعين سنة كذا جاءت الروايات عن النبي ﷺ وعدة النُفساء أربعون يومًا، والدجال سلطانه في الأرض أربعون يومًا، وفتنة العجل أربعون يومًا، فوجدنا ذكر الأربعين مطردًا في الأمور، والعشرة كمال العدة وقال: ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ [البقرة:196].

لأنه إذا جاوز العشرة فإنما يُردُّ الواحد إلى عشرته ووجدنا كل شيءٍ مربعًا فهو تمام وما كان مثلثا فهو منقوص.

والأربعون: أربع مرات عشرة فهو كمال في تمام؛ لأن العشرة كمال العدد والأربعة تمام التربيع، وهذا ظاهر يعقله العامة، ولهذا باطن لطيف لا يعقله إلا أهله فهذه مقادير زكاة الأموال، ثم جعل لقليلها مقادير معلومة فلم يجعل فيما دون المائتين شيئًا، ولا فيما دون عشرين مثقالاً شيئًا، ولا فيما دون أربعين شاة شيئًا، ولا فيما دون الثلاثين من البقر شيئًا، ولا فيما دون خمس من الإبل شيئًا، فإذا بلغت الفضة مائتي درهم فعندها وجبت الصدقة من كل أربعين درهمًا درهم، فإذا بلغ الذهب عشرين مثقالاً، وجبت الصدقة فيها كما وجبت في المائتين وذلك نصف مثقال، وهو خمس دراهم؛ لأن الدينار كان عندهم يومئذٍ بعشرةِ دراهم، فإذا بلغ البقر ثلاثين ففيها بقرةٌ، وإذا بلغت الغنم أربعين ففيها شاة، وإذا بلغت الإبل خمسًا ففيها شاةٌ؛ لأن عشرين مثقالاً من الذهب يعادل مائتي درهم؛ لأن الدينار والمثقال عندهم عشرة دراهم، وأربعون شاةً تعادل مائتي درهم كل شاة بخمسة دراهم؛ لأن فيها جديًا وحُملانًا وهي معدودة عليهم في الحساب، وثلاثون بقرةً تعادل مائتي درهم؛ لأن أكثرها عجاجيل، وخمسٌ من الإبل تعادل مائتي درهم؛ لأن فيها قلاصًا وكانت الإبل المسان يومئذ كل بعير بمائة درهم؛ القلوص بحصته من ذلك على مقداره بعشرين درهما، فتكون خمسٌ من الإبل بفصلانها وقلاصها تعادل مائتي درهم ثم جعل في المائتين خمسة دراهم، وفي عشرين مثقالاً نصف مثقال، وهي خمسة دراهم يومئذ، فاستويا في الوجوب

فيهما وفي مقاديرهما، وفي أربعين شاةً شاةٌ، وقيمتها خمسة دراهم، وفي خمس من الإبلِ شاةٌ وقيمتها خمسة دراهم، وفي ثلاثين من البقر تبيعٌ، وكانت البقر في أرض اليمن والشام، وليست بأرض الحجاز، وما أحسب أن تبيعًا من البقر إلا بهذا المقدار أعني: خمسة دراهم ونحوها، فتلك عامة أموالهم؛ لأنها أرض الحرث ونسل البقر هناك.

ألا ترى أن النبي ﷺ لم يجعل في الخيل صدقة، فلمَّا فُتحت الشام وجد عامة أموالهم الخيل، ففرض على كل فارسٍ دينارًا، وإنما يوضع مقادير هذه الأشياء على هيئة أجناسبها وعلى قدر احتمالها كذلك. وقد أجملها الله - تعالى - فقال: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ ﴾ [التوبة: 103].

فوجدنا هذه الأصناف من الأموال كلها راجعة مقاديرها إلى أن كل شيء بلغت قيمته مائتي درهم، وفيه ما يبلغ قيمته خمسة دراهم، ففي مقدار المائتين، ومقدار المؤدى منه وهو خمسة دراهم عامة هذه الأصناف، ثم لا يزال في كل خمس من الإبل شاة، حتى تبلغ خمسًا وعشرين؛ وهي خمس مرات خمس، فتكون قيمتها ألف درهم، ففيها واحدة منها في سن ابنة مَخَاض، وكان مقدارها خمسة وعشرين درهمًا،لأن المسنة من بنات الأربع سنين، وابنة مخاض ابنة سنة؛ فهي على الربع من الجذعة وكانت قيمة الجذعة يومئذ مائة درهم وربع المائة خمس وعشرون درهمًا، فكما كان في ألف درهم خمسة وعشرون درهمًا، فكذلك في خمسة وعشرين من الإبل واحدة منها في هذه السن التي ذكرناها، فيكون قد أخذنا منها ابنة مخاض قيمتها خمسة وعشرون درهمًا من خمس وعشرين من الإبل وقيمتها ألف درهم.

فابنة مخاض ربع جذعة أو ثلث حقة؛ فالحقة ابنة ثلاث، والجذعة ابنة أربع؛ فهي ربع الجذعة وثلث حقة؛ والحقة ابنة ثلاث.

وكان عمر بن الخطاب ﷺ أمر أن يعتد عليهم بالسِّخال[1] والحملان، ولا

(1) يقال لأولاد الغنم ساعة تضعها من الضأن والمعز جميعاً ذكر كان أو أنثى سَخْلَة وجمعها: سِخال (لسان العرب لابن منظور).

يؤخذ منهم في الصدقة العناق[1] والجذعاء[2]، وقال: ذلك عدلٌ بين السُخال والحُملان، وبين الضأن والمعز، وأمر أن يُؤخذ في الإبل الحقة[3] والجذعة.

وقال: ذلك عدل بين الحقاق[3] والجدعان، والفُصلان، وبين الرباع والسُديس، وأن يُؤخذ في البقر تبيعٌ[4] ومسنة، وذلك عدل بين العجاجيل وبين الثيران، وإذا صارت الإبل ستًا وثلاثين فإنما زادت عشرًا، فأوجبوا فيها ابنة لبون؛ وابنة لبون: ابنة سنتين، لأن في العشرين من الإبل كانت شاتان قيمتها عشرة دراهم، فلمَّا زادت ها هنا عشرًا؛ فصارت ستة وثلاثين زيد على ابنة مخاض مقدار عشرة دراهم، فأوجبوا ابنة لبون، ومقدار قيمتها خمسة وثلاثون؛ لأنها ثلث السديس، والسديس قيمتها مائة درهم؛ لأن ابنة لبون ابنة سنتين، والسديس ابنة ست، وهي على الثلث من تلك، ثم لمَّا صارت ستةً وأربعين أوجبوا فيها حقة إلى ستين؛ لأن في الحقة ابنة ثلاث، والسديس ابنة ست، فهي على النصف من ذلك، وكلمَّا زاد خمس من الإبل وجدناهم ألزموه من سن الإبل ما بقي بخمسة دراهم.

فقال رسول الله ﷺ: «فإذا كثرت الإبل ففي كل خمسين حقة، وفي كل أربعين ابنة لبون»[5].

جعله بالخيار؛ لأنه يستوي في الحاصل؛ فالحقة على النصف من السديس؛ فقيمتها خمسون درهمًا على النصف من المائة، فإنما وجبت الحقة في خمسين من الإبل إلى ستين، فكأنه أوجب في كل خمسٍ من الإبل شاة قيمتها خمسة دراهم

---

(1) العَـنَاق: الأنثى من أولاد المعز ويجمع العُنوق. ويقال في المثل: العُنُوق بعد النُّوق، أي صرت راعياً للغنم بعد النُّوق، ويقال ذلك لمن تحول من رفعة إلى دناءة. (العين للفراهيدي).

(2) الجَذَع من الدواب قبل أن يثني بسنة، ومن الأنعام هو أول ما يستطاع ركوبه، والأنثى جذعة، ويجمع على جذاع وجذعان (العين).

(3) الحـقُ: دون الجذع من الإبل بسنة، وذلك حين يستحق للركوب والأنثى: حقَة إذا استحقت الفحل وجمعه حقاق وحقائق. (العين).

(4) التبيع: العجل المُدرك من ولد البقر الذكر، لأنه يتبع أمه بعدو (العين).

(5) رواه ابـن ماجـه في السنن، باب صدقة الإبل، حديث رقم (1799) وحديث رقم (1800) [574/1] [575/1]. ورواه البيهقـي في السنن الكبرى، باب إبانة قوله وفي كل أربعين ابنة لبون..، حديث رقم (7050) [91/4].

على ما ذكرنا، وكيفما صُرف هذا فهو راجع إلى الأصل، ثم ما جاوز ستين إلى خمس وسبعين صير فيها جذعة، وهي من بنات أربع، وهي ثلثا السديس، فكانت قيمتها ثلثي المائة؛ وهي ستة وستون، فإذا حصله لم يكن مؤديًا أكثر من المقدار الأول في كل خمسٍ من الإبل شاةٌ؛ لأن في خمسة وستين إلى خمسة وسبعين هذه الجذعة، وقيمتها خمسة وستون ونحوها، فإذًا خمسٌ وستون ثلاث عشرة مرة خمسة، وفي خمس شاة، وقيمتها خمسة دراهم وثلاثة عشرة مرة خمسة دراهم تكون خمسة وستين درهمًا، جُعل في تسعين ابنتا لبون، كما جُعل في أربعين ابنة لبون، ثم في عشرين ومائة حقتان، كما كان في ستين حقة، ثم أجمل إذا كثرت، فقيل: في كل خمسين حقة.

فهذه مقادير يشبه بعضها بعضًا، فإن زاد في المقدار زاد في الفريضة التي في سنها حتى يكون توفيرًا لما يجب، وهو راجع إلى الأصل الذي ذكرنا بدءًا أن في كل خمسٍ من الإبل شاةٌ قيمتها خمسة دراهم، وأن الخمس من الإبل تعادل مائتي درهم، ثم جعل في أربعين شاةً واحدة منها؛ وهي خمسة دراهم، والأربعون تعادل مائتي درهم، فإذا صارت مائةً وإحدى وعشرين ففيها شاتان، فإذا كانت أربعين غير واحدة لم يكن فيها شيء، كما أن المائتين إذا نقصت خمسة دراهم لم يكن فيها شيء، فإذا صارت مائتين ففيها خمسة دراهم، فإذا صارت الغنم أربعين ففيها شاة؛ قيمتها خمسة دراهم، فإذا صارت مائةً وإحدى وعشرين، فإنما وقعت الصدقة في اثنين وثمانين منها؛ لأن التسع والثلاثين كانت عفوًا فلم يكن فيها شيء، فثمانون شاةٌ قيمتها أربع مائة، كل شاة خمسة دراهم، فوجبت فيها شاتان؛ قيمتها عشرة دراهم.

كما كان في الدراهم في أربع مائة درهم عشرة دراهم، ثم لمَّا صارت مائتين وواحدة وجبت فيها ثلاث شياه؛ قيمتها خمسة عشر درهمًا؛ لأنه زاد في العدد بعد مائة وعشرين ثمانون؛ فكان في الثمانين الأولى واحدة وتسع وثلاثون عفوًا أي: لا صدقة فيها، ففي هذه الثمانين والزيادة واحدة عليها ثلاث شياه إلى ثلاثمائة؛ فكأنه صيَّر في كل ثمانين واحدة. ثم لمَّا كثرت صيَّر في كل مائة واحدة، فهذه مقادير مستوية يشبه بعضها بعضًا، وإنما أُريد بذلك الامتحان؛ ليبرز صدق إيمان العبد؛ وليزكُّوا أموالهم ويتخلصوا من الأدناس.

ففي هذه المقادير كفاية، وإنما قُدِّر في الأصل القليل، ثم إن كانت زيادة قليلة أو نقصان في المقدار، فما زاد وكثر فهو جائز؛ لأن المراد منه بروز الصدق، وتزكية الأموال، فحرزوا الزيادة والنقصان في المقادير، وأصل الزكاة مأخوذٌ من أربعين مثقالاً من الذهب، ومنها صار إلى الفِضة، فعدلت أربع مائة بأربعين مثقالاً، ومنها صار إلى هذه الأشياء التي وصفنا، وقد ذكرنا بشأن الأربعين أنه عددٌ كاملٌ في تمام، فاجتمع الكمال والتمام في مقدار الأربعين.



ذكر علَّة العُشُر

وعلَّة العُشُر: فإن الفتنة فتنة النفس في الطعام أكثر؛ لأنه غذاء وكذلك كل شيء من الحبوب هو لاحق به، وهو سيد الحبوب، وما لا غُنية عنه، وهو أصل الغذاء.

والعشرة كمال العدد، فأُمر أن يعطي من كل عشرةٍ واحدًا، فإذا كانت ذات مؤنة وتعب؛ فنصف العشر؛ لأن ذلك التعب والمؤنة تعجِزه عن العُشُر ويثقل عليه الأمر حتى يبرم، فخُفِّف عنه على قدر ذلك.



ذكر علَّة الخُمُس

وأمَّا علَّة الخُمُس: فإن الله - سبحانه وتعالى - بعث الرسل لتبليغ الرسالة والانتظار، أي: انتظار الأنبياء ما يحكم الله - تعالى - من نفسه في أمتهم، ولم يأمرهم بالقتال، وأمر نبينا ﷺ بالقتال بحكمه فيهم، فمَن قبِل منهم من الأمم سعد، ومَن أبى عُوجل بالعقوبة.

فقال تعالى: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ ﴾ [العنكبوت: 40].

فذكر الأمم الخالية، ولم يأذن لأحد في القتال حتى ابتعث الله محمدًا ﷺ فأذن له في القتال.

فقال ﷺ: «أنا نبي الحرب والملحمة، أُمرت أن أُقاتل الناس حتى يقولوا: لا

إله إلا الله، وألزمهم كلمة التقوى، وكانوا أحق بها وأهلها، وفضَّلهم باليقين»[1].

ورُوي عن الرسول الله ﷺ أنه قال: «ما أُعطيت أمة من الأمم ما أُعطيت أمتي من اليقين، فبفضل اليقين قووا على مجاهدة أعداء الله، وفُضّلوا بالمحبة»[2].

فبقوة المحبة بذلوا أنفسهم إليه حميةً على أعداء الله وغيرةً له، وكان جرى لهم في سابق علمه وقضائه في اللوح المحفوظ إحلال الغنيمة لهم من بين سائر الأمم، كما جرى لهم فضل اليقين والمحبة.

فلمَّا كان يوم بدر أخذوا فداء الأسارى فعوتبوا على ذلك؛ لأنهم أخذوه من قبل أن يُحلّها لهم، فأحبَّ الله – تعالى – أن يقبلوها من طريق المنَّة لا من طريق عمل نفوسهم فعاتبهم.

فقال: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾ [الأنفال:68] في اللوح المحفوظ إحلالها لكم.

ثم قال: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ [الأنفال:69].

فأحلّها وطيّبها، وإنما أحلَّ لما سبق لهم من الحظوظ بفضل اليقين والمحبة، وإنما طابت لهم؛ لأنها كسب التوحيد والنصرة، وقالوا: نصرة التوحيد بالمنَّة، ونصرهم يوم الحرب حتى قتلوا وغنموا.

فأمَّا بنوا إسرائيل فإنما أذن لهم في القتال من أجل أن الأرض المقدسة كانت لآبائهم، وورثوها عن إبراهيم الخليل عليه السلام فغلبت عليها الجبابرة، أُمروا بالقتال؛ ليستنفذوها من أيديهم، وكذلك كل نبي قاتل في بني إسرائيل بأمته، فإنما قاتل؛ ليدفع عن حريمه، أو ينقذ أسارى من أيديهم.

وكانت الجبابرة وملوك الأرض يقصدون بيت المقدس؛ فأبيح لهم القتال، وكانوا يقاتلون على الدفع عن حريمهم، ولم يُبعثوا لقتالهم على قول: لا إله إلا

---

(1) لم أجده بلفظه إنما روى نحوه البخاري في صحيحه في أبواب عدة منها: باب الحياء من الإيمان، حديث رقم (25) [17/1] وروى نحوه مسلم في صحيحه، في أبواب عدة منها: باب الأمر بقتال الناس..، حديث رقم (20) [51/1] وروى نحوه غيرهما.

(2) أورده الحكيم الترمذي في نوادر الأصول، في خصوصية هذه الأمة [144/1].

الله، كما بُعث محمدٌ ﷺ وكانت غنائمهم تجز وتجمع لنار تجئ من السماء فتأكلها، وذلك أنهم قاتلوا على الدفع والاستنقاذ وهذه علاقة، وهذه الأمة أُمرت بالقتال لإقامة: «لا إله إلا الله».

وقال رسول الله ﷺ: «إن الله بعثني رحمة»[1]، «وإنما أنا رحمة مهداة»[2].

ومعناه: أن الله – تعالى – أهداني لهذه الأمة من بين الأمم، فقال: الله – تعالى – أهداني لهذه الأمة من بين الأمم. فقال عز وجل: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ۝ ﴾ [الأنبياء: 107].

وكانت الأمم تُعاجل بالعقوبة إذا لم تقبل، وهذه الأمة فضلت باليقين، فضربت بالسيوف حتى أدخلت أعداء الله في دين الله.

فقال الحسن البصري: لا تسبُّوا أهل بدر، فإن الناس أسلموا من خوف سيوفهم، وإن أهل بدر أسلموا من خوف الله – تعالى –.

وكتب الله - تعالى - الجهاد على هذه الأمة، فقال تبارك اسمه: ﴿ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ ﴾ [الحج:78]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝ ﴾ [الصف:4]. وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [الصف:10، 11].

وإنما جاهدوا بفضل يقينهم، فجعل الله – تعالى – أموال أعدائه وذرياتهم ملكًا لهم؛ لأنهم جاهدوا في ذاته بلا علاقة حمية لله، ونصرة لكلمته العليا، فطيَّب لهم الغنيمة، ثم جعل لنفسه فيها نصيبًا؛ وهو الخُمُس، ثم أعلم العباد أن هذا الذي استثنى نصيبًا لنفسه من أجل من هو؟

---

(1) أورده المنذري في الترغيب والترهيب، كتاب الحدود، حديث رقم (3583) [181/3] وعزاه إلى الإمام أحمد.

(2) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب الإيمان، حديث رقم (100) [91/1] وابن أبي شيبة في المصنف، باب ما أعطى الله محمداً، حديث رقم (31782) [325/6] ورواه غيرهما.

فقال: ﴿ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [الحشر: 7]. لكي يُعلم العباد خصوصية رسول الله ﷺ وقُرباه ويتامى أمته ومساكينها من بين خلقه وعطفه عليهم، وجعل في العبد أربعة أشياء تقوم الأمور بهن وهي: روح، وذهن، وعقل، وعلم بالله – تعالى – لا تقوم هذه الأربعة إلا بالحياة من الحي القيُّوم، فهذه خمسة أشياء مجزأة، فجزء الحياة لله، وأربعة أجزاء للعبد، وهي: روحه، وذهنه، وعقله، وعلمه بالله – تبارك وتعالى – وهو: المعرفة.

فقال: ﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ ﴾ [الأنفال: 41] ثم أضاف نصيبه إلى رسوله، وذوي القربى واليتامى، والمساكين؛ ليُعلم العباد: إني إنما استثنيت هذا الجزء من أجل هؤلاء؛ ليعلموا أنهم مني على بال عظيم.

والغنيمة كسب التوحيد، يقاتلون بتوحيدهم مَن لم يُوحِّد حميةً وغيرةً ونصرةً لكلمة الله – تعالى – فعلى هذا أُسس قتال الأعداء، وعليه مضى الصدِّيقون والصادقون وإن كان من العامة تخليط وميل إلى الغنيمة، فحسابهم على الله – تعالى – وهذا دخيل لا ينقض عندي الأصل.



ذكر علَّة الحج

وأمَّا علَّة الحج: فإن الله – تعالى – جعل للعباد مَعلمًا في أرضه، ولقلوبهم مظهرًا يسيرون إليه بقلوبهم ويسيرون نحوه؛ فالمظهر: العرش، والمَعلم: الكعبة.

لمَّا ارتفع بخار الماء فصار سماء ظهر فوق الماء بياضٌ كالقبة فجمد، ثم مُدَّت الأرض من تحتها؛ فالبياض مَعلمه، وهو موضع البيت، فملَّك الأرض شرقًا وغربًا عباده، ولم يُملك ذلك الموضع أحدًا فهو عتيقه أعتقه من أن يملكه أحدٌ سواه؛ فلذلك سُميّ البيت العتيق، ثم دعا العباد إلى أن يؤمنوا به قلبًا، ويسلِّموا له نفسًا فيما يأمرهم به، فأجابه الموحدون بمنِّه ورحمته، ثم جعل لقلوبهم طريقًا إلى مظهره؛ لينظروا بقلوبهم إلى عظمته وجلاله، فيعظِّموه به ويجلو أمره وشأنه، وجعل لهم فجاجًا وسبلاً إلى مَعلمه؛ ليحجوا بيته، ويحطُّوا به الأوزار والذنوب، فيطوفوا حوله ويلوذوا به.

فإن ذلك البياض خفي عن أعين الخلق، وبقي هواء، فبنى على حد ذلك الهواء بنيانًا يعرفه الخلق؛ فهو مَعلم لمَن قصد إلى الله – سبحانه وتعالى – بدنًا، والعرش

مظهرًا لمَن قصد إلى الله – تبارك وتعالى – قلبًا، فجاءت شهوات النفس فأظلمت الصدور، فحالت بين عيني الفؤاد، وبين عين السير إليه، والنظر إلى جلاله، وتشبثت النفس بهذا الظُلل، فحالت بينه وبين السير إليه ظلمة، ولا يتخلص من النفس إلا مَن يُجاهدها في الله حق جهاده، فوعدَ المجاهدين الهداية إلى سبيله.

فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾ [العنكبوت:69].

ففتح لهم السبيل إليه بعدما أدَّى حق المجاهدة، وصدق الله – تعالى – فيها، وقد بيَّنَّا شرح هذه المجاهدة في كتاب «صفة القلوب ومنازلها»، والَّذي ترك السير إليه متأخرٌ عن مظهره، والذي ترك السير إلى مَعلمه منقطع من رحمته، فدعا العباد إلى إتيان مَعلمه ليسلِّموا إليه أبدانهم بالعبودة، فيتخذهم عبيدًا ويغفر لهم، ويُنيلهم الكرامات، ويُنجح لهم الحاجات، فأول مَن أجابه أبونا آدم عليه السلام، ثم لمَّا ذهب رسم البيت زمن الغرق، ابتعث الله – تعالى – خليله عليه السلام وأمره ببناء الرسم؛ ليُعلم العباد موضعه، وأمره أن يؤذِّن في الناس بالحج، فأجابه بالتلبية، فكل مَن أسلم واستطاع إليه سبيلاً، أوجب عليه أن يأتيه ويُظهر إسلامه عند مَعلمه.

والإسلام هو: تسليم النفس إلى الله – تعالى – انقيادًا وعبودةً؛ ولذلك قيل: حجة الإسلام، فإذا حجَّ مرة بعد أخرى، فإنما يجدِّد في كل مرة تسليمًا إلى الله – تعالى – لأنه كلما أذنب دخل الخلل في تسليمه إليه.

فالعاكفون والطائفون حول بيته بَدنًا، والعاكفون حول مظهره قلبًا، والوالجون بيته ندبًا، والوالجون بمجالس ملكه قلبًا، فدلَّ العباد على تجديد الإسلام كلما أخلق بالذنوب، وانتقضت عُراه، وأمر خليله عليه السلام بإظهار رسمه، ثم أمره أن يُؤذِّن في الناس بالحج، ثم جرت السُّنة والسنة الصورة: صورة الإتيان واللوذان، فجعل من دونه ميقاتًا من كل ناحية إذا أتاه لباه، فإذا لباه صار محرمًا، وأمر أن يخرج من زينته وهو اللباس؛ لأنه قد قال ﷻ: ﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ ﴾ [الأعراف:31].

فاللباس زينة الإنسان مُخرجٌ من الزينة إلى ما لا بد منه، وهو الإزار والرداء يستتر بهما، فإن كان حرٌّ أو بردٌ رُدَّ في الاستتار من الحرِّ والبردِ، وأُمر بأن يجتنب إلفه، والإلفُ: كل أنثى من حرَّة أو أمة؛ لأن النساء سكن الرجال، وإلفهم هكذا خُلقن، فأُمر بأن يفارق سكنه وإلفه في المباشرة؛ لينفرد إلى الله – تعالى – فيوحِّد

مَن خلقه، وتفرُّد بمننه، وأن يخرج من زينة اللباس؛ ليكون بين يديه كهيئة العبد الأسير الذي لا يدري ما يُعمل به، يريد أن يتقدَّم إلى مولاه ليتخذه عبدًا.

ألا ترى إلى قول رسول الله ﷺ: «إن الله اتخذني عبدًا قبل أن يتخذني رسولاً»[1].

والاتخاذ هو الافتعال مأخوذ من الأخذ أي: يأخذه، فإذا أخذه أقبل عليه بالعطف وأسباب السعادة، ولبَّى من الميقات إجابة لدعوته، ولا يؤدي روحانيًا إلا بحق؛ لأنه في تلبية مولاه قد دعاه، فأجابه حتى تنتهي الدعوة منتهاها، فسُميت هذه الحال منه إحرامًا؛ لأنه أحرم عن كل ظلم وأذى بغير حق وعن الزينة والأليف، فأمر أن يأتي مكانًا خارجًا من الحرم تجاه البيت فيقف به متنصلاً معتذرًا يُسلِّم بدنه إليه طاعةً وعبودةً معترفًا إليه بذلك في ذلك المكان، فسُميت عرفات، فهو يقف موقف الاعتذار مستأذنًا له في إتيان معلمه واللوذان به، حتى إذا غربت الشمس وجب الإذن فأفاض والإفاضة سرعة القلب وإنصابه كفيض الماء قاصدًا لمعلمه، فحسبته مظالم العباد؛ لأنه اعتذر إلى الله - سبحانه وتعالى - في هذا المقام فقبل عذره وغفر له، وبقيت تبعات العباد، فمضى حتى بلغ المشعر الحرام وهو: المزدلفة، وسُميت مزدلفة؛ لأنه ازدلف إلى ربه زلفة.

والزلفة: القطعة، أي: تقرب إليه قطعة من المسافة التي كانت بينه وبين معلمه، ومعنى المشعر: شعور القلب بربه في هذا المكان الذي وقف به ثانيًا إلى طلوع الفجر، فاعتذر وتضرَّع ورفع إليه فقره وقلة حيلته في شأن التبعات، فغفرها له على أن يرضى عنه أهل التبعات، فتلك مغفرة أعم من الأولى، فمضى على إذنه بالأمس، وإنما حبسه تبعات العباد هاهنا حتى احتاج إلى وقفه ثانية بمَعلمه يوم النحر، فلمَّا تخلص من الذنوب ومن تبعات الناس تخلص من الأدناس، وأسرع في إتيان مَعلمه، فلمَّا أتى المضيق وجد العدو، وقد سدَّ عليه الطريق حسدًا وغيرة، فأمر أن يرميه ليخسأ، ففي كل حصاة يرمي ويكبر يخسأ أرضًا

---

(1) رواه الطبراني في الكبير، حديث رقم (2889) [128/3] ورواه ابن السري في الزهد، باب التواضع، حديث رقم (797) [410/2] ونصه كاملاً: «ولا ترفعوني فوق حقي فإن الله عز وجل قد اتخذني عبداً قبل أن يتخذني رسولاً».

أرضًا حتى يبلغ به سبع تكبيرات وسبع حصيات الأرض السابعة، لم يبقَ في الطريق إلى مَعلمه مانع، وإلى هذا الموضع كان ممنوعًا من مَعلمه مرة بالذنوب، ومرة بالتبعات، ومرة بالعدو، فإلى هذا الموضع أمر بالتلبية، فلمَّا رمى قطع التلبية؛ لأنه لم يبقَ مانع.

وهاهنا كان رسول الله ﷺ يقطع التلبية في أول حصاة يرميها؛ لأن العبد قد أُذن له، وقد ذهبت العلل والموانع، فقيل له: ضع عنك هذا الشين والدرن والدنس، وتطهر وخذ الزينة: أي اللباس، وأنت مَعلم ربك ولُذْ به وحجه، فيأخذ من أظفاره ويحلق رأسه، ويلبس ثيابه، فقيل له: طفْ بالبيت أسبوعًا واحدًا، فكذلك لا يستحب أن يطوف بالبيت زيادة على أسبوع واحد؛ وذلك طواف الزيادة، والزيادة الميل إلى - الله - تعالى وإلى مَعلمه، قد تم حجة، ثم أُمر أن يأتي مِنى لحال الذكر، فيقم بها ثلاثًا، ويرمي الجمرات غيظًا للعدو، وإن وجد قربانًا فقربه كان أفضل، وإن لم يجد فليس عليه شيء.

ومن هاهنا قال علماء السلف - ﷺ -: إذا لم يقف بعرفات فقد فاته الحج؛ لأنه قد فاته الإذن، وإذا وقف بعرفة ولم يطف طواف الزيادة لم يفته الحج، ولو أتى البيت بعد سنين كثيرة فطاف طواف الزيادة أتم حجه، وعليه بدنة لتأخره في ذلك، ومَن طاف فقد أجزأته حجته.



ذكر علَّة الاستلام

وعلَّة استلام الحجر: فإن الميثاق في الحجر، وذلك أن الله سبحانه لمَّا أخرج الذرية من ظهر آدم عليه السلام، بعث هذا الحجر من الفردوس فيما رُوي في الخبر، فوضعه بينه وبين خلقه حتى بايعوه على العبودة، وأخذ عليهم الميثاق، ثم جعله في هذا الحجر، فأمر بإتيانه؛ ليجدد بيعته باستلامه بيده، كما بايع يومئذ أبوه نوح وذريته.



ذكر علَّة الأُضحية

وأمَّا علَّة الأُضحية: فإنه لمَّا جنى العبد على نفسه وأذنب؛ فكأنه أحلَّ القتل بنفسه، فأُمر بالفداء كما أمر - الله - تعالى خليله عليه السلام بذبح ابنه، ثم فداه بكبشٍ

ونجاه من القتل، وهذه ملة خليل الله إبراهيم ﷺ منَّ بها علينا، فلمَّا أذنب العبد استوجب النار، وهو: القتل الأعظم، فأُمر بفداء نفسه. فلذلك قال رسول الله ﷺ: «**يغفر الله له ذنوب وكلها عند أول قطرة من دم أضحيته**»(1).

وإنما سُميت أُضحية؛ لتضحية العبد إلى ربه؛ لأنه إذا خرج من ذنوبه بالمغفرة فقد أضحى كالشمس إذا أضحى نورها، فهذا من العبد فعل لتضحية، أضحى قلبه بنوره.

ورُوي عن رسول الله ﷺ أن جبريل عليه السلام أتاه فقال: «**لقد استبشر أهل السماء لذبحهم، ولو علم - الله - تعالى أن دمًا أو ذبحًا أعظم وأفضل من ذبح إبراهيم الخليل ﷺ لأعطاك هذه**»(2). وإنما وقع السرور في أهل السماء لمَّا رأوا في أمة محمد ﷺ من عموم الرحمة والكرامة بذلك. وقال ﷺ: «**يا فاطمة قومي إلى أُضحيتك فاشهدي ذبحها، فإنه يُغفر لك عند أول قطرة من دمها كل ذنبٍ عملته**»(3).

فالمغفور له ينال القربة، فإذا قرب احتظى من النور، وإذا استنار قلبه من نور القربة أضحى ذلك النور على النفس، فماتت الشهوات والشرور من تلك النفس بما يحظى من نور القربة عليها، فقيل: ضحى العبد وهذه أضحيته؛ لأن ذلك الذي نال إنما حدث في تضحية العبد ببروز الضحى: أي برز أضحى نورها، برز وظهر بضحية يُضحى قلبُه بنوره: أي تُطهِّر تطهيرًا قلبه ببروزه.

وفي الحديث: «**ضح لمن أحرمت له**»(4): أي أبرز للشمس.

قال - الله - تعالى: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [طه:119]، معه: أي لا تتأذى بحرِّ الشمس من هذا الفعل الذي فعله، وقد يُسمِّي الشيء باسم الشيء [الذي] يُنسب إليه، كما سُميت العقيقة؛ وهي الشعر الذي يولد الصبي

(1) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع. وورد بألفاظ أخرى سترد لاحقاً.

(2) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع. وورد بألفاظ أخرى سترد لاحقاً.

(3) رواه عبد الرزاق في المصنف، باب فضل الصحابة..، حديث رقم (8168) [388/4] ورواه محمد بن داود، حديث رقم (909) [478/1].

(4) رواه ابن أبي شيبة في المصنف، حديث رقم (14253) [285/3].

معه، فنُسبت ذبيحته إلى ذلك الشعر فقيل: عقيقة ؛ لأنه يحلق ويذبح عنه.



ذكر علَّة الرِّبا

وأمَّا علَّة الرِّبا: فإن الله حرَّم أكل مال المؤمن، وسفك دمه، وتناول عرضه؛ لأن المال قوام المرء، وفيه معاشه. فقال - الله - تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ [البقرة:188]. ثم قال: ﴿ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً ﴾ [البقرة:282]: أي متعة وأجرة. ثم قال: ﴿ عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾ [النساء:29].

فإذا أعطاه درهمًا، وأخذ منه درهمين، فالدرهم بالدرهم، والفضل قد أخذه بالباطل بلا منفعة، فأجملت الآية تحريم الربا وفسَّرته السُّنة.

فقال ﷺ: «البر بالبر والفضل ربا، والشعير بالشعير والفضل ربا، والذهب بالذهب والفضل ربا، والفضة بالفضة والفضل ربا»(1).

فذكر في الخبر أنواع الأشياء إلا أن هذه الأنواع ترجع إلى ضربين: ضرب يُكال وضرب يُوزن، فكلاهما يُكال ويُوزن، وكل ما يُكال ويُوزن فالنوع منه بنوعه مثل بمثل، يد بيد، والفضل ربا، وإن كان نسيئة فهو ربا، وإن كان مثلاً بمثل، وإذا اختلف النوعان، فالمثل بالمثل؛ لأنه لو اشترى قفيزين من بُرٍّ بقفيز من بُرٍّ، وكان كل واحدٍ منهما مساويًا لصاحبه، وكان أحدهما أجود من الآخر بعد أن يكونوا في الكيل سواء، فإذا اشتري قفيزًا من بُرٍّ بقفيزين من بُرٍّ، كان قفيزًا بقفيز، والقفيز الفضل صار في يده بلا ثمن، وهذا كله باطل وهو ربا؛ لأن الربا: ما ربا على صاحبه، وإذا اختلف النوعان فكان قفيز من بُرٍّ بقفيزين من شعير كان فضل هذا الشعير بفضل جودة البُرِّ، فليس هاهنا يُساوي كالنوع الواحد بل هو تفاوت، يفضل هذا في الكيل؛ كفضل هذا في جنسه، وهذا كله إذا كان يدًا بيد.

فأمَّا إذا كان نسيئة فلا يجوز في نوع واحد إلا فيما اختلف النوعان؛ لأن النسيئة إنما تقع على شيء موصوف بأجل، فلو باع أحدهما بالآخر بالأجل صار

---

(1) روى نحـــوه البـخاري في صحيحه، باب بيع التمر بالتمر، حديث رقم (2062) [760/2] والنسائي في السنن الكبرى برقم (6155) [27/4] وروى نحوه غيرهما.

كزيادة بزيادتين، فإذا كان الشيء مما يُكال ويُوزن من نوعٍ واحدٍ أو نوعين مختلفين وليس بنسيئة إلا أنهما تفرقا قبل التقابض، فهو جائز إلا الدراهم والدنانير وتبر الذهب والفضة؛ لأن هذه الأشياء أعيانها قائمة، والبيع واقع على تلك الأعيان، فلا يضر تفريقهما، والذهب والفضة أثمان للأشياء، فلو تبايعا بهما لم يقع على عينه.

ألا تــرى أنه لو باع ثوبًا بدراهم بعينها كان له أن يعطيه غيرها، ولو باعه بشيء مــن العُروض لم يكن له أن يعطيه بكيله أو وزنه غيره؛ لأنه وقع على عينه، وإذا بــاع شيئًا بذهب أو فضة لم يحتج إلى صفة، فإذا باع بشيء من العروض احتاج إلى الـصفة إلا أن يكــون بعينه. وإذا تبايعا الذهب بالذهب والفضة بالفضة، ثم تفــرقا قبل التقابض؛ بطل البيع، لقوله ﷺ «الذهب بالذهب ربا إلا هاء وهاء، والفــضة بالفضة ربا إلا هاء وهاء، وإن استنظرك حتى يلج بيته، فلا تنظره؟، ولا يباع منها غائبٌ بناجز»[1].

وهذا من أجل أنه لا يقع على عينه، ولو أنه يعطيه غيره، ألا ترى أنه لو باع ثوبًا بعينه بثوبين، وافترقا على غير تقابض لم يبطل البيع؛ لأنه قد وقع على عينه، فلو أبيح لنا أن نبيع الشيء مما يُكال ويُوزن بمثليه من جنسه، أو بمثليه نسيئة؛ لكان الرجل إذا باع قفيزًا من برٍّ بقفيزين من برٍّ لكان يرجع إليه قفيزه الذي أعطاه، وقفيزًا بلا عوض، فقد صار أكلاً لماله بالباطل.

فكذلك ما كيل ووزن، فالواحد بمثله، والزيادة ربا، وإذا باع قفيزًا من برٍّ بقفيز من بر بنسيئة، فلو جاز هذا لكان الثاني قد ينجز قفيزه، والأول يحتاج إلى تربص لمضي المدة، ثم يأخذ قفيزًا مثل ما أعطى فتلك المنفعة التي شرطها الثاني لنفسه في التأخير ربا، وليست هاهنا تجارةً؛ لأن التجارة في اللغة: «ما تَاجَرَاه وكان لهما فيه أجرة».

وكذلك القرض، لو اقترضه وأجله، لكان الأجل باطلاً؛ لأنه يَرُدُّ عليه مثله، ويقع الأجل لأحدهما فقد شرط له نفع زيادة سوى رأس المال، وإذا أقرض ولم

---

(1) روى نحــوه البيهقــي في السنن الكبرى، باب التقابض في المجلس في الصرف..، حديث رقم (10291) [284/5].

يشترط أجلاً فهو جائز، وإنما الربا في هذين الشيئين أن يأخذ شيئًا ليعطيه مثله إلى أجل، فيكون الأجل يقوم مقام الزيادة، وأما إذا اختلفت أجناسه، فقد أُبيح له أن يبيع قفيزًا من برٌ بقفيزين من شعير.

وهذه الآن تجارة؛ لأن الزيادة التي في الشعير كيلاً بالزيادة التي في البر ثمنًا فتلك الزيادة بهذه الزيادة، إذا كان يدًا بيد، وإذا كان نسيئة صار ربًا؛ لأنه صير إحدى الزيادتين بالأخرى، ولصاحب النسيئة فضل الزيادة الأخرى بالتأجيل، فصارت زيادتان بزيادة، فهذا في كل مكيل وموزون.

فأما فيما يباع عددًا، مثل: الجوز، والبيض، والبطيخ، فلا بأس أن يُباع الواحد بمثله وزيادة؛ لأن المكيل والموزون هما شيء مستوٍ لا تفاوت فيه؛ لتسوية مقدار الكيل والوزن.

وإن تفاوت ذلك الشيء في نفسه، أو استوى مقداره، فقد ضمَّه الكيل والوزن فاستوى مقداره، فقدِّر على إعطاء المثل بالمثل، وما خرج من الكيل والوزن، وما يباع عدد فيه تفاوت، فربَّ جوزة تعدل جوزتين، وبطيخة تعدل بطيختين، فالواحد بالاثنين جائز لما في هذا من الكِبَر بما في ذلك من العدد.

وهذه تجارةٌ تُحدث لكل واحد منهما منفعةً في زيادة هذا وفي زيادة كُبره، وذاك في زيادة عدده، والذي ضمَّه الكيل والوزن، فإنما هو مثلٌ بمثل، كيل بكيل، وزن بوزن، وما فضل لأحدهما من الكيل؛ فهو ربا، وذلك بـــأن يبيع بطيخة باثنتين نسيئة؛ لأن الزيادة من العدد بزيادة فضل الأخرى في نفسها وزيادة أجل، فصار كما ذكرنا بدءًا: زيادة بزيادتين.

وإذا اختلف النوعان مما يباع عددًا، وهو أن يبيع بطيخة بعشرين بيضة نسيئة، فلا بأس بذلك؛ لأن النوعين والجنسين قد اختلفا وتفاوتا؛ فهو تجارةٌ، وقد خرج من اثنين زيادة على الأخرى.

وأمَّا الحيوان، فالواحد بالاثنين يدًا بيد جائز، وإن كان نسيئة لم يجزِ؛ لأنه لا يوقف على حدِّه بالصفة، وإن وُصف فلا يعرف سمكه ولا مقدار لحمه، ولا يدري ما الذي يؤخذ به إذا اختلف.

❖❖❖

ذكر علة النهي عن بيع الطعام حتى يكال

وأمّا علة النهي عن بيع الطعام حتى يكال أو يقبض، فمن أجل أن الكيل يزداد وينقص، فربما كان مائة قفيز، فإذا أعاد الكيل مرة أخرى انتقص قفيز، وربما ازداد قفيز، وقد وسع - الله - تعالى ذلك.

فقال ﷻ: ﴿ وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ ﴾ [الإسراء:35]، ثم قال: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة:286].

فإذا اشترى مائة قفيز طعامًا واكتاله، ثم أراد أن يبيعه كيلاً ولم يكله، يريد أن يكتفي بالكيل الأول لم يسعه ذلك؛ لأنه باع مكيلاً ولم يكله، يريد أن يكتفي بالكيل الأول لم يسعه ذلك؛ لأنه باع مكيلاً، فربما زاد في الكيل، فتكون الزيادة غير المبيعة.



ذكر علّة الميراث

وأمّا علّة الميراث: فإن - الله - تعالى جعل هذا المال قوام المعاش للخلق، فإذا مات أحدهم خلفه في ذلك المال آخر، وكان أهل الجاهلية أهل عداوة وحرب، يغير بعضهم على بعض، فكان الميت إذا مات ورثه الرجال دون النساء والصبيان، وإنما يرثه كبير العشيرة وحاميتهم وخاصتهم، يقول: نحن نحارب، ونحن نعول فما للسفهاء والمال؟

فكان يدفع المال إلى أكبر ولده، فإن لم يكن له ولد، فإلى أخيه أو عمه أو كبير قومه ممَن يقودهم للحرب ويسودهم في أمرهم ويعولهم في معاشهم حتى نزل قوله تعالى: ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ [النساء: ٧].

فلبث رسول الله ﷺ ينتظر كم هذا النصيب، فنزلت آيات المواريث لكل صنف منهم قسم: آية في شأن الأولاد والأبوين، وآية في شأن الزوجين، وآية في شأن الكلالة، وآية في الإخوة والأخوات، وآية في أولي الأرحام.

فهؤلاء أهل الفرائض الذين لهم ذكرٌ في الكتاب، ونصيبٌ مفروضٌ، فإذا مات أحدهم وترك مالاً قسم بين المذكورين في التنزيل على ما فرض - الله - تعالى،

وما بقي بعد دفع السهام عاد إلى الأصل الذي كان، فيعطي مَن كان يُعطى قبل نزول الفرائض هو أقربهم إلى الميت رحمًا، وأن يكون ذكرًا، وأن يكون من قِبل الأب؛ لأنه حاميته وأهل بيته ونسبه؛ وهم الذين كانوا يلون الأمر في الجاهلية، فلمَّا نزلت المواريث بسهامهم أعطي أهل المواريث سهامهم، وما بقي عاد إلى الأصل، وأُعطي بالعصوبة وإنما قيل: عصوبة؛ لأنه من قبل الأب، ولا يكون عصوبة من قِبل الأم؛ لأن الولد قد اشترك فيه الأبوان، فما كان من عَظم أو عِرقٍ وعصبٍ؛ فهو من ماء الأب، وما كان من لحم أو جلد أو شعر، فهو من ماء الأم؛ فالعَظم والعَصب والعُروق هو أصل الجسد، والدم واللحم والجلد ينقص ويزداد.

وعن زيد بن أسد -رحمه الله- قال: جاء يهودي إلى رسول الله ﷺ يسأل عن الولد ما ماء هو من الرجال؟ وما ماء هو من المرأة؟

فقال ﷺ: **«ما كان من عَظم أو عَصب أو عِرق فهو من الرجل، وما كان من شعرٍ ولحمٍ أو دمٍ أو جلدٍ فهو من المرأة»**[1].

وعن ابن مسعود ﷺ عن رسول الله ﷺ بمثله.

وهذا سبيل العصبة: النظر إلى ما بقي بعد رفع السهام المفروضة لكل ذي فرض فريضته، فيُعطى البقية أقربهم رحمًا من قِبل الأب.

فالمواريث بين أهلها على حقوق القرابة بالإيمان بالله اتصلوا، ثم اشتبكت أرحامهم، فكل واحد إنما يأخذ بحقه وصلته بالله، ثم بوصله رحمه، فإذا كان أحدهما كافرًا، فقد قطع الكفر بين الفريقين قطعًا لا اتصال له؛ لأن أهل عداوة الله قطعهم الله بكفرهم فبطلت حظوظهم منه، وأهل ولاية الله اتصلوا به فبقوا معه أبدًا، ووفرت حظوظهم منه، فإذا مات أحدهما فليس للآخر في ماله حق؛ لأنه أبعد من الأجنبيين، كما لو ان أجنبيًّا مات لم يرثه، فهذا أجنبي حيث جانب الإيمان فصار أجنبيًّا أجنب من كل أجنبي.



ذكر علَّة القاتل أنه لا يرث

وأمَّا علَّة القاتل أنه لا يرث، فمن أجل أنه كان يرث بالرحم، فإذا أزهق نفسه

(1) هذا الأثر لم أجده بلفظه فيما لدي من مصادر ومراجع.

بالقتل، فقد قطع رحمه بغاية القطع، وأبطل تلك الحقوق، وإنما جعل - الله - تعالى المواريث بين أهلها؛ لاتصالهم به وتمسكهم بالعروة الوثقى، وأعطاهم الحظوظ على قدر قراباتهم منه والنفع والحر ومحمود تدبيره.

ألا ترى أنه (خطبهم في حجة الوداع فقال: **«إن - الله - تعالى أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث»**[1].

يعلمك بقوله هذا أنه قدر للمستوجبين الحقوق من ماله مقادير معلومة لكل منهم ما يستحق بقرابته بحكمته من حيث خفي على العباد تلك الحكمة إلا من آتاه الله تلك الحكمة من أهل ولايته.

فقد قال الله تعالى: ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة:269].



ذكر علّة الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - أنهم لا يُرثون

وأمّا علّة الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم- أنهم لا ميراث منهم، وقوله ﷺ: **«إنا معشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقه»**[2].

وعن رسول الله ﷺ : **«لا يورث نبي ما تركناه فهو صدقه»**[3].

فمن أجل أن الأنبياء خزّان - الله - تعالى في أرضه والخازن لا يملك إلا قوتًا وسائر الخلق مرتزقون فإن أُعطي الرزق فقد ملكه فهو يصرفه كيف شاء على سبيل الشريعة والخازن يمسكه لمالكه على نوائب حقوقه، والمرتزق يمسكه لنفسه على نوائب أموره فإذا قبض الخازن لم يرثه ورثته وإذا قبض المرتزق ورثه ورثته؛ لأن المرتزق إنما أعطي ليتصرف فيه تصرف المالك بمنافع نفسه.

---

(1) رواه أبو داود في السنن، باب ما جاء في الوصية للوارث، حديث رقم (2870) [114/3] والترمذي في السنن، باب ما جاء لا وصية لوارث، حديث رقم (2120) [433/4] ورواه غيرهما.

(2) رواه النسائي في السنن الكبرى، ذكر مواريث الأنبياء، حديث رقم (6309) [64/4] والطبراني في الأوسط، من اسمه عبدان، حديث رقم (4578) [26/5] ورواه غيرهما.

(3) روى نحوه البخاري في صحيحه في أبواب عدة منها: باب فرض الخمس، حديث رقم (2926) [1126/3] ورواه مسلم في صحيحه في أبواب عدة منها: باب قول النبي ﷺ: لا نورث...) حديث رقم (1758) [1379/3] وروى نحوه غيرهما.

والخازن إنما أعطي ليخزنه على نوائب الخلق فإذا مات لم يخلفه ورثته؛ لأنهم ليسوا بأمناء فلا يقومون مقامه، إلا أن يكون الذي يخلفه نبي، فهو أمين - الله - تعالى من بعده، وقد قام مقام الأمين الذي مضى، فهو الذي يرثه.

وذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ ﴾ [النمل: 16].

فورَّثه النبوة والخزانة والملك والسلطان والنعم، وزيد علم منطق الطير، وتسخير الريح، والشياطين.

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«إنما أنا خازن، وإنما يعطي الله من شاء»**[1].

وتأسيس أمر النبوة على خلاف أمر العامة، وإنما فضلوا الخلق بالمعرفة بالله والعلم به، وهو: النبوة والانتباه لعظمته وجلاله.

ولما عجزت العامة عن درك ذلك بقلوبها وحُجُبوا عن ذلك، أُسس أمرهم على العبادة من أداء الفرائض، واجتناب المحارم، وانتظار الثواب والجزاء غدًا.

والأنبياء والأولياء أُسس أمرهم على العبودة من بذل جهد النفوس ورفض الهوى والانقياد لحكمه، والتذلل لتدبيره ومشيئته، وانتظار اللقاء غدًا، والوصول إليه في دار الزيادة، وقد انكشف لهم الغطاء عن ملك - الله - تعالى على قدر ما علم - الله - تعالى من احتمال قلوبهم وعقولهم لذلك؛ فصارت الأمور لهم معاينةً فهم أهل اليقين.

وبلغنا عن النبي ﷺ أنه قال: **«ثنتا عشرة خصلة من خصال الأنبياء: كانوا من خوف الفقر آمنين، ومن الخلق آيسين، وعداواتهم مع الشياطين، وعلى الخلق مشفقين، ولأذى الخلق محتملين، وفي النفقة موسعين، وفي موضع الحق متواضعين، وبأمر الله مشتغلين، وفي موضع العداوة لا يدعون النصيحة، والفقر**

---

(1) روى نحوه مسلم في صحيحه، باب النهي عن المسألة، حديث رقم (1037) [718/2] وابن حبان في الصحيح، ذكر الزجر عن أن يأخذ المرء شيئاً من حطام هذه الدنيا..، حديث رقم (3401) [193/8] وروى نحوه غيرهما.

رأس مالهم وفيما قَلَّ أو كثر أحوالهم واحدة، وعلى الوضوء دائمين»[1].

وعن أبي عتبة قال: ألا أخبركم بخصال كان عليها إخوانكم؟

أولها: لقاء الله كان أحب إليهم من الشهد.

والثانية: لم يكونوا يخافون عدوًا قلوا أوكثروا.

والثالثة: لم يكونوا يخافون عوزًا من الدنيا، كانوا بالله واثقين بأن يرزقهم.

والرابعة: لو نزل بهم الطاعون لم يبرحوا حتى يقضي - الله - تعالى فيهم ما قضى.

فأهل النبوة والولاية واليقين إنما يعاملون - الله - تعالى بمثل هذا الصدق في بذل نفوسهم لله تعالى عبودة، والآخرون يخفضون رؤوسهم ركوعًا وسجودًا، ويجيعون بطونهم، فإذا جاءت مثل هذه الحقائق فَهِمَ فَهْمَ نُفُرَان عُبيد أُبَّاق أرغبُ الخلق في هذا الحُطام الفاني، وأشحُ الناس على الرئاسة وحب التعظيم والمدح وأكثر الناس إعجابًا بمحاسنهم، وأعظم الناس في أنفسهم تيهًا وتكبرًا.

فهذه الطبقة لا تقدر على تناول الدنيا على الأمانة فتكون له خزانة؛ إنما أخذها على شهوة النفس، وحلاوة قضاء الأماني؛ فتصير خائنة، لأنه متى استرجعت منهم لحبُ، وما كسبت في ردها حتى تقهر فتؤخذ، ومتى رأيت عارية يعدها المستعير لنفسه ويتخذها لنفسه في ذلك الشيء وطنًا فإذا استردت منه يتأبى على ذلك.

والمتأبي لرد العوارى حتى يقهر فيؤخذ منه خائن، وأهل اليقين قبلوها من ربهم؛ ليكونوا لها خزَّانًا على نوائب الحق بالأنبياء، والأولياء هم عبيد الخدمة وسائر الخلق بعدهم عبيد الغَلة، أي الوظيفة، وظف عليه أن يعمل فبرز علمه ولو أن رجلاً له عبدان. أحدهما: ينتظر متى يؤمر فيعمل لا يُؤثر أمرًا على أمر بهواه؛ إنما هو مراقب لمولاه ولما يشير إليه، فهو عيال مولاه يجري عليه وعلى عياله الرزق من خزائنه.

والآخر: للغلة قد وظف عليه خراجًا معلومًا في كل شهر يؤديه إلى مولاه، ثم يعول نفسه وعياله من الفضل الذي في يده، فمُؤنة ذلك كله عليه وإنما يؤدي إلى

(1) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

مولاه ما وظف عليه شهرًا شهرًا، وما فضل فهو له، فإذا مات ورثه أقرباؤه وأرحامه.

والأول لم يملك شيئًا وإنما يأخذ ما أعطاه مولاه فهو عياله مولاه، هو يجري عليهم والأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - والأولياء هكذا صفتهم، فإن جاعوا أو عروا أوجاع عيالهم فإنهم يراقبون في ذلك تدبير ربهم الذي هو نصب أعينهم والآخرون يؤمرون بالسعي على أنفسهم وعيالهم، فإن لم يعطوا أخذهم الحاكم على ذلك بحكم الكتاب، والأنبياء - صلوات الله وسلامه- عليهم استحكموا في هذه الخطة فلما فارقوا الدنيا، وتركوا الأمانة موضعها صدقة وصاروا إلى ربهم ومن دونهم لم يبلغوا هذه الدرجة، فلما ماتوا خلفهم في ذلك ورثتهم، فإن قال قائل: فكيف ردت أزواج النبي ﷺ الحجر حتى صارت بعدهن مبيعة؟.

قلنا: إن الحجر كانت مساكن لأزواجه ملكًا، وكان السكن من النفقة فأسكنهن ملكًا، كما ملكهن البقعة، فكانت حجرة كل امرأة معلومة مسكونة؛ ولأن المرأة المطلقة المتوفى عنها زوجها، لها السكنى ما لم تنقض عدتها، وقد وقت عدة المتوفى عنها زوجها مدةً: ﴿ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ [البقرة: 234].

فأمَّا أزواج رسول الله ﷺ فوقت لهن الموت قال تعالى: ﴿ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ﴾ [الأحزاب: 53].

فكأنهن في العدة ما عشن، فكانت لهن، والله أعلم.



ذكر علة مقادير المواريث المذكورة في القرآن العظيم

أمَّا علة هذه المقادير التي نطق بها الكتاب العزيز في شأن المواريث، فخليق أن يكون كما نصفه.

فأمَّا الأولاد: ﴿ فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ [النساء: 176]؛ لأنه له مثل عقليهما وشهادته، بشهادتيهما وديته بديتيهما، فجعل له من المال مثل حظيهما، وإذا كانت واحدة فلها النصف؛ لأنه لو كان واحدا وكان ذكرًا كان له الكل.

فإذا كانت أنثى، فلها نصف ذلك الواحد، وإذا كانتا اثنتين، فلهما الثلثان، كأن جعل الثلثين من الإناث يقومان مقام ولد واحد من الذكور.

ولو كان ابنًا، لكان له الثلثان إذا كانت معه أنثى، فلما كانتا اثنتين أعطيتا الثلثين مثل حظ واحد من الذكور، فلما زادتا على اثنتين اشتركن في هذا الحظ الواحد وإن كثر عددهن.

كما أن الذكور وإن كثر عددهم وكان لهم حظ، اشتركوا في ذلك الحظ ولم يزادوا لزيادة العدد؛ لأن الواحدة منفردة، والاثنين جماعة، والبنتان جماعة لاحقتان بالجماعة، وأمَّا إذا اجتمع الأب والابن أُعطي الأب سهمًا من ماله من أدنى السهام، وهو السدس، وأدنى السهام ستة، وأدنى ما تقسم عليه المواريث ستة.

وكذلك روي في الخبر في رجل أوصى له رجل بسهم من ماله، قال: يعطى السدس.

وخلق الله السموات والأرض في ستة أيام، والأيام ستة، ويوم الجمعة عيد، ويوم السبت يوم عبادة، فيعطى الأب سهمًا من ماله من أدنى السهام، وهو السدس وكذلك الأم تعطى سهمًا من ذلك، وعظم الأموال هو للولد الذكر؛ لأن الميت هو منفصل من أبيه والأب متعلق به، وهو عضو منه.

ألا ترى أنه قيل: أقرب العصبة الابن، ثم ابن الابن، ثم الأب، فإذا مات الميت وترك ولدًا ذكرًا، وأُعطي الأب سهمًا، والأم سهمًا من أدنى السهام، وبقي المال للذي هو عضو منه ومتعلق به.

قال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ﴾ [النساء: 11].

وإنما صار هكذا؛ لأن المال صار بين الأب والأم وقد استويا في القرب منه.

فصار كما قال تعالى: ﴿ فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ [النساء: 11] وصار للأم الثلث وللأب الثلثان.

وأمَّا قوله- تعالى-: ﴿ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ﴾ [النساء: 11] يعني: إذا كان أبوان وإخوة، فلأمه السدس، وما بقي فللأب، وحجب الإخوة الأم عن الثلث ولم يكن لهم نصب من الميراث؛ لأن المال كان في ابتداء الأمر قبل نزول قسمة المواريث للعصبة كله، فلما قسَّم - الله - تعالى كل واحد منهم قسمة مسماة، فهي لمن سمي والبقية راجعة إلى الأصل على ما كانت في ابتداء الإسلام

قبل نزول قسمة المواريث.

فهاهنا الآن أب وأم وإخوة فلو لم يكن إخوة كان أثلاثًا: ثلثًا للأم، وثلثين للأب فلمًا جاء الإخوة صار الأب أقرب للعصبة، وكان المال كله له دون الأخوة إلا سهمًا واحدًا، ويعطي الأم أدنى السهام وهو السدس بدءًا.

ولو كان ابنًا وأبًا كان الابن عصبة يستحق بها، ويُعطى الأب سهمًا من أدنى السهام، وهو السدس، ولم يكن للأب حق العصوبة، فإذا جاءت الإخوة وجاء الأب فهم كلهم عصبة والأب أقربهم؛ فإن كان الأب بمعنى العصوبة يأخذ، فتعطى الأم أدنى السهام، وهو السدس، وما بقي للأب؛ لأنه أقرب من الإخوة.

فإن لم يكن له أب وكان له أخوة أُعطيت الأم أدنى السهام، وما بقي فللأخوة، لأنهم عصبة.

فإن كانت أختان فهما بمنزلة الأخوين، ويحجبان الأم عن الثلث، وإن كانت أخت واحدة لم تحجب الأم عن الثلث فيكون لها السدس؛ فالابنة ولد الميت والأخت ولد الميت والأخت ولد أب الميت؛ فهي أبعد ببطن، وأضعف قربى، فتحتاج إلى أن تكون اثنتان حتى يعدلان بواحدة.

فقد وجدنا الواحدة من ولد الميت تحجب الأم عن الثلث، من أجل أن الأخت ولد أب الميت، فلو كان ها هنا مكان الأخت ابنة لكانت الابنة تحجب الأم عن الثلث، ولا ينظر إلى أنه ذكر أو أنثى، وإنما ينظر على القرابة؛ لأنه سواء كان ولد الميت ذكر أو أنثي وكيف ما كان فقد حجبت الأم عن الثلث.

وكذلك ها هنا، سواء كان ولد أب الميت ذكرا أو أنثي، فإذا كان العدد ابنتين قامتا مقام الولد الواحد من ولد الميت في الحجب.

وإنما حرما الميراث من أجل أن ها هنا عصبة أقرب منهما وهو الأب.

وإذا كانت ابنة وأخت، فللابنة النصف وهي على النصف من حظ الابن، والبقية للأخت من أجل أنها ولد أبيه، فالأب يستحق ذلك؛ لأن العم ولد جده، وهذه ولد أبيه، فهي في معنى الاتصال.

ألا ترى أنها لو كانت أختًا من أم كانت لا ترث شيئًا، وكان للابنة النصف والباقي للعصبة، وإن بعدت العصبة.

وأمًا الزوج فله النصف، إن لم يكن لها ولد، فهما شريكان فلما افترقا قسم

له من مالها النصف، فلما جاء الولد كان الولد أحق بالمال؛ لأنه عضو منها إلا أن الزوج له حق فكان له الربع من جسده؛ لأنه قد أُحلَّ له أربع نسوة.

فيُقسم له من مالها بذلك المقدار، كما قسم للأب سهم من أدنى السهام، كذلك قسم للزوج من مالها سهم؛ لأنه بحق عقد النكاح يستحق الميراث.

وأمَّا المرأة فلها الربع من ماله؛ لأنها أنثى فلها من الحظ على النصف ما للذكر، ففي الموضع الذي كان للزوج النصف فلها الربع، وفي الموضع الذي كان للزوج الربع فلها الثمن، هي أبدًا على النصف من حظ الذكر.

كما قلنا: إن للابن في كل مكان المال كله، فإذا كانت ابنة فلها النصف، وأمَّا إذا كانت ابنة وابن ابن فلابنته النصف، والبقية لابن الابن؛ لأنه عصبته يستحق بمعنى العصوبة.

فإن كان مكان ابن الابن أنثى كانت ابنة ابن فهما ابنتان إحداهما أقرب من الأخرى؛ لأن إحداهما ولد الميت، والأخرى ولد ولده، فالثلثان لهما؛ لأنهما ابنتان وهذان الثلثان مقسوم بينهما أرباعًا: ربع لولد ولد الميت، وثلاثة أرباع لولد الميت؛ لأنها أنثى، فهي على النصف من الذكر فإن كان ذكرًا، كان له النصف، وللابنة النصف، فإذا كانت أنثى فلها الربع من حظهما؛ لأنه لا حظ لها في هذا المال إذ كُن إناثًا فوق الثلثين، وإنما لهما الثلثان فتأخذ ابنة الابن النصف من حظهما، مما لو كان ابن ابن من حظة؛ لأن حظ البنين الكل، وحظ البنات الثلثان، فلما كان ولد الميت اقتسماه نصفين.

فلمَّا كان أحدهما أبعد ببطن، وكان ذكرًا كان لولد الميت النصف والنصف الآخر لولد ولد الميت لو كان ذكرًا، فلما كانت أنثى دخلت في أعداد البنات؛ فاستحققن الثلثين ثم صار لها من ذلك الثلثين الربع على النصف من حظ الذكر، وهو السدس من جميع المال.

وأمَّا إذا كان أخًا وأختًا من أم، فلكل واحد منهما السدس أُعطي ما كان لأمه لو كانت حية، استحقا ذلك بأمهما لأن كل واحد منهما إنما يدلي بقرابة أمه؛ فيستحق بها، فالذكر والأنثى فيه سواء.

وأمَّا إذا كانت ابنة، وابنة ابن، وأختًا فقد أخذت الابنة مع ابنه الابن حظهما الثلثين على ما وصفنا بدءًا، فبقي ثلث المال فهو للأخت؛ لأن الأخت على

انفرادها لها فريضة التنزيل إذا لم يكن ولد، فإن كان ولد، وكان الولد ابنة ففريضتها النصف، وما بقي بعد ذلك فلصاحبة الفريضة التي تليها وتخلفها، وهي الأخت إذا كانت أحق بها من العصبة، وذلك أن الابنة لو لم تكن، قامت الأخت مقامها، وأخذت النصف مثل فريضتها؛ لأنه لو كان له أخ كان المال كله له.

فلما كانت الأخت كان لها النصف من حظ الذكور، وكذلك الابنة لها النصف من حظ الذكور؛ لأنه لو كان ابنًا كان له المال كاملا، فوجدنا الأخت تخلف الابنة وتقوم مقامها في معنى الفرض؛ لأنها ولد أبيه، فإذا كانت الأخت لها هذا المحل فإذا اجتمعا أخذت الابنة فريضتها، وهي النصف، ثم ما بقي بعد ذلك كانت كأنها في هذا النصف على الانفراد وليس هاهنا ولد؛ لأن الابنة أخذت حظها، فلم يبقَ لها منازعة فكأنها لم تكن، وصار هذا الذي يبقي للأخت، وصارت أحق من العصبة.

فكذلك إذا كانت ابنة وابنة ابن وأخت أخذت الابنتان ثلثيهما على ما ذكرنا أرباعًا، وما بقي فلمَن أحق من العصبة؛ لأنه لو لم تكن هاتان الابنتان كانت الأخت تأخذ نصف المال، فإذا بقي الثلث فهي أحق به من العصبة.

وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - في ابنة وأخت: إن للابنة النصف، وما بقي فللعصبة، وليس للأخت شيء.

فقال له رجل: فإن عمر رضي الله عنه قضى بالنصف الباقي للأخت.

فقال ابن عباس رضي الله عنهما: أنتم أعلم أم الله؟! قال - الله - تعالى: ﴿ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ﴾ [النساء:176].

فقلتم أنتم: لها النصف، وإن كان له ولد.

فهذا مذهب ابن عباس رضي الله عنهما ذهب إلى أن - الله - تعالى جعل للأخت النصف إذا لم يكن ولدٌ، ولم يجعل لها مع الابنة النصف.

فمن الحجة على ابن عباس رضي - الله - تعالى عنهما؛ أن تلك إنما تعطى فرضًا بالتنزيل إذا لم يكن ولدٌ، ولم يجعل لها مع الابنة.

فإذا كان أصحاب الفرائض يأخذون فرائضهم، وبقيت فضلة، ولم يبقَ لذي فريضة حقٌ، كانت تلك الفضلة مصروفة إلى العصبة، وكانت الأخت صاحبة فريضة على انفرادها بمكانها أحق بأن يخلفها في الفضلة من العصبة، فإنما تعطى

هاهنا لا من طريق العصبة؛ ولكن على سبيل أقرب الأرحام.

وقد قال عبد الله بن مسعود: ذو أسهم أحقُّ ممن لا سهم له.

فلو اجتمعت الأخت والعصبة؛ كانت الأخت بالنصف من المال أحقَّ من العصبة، فإذا أخذت الابنة نصفها فهذه البقية أحقُّ بها من العصبة؛ كأنه نصفها.

وإن معاذ بن جبل ﷺ وهو أمير اليمن ورسول الله ﷺ يومئذ حيٌّ: قسم مال رجل بين ابنته وأخته، فأعطى ابنته النصف وأخته النصف.

وعن عبد الله بن الزبير ﷺ أنه قال على المنبر: أيُّكم يخبرنا ما للأخت مع الابنة؟ فقام الأسود بن يزيد فقال: أشهد على معاذ بن جبل أنه أتانا فقسم مالاً بين الابنة والأخت.

فقال: مَن أنت ؟ فقال: أنا الأسود بن يزيد.

ثم قدم الأسود الكوفة، فأتى عبد الله بن عتبة؛ وكان قاضيًا من ابن الزبير، فذكر ذلك له، فقال له عبد الله: إنك عندي لمصدَّق، ولكن لم يجئني فيه كتاب، فجاءه كتاب ابن الزبير أن الأسود حدَّثني أن معاذًا قدم اليمن، فقسم المال بينهما، وإن الناس قد أخذوا بذلك. قال أبو بكر: ولم يكونوا يدرون قبل ذلك كيف هذا.

وأمَّا الجد، فهو خليفة الأب، كما أن ابن الابن خليفة الابن.

فاختلف أصحاب رسول الله ﷺ في شأنه؛ إذ لم يجدوا له في التنزيل فرضًا معلومًا، ولا في السُّنة شيئًا مذكورًا.

فقال أبو بكر، وعثمان، وعائشة، وابن الزبير، وابن عباس - ﷺ-: هو بمنزلة الأب. وقال علي ﷺ: هو بمنزلة الأخ مادام له السدس. وقال ابن مسعود: هو بمنزله الأخ ما دام له الثلث، فإذا نقص فله الثلث كاملاً. وقال عمر وزيد -ﷺ-: هو بمنزلة الأخ كيف ما بلغ في عدد الإخوة.

فشبه زيد ﷺ بمنزلة شجرة انشعب منها غصن شعبتين، وانشعب من الغصن غصنان، وأحد الغصنين أقرب إلى صاحبه من الغصن الأول.

وشبه علي ﷺ بسيل انشعب منه شعبة، ثم انشعب منها شعبتان، فكان إحدى الشعبتين أقرب إلى الوسطى منه إلى الأصل.

وذهب أبو بكر ﷺ إلى أن الجد قام مقام الأب في أحوال كثيرة في الميراث،

وفي الحجب، فلو ترك ابنًا وأبًا كان للأب السدس، والباقي للابن.

وكذلك لو ترك جدًّا وأخًا لأم كان للأب السدس دون الأخ من الأم.

ولو ترك جدًّا وأخًا لأم كان كذلك.

فقـــام الجـــد مقام الأب في أحوال كثيرة من الميراث والحجب، فلو ترك ابنًا وأبًا كـــان للأب السدس دون الأخ من الأم، والوصاية والولاية والشهادة إنما لا تقبل منه للستهمة، ولا يُعطى من الزكاة، وإذا مات ولم يوصِ إلى أحد؛ فالجد يقوم مقام الأب في الوصـــية والتـــــركة، ويعمل في مال اليتيم كما يعمل الأب، فنظرنا فإذا الجد لا يخلو من إحدى ثلاث منازل:

إمَّا أن يكون بمنزلة الأب فله المال كله.

أو يكون منزلته وقربه دون الأب وفوق الأخ وأقرب منه وهما عصبة المال لأقربهما وهو الجد؛ لأنه أكبر من الأخ ودون الأب.

وإمَّا أن يكون قربه قرب الأخ، فكان لا يحجب الأخ للأم عن الميراث الميراث كما حجب الأب، وكان الأخ لا يحجب، فكان إذا اجتمع الجد مع الابن لم يرث شيئًا، كما أن الأخ إذا اجتمع مع الابن لم يرث شيئًا، فبان لك أن الجد له منزلة الأقرب من الأخ، فلمَّا كان كذلك كان المال لأقرب العصبة دون أبعدها، وقد اتفقوا كلهم أن للجد حالة أكبر من الأخ؛ لأن عمر وزيدًا -رضي الله عنهما- أعطياه الثلث مع الأخوة إذا كثر عددهم، وعلي رضي الله عنه أعطاه السدس معهم، وجعلوا له حالة أكبر من حالة الأخ.

فكلهم اتفقوا على أن للجد حالةً زائدةً على الأخ، واتفقوا على أن أقرب العصبة أولى، فإذا اجتمعت العصبتان: جد وأخ، وظهر اتفاقهم على أن للجد حالةً تفضل الأخ قربًا وتأكيدًا، وأن أقرب العصبة أولى كان له دون الأخ، فإن قال قائل: فإن الإخوة والأخوات لهم فريضة في التنزيل وليس للجد فريضة؛ فالحجة عليه أن يقال له: كيف أدخلت الجد عليهم في فريضتهم وصيرّته مساويًا له؟ فلِمَ صيرت للجد في فريضتهم حظًّا أكثر من حظ واحد منهم؟

قلت: إذا زاد في العدد على ثلاثة فللجد الثلث كاملاً، وما بقي فهو بين الأخوة.

فإن قال قائل: كيف تقول في امرأة ماتت، وتركت زوجًا وأبوين؟ قلنا:

للزوج النصف، وللأم الثلث، وما بقي فللأب.

فإن قال قائل تركت زوجًا وجدًا وأمًا، قلنا : للزوج النصف، وللأم الثلث، وما بقي فللجد.

قال : وكيف لم يقم الجد مقام الأب هاهنا!.

قلنا: إن الزوج ليست وراثته من طريق النسب والقرابة، وإنما جعلنا الجد يقوم مقام الأب في الحجب والميراث، لا في القرابة، وإن قرابته قرابة الأب مستوية، ووجدنا الأبوين إذا لم يكن معهما أحدٌ، فمعناهما معنى العصبة، فكان للأم الثلث، وللأب الثلثان، كما جعلنا في ابن وابنة أثلاثًا، وإذا كان الابن وحده فله المال كله، وإذا كانت الابنة وحدها فلها النصف لا تزاد على حظها أن لو اجتمعا، وما بقي فللعصبة، وإذا اجتمعا اقتسماه أثلاثًا.

كما جعلنا في أم وابنة؛ فأعطينا الأم السدس، فصار ما بقي منهما أثلاثًا، وقد كان للابنة فريضة على جدتها النصف، فلمًا اجتمعت مع الأب صار ما بقي بينهما أثلاثًا.

فكذلك ها هنا أعطينا الزوج النصف واستويا في القرابة، وأعطيناهما البقية أثلاثًا، كما كان بدءًا أن لو لم يكن زوج كان المال بينهما أثلاثًا، وإذا كان جدٌ وأمٌ فليس الجدُ بجد الأم في القرابة؛ بل هو أبعد، فأعطينا الزوج النصف، والأم الثلث كاملاً، والباقي للجد بمعني العصوبة، ولم أجعل الجد بحذاء الأب، فيقاسم الأم؛ لأنه لم تستو قرابتهما، فلمًا كانت الأم أقرب أعطيتها فريضتها، وصرفت البقية إلى الجد.

ألا ترى أنه لو كانت ابنة، وابن ابن، كان للابنة النصف، وما بقي فلابن الابن؛ لأنه لمًا زال عن أن يكون بحذائها أُعطيت الابنة فريضتها، وأُعطي ابن الابن ما بقي، ولم يجعله يقوم مقام الابن فيقاسم البنت أثلاثًا.

❖❖❖

ذكر علّة تحريم الخمر

والخمر: كل شراب اشتدَّ، فإذا اشتدَّ خامر العقل: أي غطاه، وسدَّ الطريق بين عيني القلب، ونور العقل، فإن العقل مسكنه في الدماغ، فإذا أراد القلب أمرًا أشرق العقل بشعاعه في الصدر؛ فزيَّن ذلك الشيء على عين القلب، وبيَّن المحاسن

من المساوئ، وميَّز بينهما، فإذا شرب الشديد من الشراب المنهي عنه صار سدًّا بين العقل والقلب.

وأصل ذلك أن كل حلاوة من الأطعمة والأشربة فأصلها من الفرح، ولمّا غُرس العنب في الجنة، جرى الفرع من بين الأشجار ذوي الثمر وإلى كل شيء حلو، فأول ما بدأ آدم عليه السلام حين دخل الجنة بدأ يأكل العنب.

كذلك رُوي أن أهل الجنة أول ما يدخلون الجنة يأكلون العنب، فما زال آدم عليه السلام يأكل من الأشجار حتى امتلأ فرحًا وثمل من الفرح، فنسي العهد وأغراه العدو، فحذر الله العباد، وجعلها موعظةً واعتبارًا لهم؛ ليحذروا ويعتبروا؛ كأنه يقول: إني وضعت هذه الأفراح في نفوسهم قسمة بينهم، فمَن فرح بي دام فرحه، وقرَّت عينه وسعد جده، وأصاب رشده [.......][1] ومَن يفرح بفضلي، ورحمتي عليه من الإيمان والإسلام والطاعة، وأصاب رشده، وسعد جده، وكان على رجاءٍ عظيمٍ من كرامتي.

فالأول: فرح الصديقين، **والثاني:** فرح الصادقين.

ومَن فرح بالحياة الدنيا وزينتها أخطأ رشده، وفاته حظه، ولم ينل بغيته؛ لأنه لا دوام لها، والله لا يحب الفرحين، ومَن فرح بالأوثان، والأصنام التي يعبدها دوني فالويل كل الويل له.

ثم أجمل الأحزاب كلها فقال عز وجل: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: 53].

وقال تعالى أيضًا: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: 58].

وقال عز وجل: «**الصديقين بي فافرحوا وبذكري فتنعموا فإني لكم في الدنيا كنز وفي الآخرة ذخر**»[2].

فهذا الفرح الذي استخفَّ بحلم آدم عليه السلام حتى نسي العهد، وذهب العزم،

---

(1) بياض في الأصل.

(2) أورده ابن رجب أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب البغدادي في جامع العلوم والحكم [448/1].

فعاد الفرح حزنًا، فلمَّا كان يوم نوح ﷺ وجد العدو سبيلاً إلى دخول السفينة، وذلك أنه مدَّ بأُذني الحمار ليدخله، فأخذ العدو بذنبه حتى ملَّه نبي الله، فقال: ادخل ولو كنت شيطانًا، فوجد العدو إذنًا، فدخل وسرق العنب، فلما استوت السفينة على الجودي، وأخرج نبي الله ما فيها؛ افتقد العنب، فذهبت الملائكة، وجاءت بالعدو، وحضر جبريل ﷺ يقضي بينهما.

وقال: إنه شريكك، فتحسر حتى افترقوا على أن للعدو الثلثين، والثلث لنوح ﷺ على شرط أن يغرسه العدو، فذهب به فغرسه، وبال فيه اليوم الأول، وسقاه اليوم الثاني دم كلب، ويومًا آخر دم أسد، ويومًا آخر دم خنزير، ويومًا آخر دم قرد، فغيرت هذه الدماء ألوانه، واعترت شاربه أخلاق السباع مادامت فيه، فالبول ستر العقل في الدماغ، وبهذه يكلب، ويأسد، ويتخنزر، ويعربد، ويتقرَّد، ويلعب كالقرد، فإذا لم ينضج العنب جاء العدو، فخاضه بيده فيزيد ويسيل؛ لأنه خُلق من النار، ووجد السبيل إلى معدة شاربه، وقلبه في صدره، فامتلأ فرحًا بأحواله الدنسة والوحشة، فطرب، فحرم - الله - تعالى على المؤمنين ذلك.

فقال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة:90]، فسمَّاه رجسًا لمَّا خاضها بيده، ونجَّسها بالبول الذي بال في أصلها.

ثم قال ﷻ: ﴿ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ [المائدة:90]: أي من لماسته إياها، وخوضها بيده: ﴿ فَٱجْتَنِبُوهُ ﴾ [المائدة:90].

ثم بيَّن ما يصنع الشيطان عند ذلك فقال ﷻ: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ ﴾ [المائدة: 91].

فأي داء أدوأ من العداوة والبغضاء؟ وأي ضرر بأضر من شيء يصدُّ عن ذكر - الله - تعالى وعن الصلاة؟

فبيَّن ضرره وعلَّة تحريمه، فذكر خصالاً ثلاثًا كلها تؤدي إلى الهلاك، فالعداوة والبغضاء بهما خراب دينه ودنياه، والصدُّ عن ذكر الله به خراب قلبه، والصدُّ عن الصلاة به خراب جوارحه؛ لأن العبد إذا صدَّ عن ذكر الله خلا قلبه عن كل خير،

واستولت عليه النفس بدواهيها، وإذا ضيَّع المكتوبات تراكمت عليه الذنوب وأحاطت به فلم يجد إلى التوبة سبيلاً.

والخمر وكل شيء مسكر فهو مفسد للعقل، وبالعقول وحَّدَهُ العبادُ وعرفوه، فإذا سكر انسَدَّ طريق العقل، فلا يصل إلى القلب، ووجد الشيطان سبيلاً إلى القلب فأفسده، ووجدنا أربعة أشياء سُميت في التنزيل رجسًا.

فقال تعالى: ﴿ أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا ﴾ [الأنعام: 145].

وقال ﷻ: ﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴾ [الحج: 30].

وقال: ﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ [المائدة:90].

فأمرنا باجتنابها كما أمرنا باجتناب الأوثان، وسمَّاها رجسًا كما سمَّى الأوثان، وإنما صار رجسًا من أجل أن الشيطان قد نالها ومسَّها، وكذلك الأنصاب والأزلام؛ فهذه كلها للشيطان.

والخنزير خُلق لأكل العذرة في سفينة نوح عليه السلام، وإنما صار الطعام عذرة في الجوف؛ لحلول الشيطان في جوف المعدة، ووجد السبيل إلى جوف آدم عليه السلام يوم أكل من الشجرة، فاتخذ لنفسه هناك موطنًا، فأنتن الطعام، وصار بخروجه حدثًا، فأُمر بالوضوء؛ لرجاسة العدو، وصارت العذرة غذاء الخنزير؛ لأن العذرة كثرت في سفينة نوح عليه السلام، فشكا إلى - الله - تعالى، فأمره أن يمسح ذنب الفيل، ففعل فبتر خنزيرًا من أنفه، فأكل العذرة، عن ابن عباس مثله.

وإنما زجر - الله - تعالى الخلق عما يُشينهم، ويُفسد عليهم محاسنهم، وأن لا يقعوا في أودية الهلاك، وألا يكونوا في زي أهل الذلة والصغار، ومن أحق بالذلة والصغار ممن يكون شاربها بهذه الصفة شاربًا للخمر سكران حيران جاهلاً بالله وبملائكته وكتبه ورسله، جاهلاً بطاعة ربه ومعصيته، جاهلاً بثوابه وعقابه ومعاده، جاهلاً بدين الله، أضل في سُكره من البهيمة، عاصيًا لربه، قد احتوته الشياطين، وفارقته الملائكة في طاعته له مخالفًا لله ورسوله، ثم مع ذلك قيء من

الشدقين ومَلح على العقبين، وحد على الظهر والمنكبين، وسُخرة الشيطان، وترك أمر الدنيا، [....][1] وضحكة الصبيان، مردود عليه صلاة أربعين صباحًا، فدخل هول أكثر من هذا، فقد وجب له مع ذلك سخط الله والنار.



ذكر علة تحريم الدم

فإن المعدة منها أصل الدم، وذلك أن العدو وجد سبيلاً إليها يوم أكل آدم عليه السلام من الشجرة، فمن مستقره يجري الدم في العروق، فأينما ظهر وسال وجب الوضوء.

وكذلك البول، فالبول بظهوره يصير حدثًا والدم بسيلانه؛ لأن الدم ربما جمد فصار لحمًا، فإذا سال فقد زال عن الجسد، وبان عن أن يكون لحمًا، فوجب الوضوء، فكذلك ما خرج من النصف الأسفل صار حدثًا؛ لأن ذلك من مستقره وتلك رجاسة الكفر.



ذكر علّة تحريم الميتة

أمَّا تحريم الميتة: فمن أجل أن الروح مادام فيها، فالدم جار في العروق، فإذا خرج الروح جمد الدم، فالأكل للحمة أكل لدمه معه، فأمر بأن يذكّي، ويقطع الأوداج التي يجري منها الدماء المسفوحة، والحلقوم، والمريء طريق النفس، وطريق العلف؛ فهذه كلها مجاري الدماء المسفوحة، وإنما أمر بالذبح؛ لقطع تلك العروق؛ لتسيل الدماء التي إذا وجدت طريقًا انسفحت؛ لأنها في الأصل كانت جارية في البدن كالجداول، وليست تلك دماء اللحم؛ إنما هي دماء العروق تجري في الطبع؛ وأصلها من المعدة من مستقر العدو، فحُرِّمت لهذه العلة.

وإنما حرَّم - الله - تعالى الدم المسفوح في تنزيله لا الدم الذي في اللحم والكبد والطحال.

(1) بياض في الأصل.

قال رسول الله ﷺ : «أحلت لنا ميتتان ودمان؛ فأمَّا الميِّتتان: فالجراد والحوت، وأمَّا الدَّمان: فالطُّحال والكبد»[1].

فهذا تحقيق ما قلنا من العلَّة أن: الطحال والكبد دماؤهما كدماء اللحم وأن دماء العروق إنما تجري من مستقر العدو ؛فنجاسته ورجاسته من قِبل العدو، والجراد والحوت لا دماء لهما، فموتهما لا يحرمهما علينا؛ لأنه ليس هناك عروق تجري فيها الدماء، وإذا خرج الروح من قبل جريه جمد فيه، ودم السمك يبيّض إذا أصابته الشمس؛ ذلك لتعلم أنه ليس دم الطبع، ودم العروق، والله أعلم.

❖❖❖

ذكر علَّة تحريم الذهب والحرير على الرجال

وأمَّا علة تحريم الذهب والحرير على الرجال، فمن أجل أن - الله - تعالى وصف أهل الجنة فقال ﷻ: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج:23].

فإذا لبسهما في الدنيا كان كالمباهي لأهل الجنة في الدنيا، وكيف يُحسن المباهاة بعبد غريق في الذنوب والآثام وعاقبة منتهاه إليه؟! والذهب والحرير من لباس الفراعنة، والجبابرة، والذين تعجَّلوا طيباتهم في حياتهم الدنيا، واستمتعوا بها.

ألا ترى إلى قوله تعالى: «قل لبني إسرائيل: لا تطعموا مطاعم أعدائي، ولا تلبسوا ملابس أعدائي، ولا تركبوا مراكب أعدائي، فتكونوا أعدائي كما هم أعدائي؟»[2].

فالتشبُّه بأعداء الله، والتزيي بزيهم، مما يغير القلب ويفسده.

وكذلك قال ﷺ: «مَن تشبه بقوم فهو منهم»[3].

---

(1) رواه ابن ماجه في السنن، باب الكبد والطحال، حديث رقم (3314) [1102/2] والبيهقي في السنن الكبرى، باب ما لا نفس له سائلة..، حديث رقم (1128) [254/1] ورواه غيرهما.

(2) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(3) رواه أبو داود في السنن، باب في لبس الشهرة، حديث رقم (4031) [44/4] والطبراني في الأوسط، حديث رقم (8327) [179/8] ورواه غيرهما.

وإنمــا حلَّ ذلك للنساء؛ لأن ذلك حليتهنَّ، وزينتهنَّ، فلم يمنعهنَّ من ذلك؛ لأنه حــق مــن الحقــوق، وإنما تتزيَّن المرأة، وتتحلَّى؛ لعفة زوجها، ولتقيه فتنة النساء، والــرجل يتكبَّــر، ويبغي،ويتطاول بلبسها، ونهمات الرجال مشتَّتة في أشياء كثيرة، ونهمــات النسوة في الرجال، فإذا وجدن ما يبغين اكتفين، ولم يُلزم الزوج أن يتحلَّى لهــا، ويتزيَّن بالذهب، وأمَّا المرأة فمن حق الزوج عليها أن تتزيَّن وتتحلَّى، وتتشرَّف لعفة الزوج.

وكــذلك العلَّــة في النهي عن الشراب في آنية الذهب والفضة، وافتراش الحرير والديباج؛ لأن ذلك كله فعل الفراعنة، والجبابرة، ومن أثر الحياة الدنيا.

عن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- قال: «**من تشبَّه بقوم فهو منهم**»[1].

وبإســناده قــال: نهى رسول الله ﷺ عن: **أن يلبس الحرير والديباج، وعن أن يجلــس علــيه، وعن الشرب في آنية الذهب والفضة، وأن نأكل فيهما**[2]، قال: وهذا من جيد الحديث.

وقد نظرنا في عامة الروايات، فلم نجد ذكر الافتراش إلا في هذا الحديث.

وأكثر ما وجدنا في الافتراش عن شهر بن حوشب قلت لعبيدة: افتراش الحرير والديباج كلبسه؟ قال: نعم.



ذكر علَّة تحريم جرِّ الإزار خيلاء

وأمَّا علَّة جرِّ الإزار خيلاء: فإن - الله - تعالى: العزُّ إزاره، والكبرياء رداؤه.

فجرُّ الإزار خيلاءً، وفخرًا حرام، واحتجب بالكبرياء، فالفاعل لهذا متمثل به.

فلذلك قال رسول الله ﷺ : «**مَن جرَّ ثوبه خيلاء، لم ينظر الله بوجهه الكريم إليه يوم القيامة**»[3]؛ لأنه ضاهاه، وهذا من البطر.

---

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

(2) روى نحــوه التــرمذي في الســنن، باب ما جاء في كراهية الشرب في آنية الذهب والفضة، حــديث رقــم (1878) [299/4] وأبو داود في السنن، باب في الشرب في آنية الذهب..، حديث رقم (3723) [337/3] ورواه غيرهما.

(3) رواه البخاري في صحيحه، في أبواب عدة منها: باب قول النبي ﷺ: لو كنت متخذاً خليلاً..، حديث رقم (3464) [1340/3] ورواه مسلم في صحيحه، باب تحريم جر الثوب، حديث

وعن رسول الله ﷺ قال: «لا ينظر الله إلى مَن يجرُّ ثوبه خيلاء، وجرَّ إزاره بطرًا»[1].

وعن رسول الله ﷺ قال: يقول - الله - تعالى: «أربعةٌ لي، فمَن نازعني فيهن كببته، في النار: الكبرياء، والعظمة، والفخر، والقدر سري».

❖❖❖

ذكر علَّة قول رسول الله ﷺ:

«إذا دخـــل العشر وأراد أحدكم أن يُضحِّي فلا يمسُّ من شعره ولا بشره شيئًا»[2].

فمن أجل أن الأُضحية فدية النفس، ورثناه في الملَّة عن خليل الله عليه السلام فدى ابنه من الذبح بكبش. ألا ترى إلى قول رسول الله ﷺ : «أنه يُغفر له مع أول دُفْقَة من دمها»[3].

فهذه فدية النفس الخائنة التي أثقلت نفسها بالذنوب، فاستوجبت النار، فوضع لها هذه الأُضحية سببًا لنجاتها.

وذلك قول رسول الله ﷺ : «مَن ضحَّى محتسبًا بنفقته، طيبة بها نفسه، كانت فداءه من النار»[4]. وإذا دخلت الأيام المعلومات فمن شأن القوم أن يكثروا من ذكر الله.

قال الله ﷻ: ﴿ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ [الحج:28].

كذلك قال تعالى في تنزيله، وكان دخول العشر مفتتحًا؛ لارتياد أضاحيهم وكثرة التكبير، والذكر، والتحليل للهدي تعظيمًا لشعائر - الله - تعالى. قال

رقم (2085) [1651/3] ورواه غيرهما.

(1) نفس المرجع السابق بدون لفظ (وجر إزاره بطراً).

(2) رواه مـــسلم في صحيحه، باب نهي من دخل عليه عشر ذي الحجة..، حديث رقم (1977) [1565/3] وابـــن ماجه في السنن، باب من أراد أن يضحي..، حديث رقم (3149) [2/ 1052] ورواه غيرهما.

(3) رواه الروياني في المسند، برقم (138) [134/1].

(4) أورد نحوه المناوي في فيض القدير، حرف السين [127/6].

الله ﷻ: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج:32]. وقال تعالى: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج:32].

فكانوا إذا دخل العشر أعدوها فاشتروها، وكان ذلك عندهم نذرًا يجب الوفاء به.

وقد أعلمهم رسول الله ﷺ: أن مَن أراد أن يفعل ذلك ألاّ يأخذ من شعره وبشره شيئًا؛ كي يأخذ من الفداء بحظه؛ لأنه إذا لم يفعل ذلك، وضحَّى يوم النحر لم يدخل ما زاله من شعره وبشره منه شيء في الفداء، وقد كان شريك البدن في الذنوب والخطيئات، فبقي الزائل من شعره وبشره مع دنس الذنوب، ولم يحتظ من الفدية حظها، فلأهل الفهم عن - الله - تعالى في هذا نظر لطيف، يتفقدون مثل هذه الأشياء، فاليسير من أمر الذنب عظيم قدره عند الله تعالى.

ألا ترى أن الميت إذا كان طويل الأظفار، وافر الشعر لم يجزَّ منه شيء، ولم يُؤخذ منه شيء، وإذا زايله شيء ضُمَّ إليه؛ لأنه البشرى، إنما يُبشَّر به المؤمنون عند الموت، قد عمت جميع الجسد، فوقع لكل شعرة، ولكل ظفر منه حظّ، فاحتظى كل شيء منه بحياله من كرامة الله - تعالى- وبشراه ورحمته.

فكذلك إذا دخل مفتتح أيام الذبح وهي: أيام معلومات مشهورات عند الله، ونوى يذبح، توقَّى أن يزيل شيئًا من جسده عن نفسه، حتى لا يحرم الفداء والكرامة من الله - تعالى - والرحمة.

تم كتاب العلل بحمد الله وعونه فنسأله التوفيق لصالح الأعمال



فهرس المحتويات

تقديم 3

ترجمة الحكيم الترمذي 7

كيفية السلوك إلى رب العالمين

كيفية السلوك إليه سبحانه وتعالى 11

العزلة وإيثار الخلوة 13

من آداب الخلوة 14

آداب الدخول والوقوف بين يدي الحق 16

وأما المردودون فهم رجلان 19

بيان الفرق بين الصَدر والقلب والفؤاد واللُبّ

الفصلُ الأوّل 25

الفصْل الثاني 29

الفَصْلِ الثالث 32

الفصلُ الرَابع 40

الفصل الخامِسُ 44

الفصْل السّادِسُ 48

منازل القربة

مسألة الشكر على الحقيقة 66

مسألة في التقوى 67

مسألة في هل للمستقيم حب المعصية في أوقات؟ 82

مسألة في شرح قوله: الخشية من العلم بالله 83

مسألة في تعلق الروح بالجسد 85

مسألة في القلب 86

مسألة في ميراث الأنبياء 92

المستدركات 94

المستدرك الأول : "باب في شأن النية" 94

المستدرك الثاني : باب في تفسير قول رسول الله ﷺ "إني تاركٌ فيكم الثقلين كتاب الله، وعترتي" 97

المستدرك الثالث : "باب في تفاوت المعرفة والإيمان والتوحيد وما يشبه ذلك". . . 101

المستدرك الرابع : "باب آخر في الصفات" 103

المستدرك الخامس : باب في قول الله- تبارك وتعالى- "مَن رجا غير فضلي، وخاف غير عدلي، فليطلب ربًا سواي" 106
المستدرك السادس : "باب في لذة الطاعة من أي شيء تتشعب" 109
المستدرك السابع : "باب في تفسير حب الدنيا" 110
المستدرك الثامن : "باب في حقيقة بسم الله" 111
المستدرك التاسع : "باب في الحمد" 112
المستدرك العاشر : "باب في السواد الأعظم" 113
المستدرك الحادي عشر : باب في صفة المؤمن 115

إثبات العلل الشرعية

ذكر علة الإقرار بالتوحيد 128
ذكر علة الأعمال 130
ذكر علة الوضوء 133
ذكر علة مواضع الوضوء 134
ذكر علة الغُسل من الجَنابة 134
ذكر علة الصلاة 135
ذكر علة استقبال القِبلة وقت الصلاة 138
ذكر علة التكبير 140
ذكر علة الثناء 140
ذكر علة الاستعاذة 141
ذكر علة القراءة 141
ذكر علة الركوع 143
ذكر علة التسبيح 144
ذكر علة السجود 145
ذكر علة التسبيح 146
ذكر علة القعود 146
ذكر علة التّشهُّد 147
ذكر علة التحيّات والتسليم 149
ذكر علة رفع الأيدي ورمي البصر 152
حيث يسجد 152

ذكر علّة عدد الركعات والسجدات 152
ذكر علّة الركعتين 153
ذكر علّة عدد المفروضات 153
ذكر علّة الجمعة 156
ذكر علّة الجهر فيها والتخافت في سائرها 157
ذكر علّة القراءة بالسجدة 158
ذكر علّة أوقات الصلاة 158
ذكر علّة الظهر 159
ذكر علّة المغرب 159
ذكر علّة أول الوقت على آخره فضلاً 161
ذكر علّة صلاة الجماعة والإمامة 163
ذكر علّة الصف 166
ذكر علّة مَن صلّى خلف الإمام وحده 169
ذكر علّة الصف الأول 170
ذكر علّة الإمام 170
ذكر علّة صلاة الوتر وعلّة قراءة السور الثلاث فيها 171
ذكر علّة القنوت 172
ذكر علّة صلاة الفِطر وصدقته وصلاة الضُحى والأضحى 172
ذكر علّة توالي التكبيرات فيهما 174
ذكر علّة السنن 176
ذكر علّة الصلاة على الجنائز وعلّة التكبيرات 177
ذكر علّة إمامة السلطان 178
ذكر علّة خير الصفوف في الجنازة مؤخرها 180
ذكر علّة قيام الإمام على الجنازة 180
ذكر علّة التسليم على الجنازة وفي الصلاة 180
ذكر علّة المشي أمامها وخلفها 181
ذكر علّة الصلاة على الطفل 184
ذكر علّة تكفين الميت 184
ذكر علّة عَرض أعمال الأحياء على الأموات 184

ذكر علّة الصَّوم 185
ذكر علّة صوم يوم عرفة وعاشوراء والاكتحال فيه 187
ذكر علّة الزكاة 189
ذكر علّة مقادير الزكاة 192
ذكر علّة العُشْر 197
ذكر علّة الخُمُس 197
ذكر علّة الحج 200
ذكر علّة الاستلام 203
ذكر علّة الأُضحية 203
ذكر علّة الرِّبا 205
ذكر علة النهي عن بيع الطعام حتى يكال 208
ذكر علّة الميراث 208
ذكر علّة القاتل أنه لا يرث 209
ذكر علّة الأنبياء – صلوات الله وسلامه عليهم – أنهم لا يُرثون 210
ذكر علّة مقادير المواريث المذكورة في القرآن العظيم 213
ذكر علّة تحريم الخمر 220
ذكر علة تحريم الدم 224
ذكر علّة تحريم الميتة 224
ذكر علّة تحريم الذهب والحرير على الرجال 225
ذكر علّة تحريم جرِّ الإزار خيلاء 226
ذكر علّة قول رسول الله ﷺ 227
فهرس المحتويات 229